الكنيسة الأرثوذكسية

في الماضي والحاضر

تيموثي وير

١٠

« تعرَّف إلى كنيستك »

تيموثي وير

الكنيسة الأرثوذكسية
في الماضي والحاضر

منشورات النور
١٩٨٢

جميع الحقوق محفوظة
لمنشورات النّور

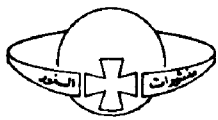

« تعرّف إلى كنيستك »

١ ـ آراء ارثوذكسية في الكنيسة — مجموعة من المؤلفين
٢ ـ الارثوذكسية في الكراسي الشرقية — جورج خضر
٣ ـ الكنيسة والدولة — خضر/ ترويتسكي
٤ ـ الرؤية الارثوذكسية لله والانسان — جورج خضر
٥ ـ العبادة الفردية والعبادة الجماعية — جورج فلورفسكي
٦ ـ الفقر والغنى في الكتاب المقدس وعند الآباء — جورج خضر
٧ ـ العائلة . . . كنيسة — افدوكيموف/ بندلي
٨ ـ كن كاهني — ليف جيلله
٩ ـ آراء ارثوذكسية في والدة الاله — مجموعة من المؤلفين
١٠ ـ الكنيسة الارثوذكسية في الماضي والحاضر — تيموثي وير
١١ ـ الكنيسة الارثوذكسية : ايمان وعقيدة — تيموثي وير

يشكل هذا الكتاب القسم الأول من كتاب : «The Orthodox Church» لمؤلفه Timothy Ware والذي صدر بالانكليزية سنة ١٩٦٣ ثم اعيد طبعه مراراً ونُقل الى عدة لغات. وقد نقله الى العربية الاستاذ هاشم الحسيني بالاشتراك مع فريق من أعضاء حركة الشبيبة الأرثوذكسية. وتجدر الاشارة الى ان تيموثي وير انجليكاني المولد وانه اهتدى الى الأرثوذكسية في سن الرشد ورسم كاهناً باسم الاب كاليستوس، وهو استاذ في جامعة أوكسفورد. اما القسم الثاني من كتابه فقد صدر أيضاً بالعربية تحت عنوان: «الكنيسة الأرثوذكسية: ايمان وعقيدة»، في سلسلة «تعرَّف الى كنيستك» في منشورات النور.

الفهرست

مقدمة ١١

الفصل الأول : البدايات ٢١

الفصل الثاني : بيزنطية : كنيسة المجامع السبعة ٢٧

نشوء كنيسة امبراطورية ٢٧

المجامع الستة الأولى (٣٢٥ - ٦٨١) ٣٠

الأيقونات المقدسة ٤٣

القديسون ٥٠

الرهبان ٥٢

الأباطرة ٥٦

الفصل الثالث : الانشقاق الكبير ٦١

التباعد بين الشرق والغرب المسيحيين ٦١

التباعد السياسي ٦٢

التباعد الثقافي ٦٤

التباعد الديني ٦٥

قضية البابوية ٧٠

قضية انبثاق الروح القدس ٧١

من التباعد الى الإنشقاق ٧٤

النزاع بين فوتيوس والبابا نيقولاوس ٧٤

قضية الذبتيخا ٨٠
محاولات للتقارب؟ ٨١
الحروب الصليبية ٨٣
العوامل اللاهوتية للانشقاق ٨٦
مجمع ليون (١٢٧٤) ٨٨
قضية الهادئين ٨٨
مجمع فلورنسة ٩٨

الفصل الرابع : تنصير السلافيين ١٠١
كيرلّس وميتوديوس ١٠١
معمودية روسيا ١٠٧
فترة كييف (٩٨٨ - ١٢٣٧) ١٠٧
الكنيسة الروسية في ظل المغول (١٢٣٧ - ١٤٤٨) .. ١١٢

الفصل الخامس : الكنيسة في ظل الاسلام ١١٩
امبراطورية ضمن الامبراطورية ١١٩
الاصلاح والاصلاح المضاد ١٢٦
الفصل السادس : موسكو وبطرسبورج ١٣٧
موسكو، رومية الثالثة ١٣٧
انشقاق المؤمنين القدامى ١٤٦
الفترة المجمعية ١٥٤
الفصل السابع : القرن العشرون : اليونان والعرب ١٦٩
بطريركية القسطنطينة ١٧٠
معهد خالكي ١٧١
جبل آثوس ١٧١

كنيسة فنلندا ١٧٥
بطريركية الاسكندرية ١٧٥
بطريركية انطاكية ١٧٦
بطريركية اورشليم ١٧٧
كنيسة اليونان ١٧٨
كنيسة قبرص ١٨٤
دير سينا ١٨٤

الفصل الثامن : القرن العشرون :

الارثوذكسية والالحاد الثوري ١٨٥
الهجمة على السماء ١٨٥
العلاقات الرسمية بين الكنيسة والدولة في روسيا ١٩١
وضع الكنيسة الراهن في روسيا ٢٠٦
الكنيسة في البلدان الشيوعية الأخرى ٢١٢
كنيسة صربيا ٢١٣
الكنيسة البلغارية ٢١٤
كنيسة رومانيا ٢١٤
كنيسة جيورجيا ٢١٦
كنيسة ألبانيا ٢١٧
كنيسة بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ٢١٧
المنضمّون ٢١٧

الفصل التاسع : القرن العشرون : الشتات والتبشير ٢٢١
الادارات الكنسية في الشتات ٢٢١
الأرثوذكسية في اوروبا الغربية ٢٢٧
الأرثوذكسية في اميركا الشمالية ٢٣١

مسؤوليات الشتات ٢٣٥
الأرثوذكسية «الغربية» ٢٣٧
التعاون بين الكنائس الأرثوذكسية ٢٣٨
التبشير ٢٣٩
الصين ٢٤٠
اليابان ٢٤١
كوريا ٢٤٢
اوغندا وكينيا ٢٤٣
الأرثوذكسية في عالم اليوم ٢٤٤

مقدمة

« كمجهولين ونحن معروفون »

(٢ كورنثوس ٦ : ٩)

السنة ١٨٤٦ كتب اللاهوتي الروسي الكسي خومياكوف لأحد أصدقائه الانكليز يقول : « جميع البروتستانت خاضعون للبابا من حيث لا يدرون . . . ولو لجأنا للغة الجبر المختصرة لقلنا ان الغرب لا يعرف سوى المعلوم (أ) ، وسواء كان هذا المعلوم مسبوقاً بعلامة زائد (+) كما عند الكاثوليك ، أو بعلامة ناقص (-) كما عند البروتستانت ، فان (أ) تبقى هي هي . واليوم يُعتبر أي اعتناق للأرثوذكسية فعل جحود تجاه الماضي وعلمه ومعتقداته وحياته . ويكون اعتناق هذا المذهب كالارتماء في عالم جديد ومجهول » . [١]

وحين يتحدث خومياكوف عن المعلوم (أ) ، فانه يفكر بما كان لجميع المسيحيين الغربيين ، انجيليين وانجليكان أو كاثوليك من نواحي مشتركة في الماضي . فجميعهم (وان كانوا لا يرغبون دائما في الاقرار بذلك) قد تأثروا تأثّراً عميقاً بنفس الأحداث : تمركز البابوية ، والفلسفة الكلامية (السكولاستيكية) للقرون الوسطى ، وعصر النهضة ، والاصلاح ، والاصلاح المضاد . أما ماضي أعضاء

١ ـ بيركيبك ، روسيا والكنيسة الانكليزية ، ص ٦٧

الكنيسة الارثوذكسية ، يونانيين كانوا أم روساً أم آخرين فمختلف جدا . فهم لم يعرفوا القرون الوسطى (بالمعنى الغربي للتسمية) ، ولم يتعرضوا لحركة اصلاح أو إصلاح مضاد ، ولم يتأثروا إلا بصورة غير مباشرة بالانتفاضات الدينية والثقافية التي أحدثت التحوّل في أوروبا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . والمسيحيون الغربيون ، كاثوليك كانوا أم إنجيليين ، يبدأون على العموم بطرح الأسئلة نفسها ويأتي الاختلاف مع الأجوبة . أما بالنسبة للأرثوذكسيين ، فليست الأجوبة وحدها التي تختلف ، بل ان الأسئلة نفسها ليست هي التي يطرحها الغرب .

للارثوذكسية منظور آخر للتاريخ . وللتأكد من ذلك ، فلننظر مثلا إلى الموقف الارثوذكسي من الخلافات الدينية في الغرب . فمن وجهة النظر الغربية ، يُعتبر الكاثوليكي والانجيلي على طرفي نقيض ، أمّا من وجهة النظر الارثوذكسية فهما أشبه بوجهين لقطعة نقود واحدة . ويطلق خومياكوف على البابا إسم « البروتستانتي الأول » و « أبو العقلانية الالمانية » ، ولعلّه اعتبر « العالِم المسيحي » [1] (Christian Scientist) على انه كاثوليكي خارج بعض الشيء عن المألوف [2] . سأله انكليكاني كاثوليكي النزعة (High Church Anglican) وكان يقوم بزيارة لأوكسفورد السنة ١٨٤٧ : « كيف لنا أن نحدّ من الآثار الخبيثة للبروتستانية في كنيستنا ؟ » . فأجابه : « عليكم أن تخضّوا كاثوليكيتكم الرومانية » . ذاك ان هذا اللاهوتي الروسي يعتبر ان كلا التسميتين تتوافقان معا ، وكلتاهما تقولان بالفرضيات نفسها ، لأن المذاهب البروتستانتية انبثقت بالأساس من التراث الروماني .

---

(١) وهو مذهب إنجيلي شائع خاصة في الولايات المتحدة (الناشر) .

(٢) قارن مع ب . هاموند ، مياه مرمره ، ص ١٠ .

وخومياكوف محقّ في حديثه عن الأرثوذكسية على أنها « عالم جديد ومجهول » ، لأن الارثوذكسية ليست بالضبط نوعاً من الكاثوليكية بدون البابا ، بل إنها مختلفة كل الاختلاف عن أي مذهب ديني في الغرب . على ان أولئك الذين يرغبون في الدخول قُدُماً في هذا « العالم المجهول » سيجدون فيه أشياء كثيرة هي ،وان اختلفت،مألوفة لديهم بشكل ملفت للنظر . « ولكن هذا ما آمنت به دائماً » ، ذلك كان رد فعل الكثيرين ممّن اكتشفوا الكنيسة الأرثوذكسية وتعاليمها . ورد الفعل هذا على شيء من الصحة ، لأنه على الرغم من مرور تسعماية سنة وأكثر من التباعد بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني ، فلهما نفس الجذور في القرون المسيحية الأولى . فأثناسيوس وباسيليوس ، مع أنهما عاشا في الشرق هما ينتميان أيضاً إلى الغرب. والارثوذكسيون الذين يقيمون في فرنسا وإنكلترا وإرلندا بوسعهم ان يعتبروا القديسين الوطنيين في هذه البلدان ، أمثال البان وباتريك وكاثبيرت وبيد وجنفياف باريس واغسطينوس كانتربري ، ليس كأجانب ، بل كأعضاء في كنيستهم . لقد مرّ على أوروبا حين من الوقت كانت فيه كلها جزءاً من الارثوذكسية ، تماما كما هي في أيامنا بلاد اليونان وروسيا المسيحية .

العام ١٨٤٦ ، حين كتب خومياكوف لأصدقائه الانكليز ، كانت الاتصالات الشخصية المتبادلة قليلة جدا . وتغيرت الأمور بعد ذلك. فقد قضت تسهيلات السفر على الحواجز التي أوجدها بُعد المسافات . حتى انه لم يعد السفر ضروريا للتعرف على الكنيسة الارثوذكسية بأمّ العين . فهناك الكثيرون من اليونان الذين لأسباب اقتصادية أو نتيجة إختيار شخصي ، أو السلافيين الذين تحت ضغط الأحداث والاضطهاد ،هاجروا إلى الغرب ناقلين إليه معهم كنيستهم، فأسسوا في كل أوروبا الغربية وأميركا رعايا ومعاهد لاهوتية وأديرة . من ناحية أخرى، نرى في الحقبة الحاضرة، ان الهاجس المسكوني من

أجل تحقيق اتحاد فعلي للمسيحيين، قد أثار اهتماماً جديداً بالكنيسة الارثوذكسية. ثم ان المجموعات اليونانية والروسية في الشتات (diaspora) قد انتشرت في العالم في نفس الوقت الذي أصبح فيه المسيحيون الغربيون واعين لأهمية الارثوذكسية، راغبين في تعميق معرفتهم بها وذلك توقا للوحدة. وكانت مساهمة الكنيسة الارثوذكسية الفعالة في الاجتماعات المسكونية مفاجأة لهم وهداية. وكونهم ينتمون إلى تقليد مختلف عن التقليد الغربي، جاء الارثوذكسيون برؤ ى جديدة، واقترحوا من أجل الصعوبات القديمة حلولا كان الغرب قد نسيها.

والغرب لم يفتقر أبدا إلى شخصيات ترى أن حدود المسيحية لا تنتهي عند كانتربري أو جنيف أو روما. لكن إذا كانت هذه الأصوات في الماضي أشبه بصيحات في الصحراء، فان الأمور قد تغيرت الآن. إن ذيول الانشقاق الذي استمر أكثر من تسعة قرون لا يمكن أن تمحى بسرعة، ولكن يمكننا أن نشهد بداية تفهم متبادل.

ماذا نعني « بالكنيسة الأرثوذكسية »؟. إن الانقسامات التي أدت لتجزئة العالم المسيحي كما هو الآن وقعت على ثلاث مراحل، يفصل واحدتها عن الأخرى خمسماية سنة تقريباً. أول خطوة في طريق الانشقاق تمت في القرنين الخامس والسادس، حين انفصلت بعض الكنائس الشرقية عن الجسم العام، لتنشىء من جهة الكنيسة النسطورية في بلاد فارس، ومن جهة أخرى الكنائس المسماة بغير الخلقيدونية وهي الكنيسة الأرمنية والكنيسة السريانية (وتدعى أيضا كنيسة اليعاقبة) في سوريا والهند ، والكنيسة القبطية في مصر والحبشة . وكانت نتيجة هذا الانشقاق الأول اقتصار الأرثوذكسية في الشرق بصورة خاصة على العالم الناطق آنذاك باليونانية .

جاء بعدئذ الانشقاق الثاني ، المحدد اصطلاحا في السنة

١٠٥٤ ، ليقسم الجسم المسيحي إلى وحدتين : الكنيسة الكاثوليكية (الرومانية) تحت سلطة بابا رومية في الغرب ، والكنيسة الارثوذكسية ضمن الامبراطورية البيزنطية في الشرق. أما الانشقاق الثالث الذي وقع بين رومية والاصلاحيين البروتستانت في القرن السادس عشر فلا يدخل مباشرة في نطاق الموضوع الذي نبحث .

ومن المهم أن نلاحظ كم تنطبق الانقسامات الثقافية على الانقسامات الدينية . فالمسيحية ، الجامعة في رسالتها ، عبّرت عن نفسها عملياً في ثلاث ثقافات : السامية واليونانية واللاتينية . الانشقاق الأول فصل الساميين السوريين المسيحيين ومعهم مدرسة زاهرة من اللاهوتيين والكتّاب عن باقي الجسم المسيحي ، بينما أحدث الثاني فجوة بين التقليد اليوناني والتقليد اللاتيني . وبالتالي فالتأثير الثقافي الرئيس في الارثوذكسية كان يونانياً ، ولكن لا يجوز للمرء ان يعتبر ، من جراء ذلك ، أن الكنيسة الارثوذكسية كنيسة يونانية بحتة لأن للآباء السوريين واللاتين مكانهم أيضاً في كامل التقليد الارثوذكسي .

وفي حين وُضع لانتشار الكنيسة الارثوذكسية حدود في الشرق ثم في الغرب كانت تمتد باتجاه الشمال. ففي السنة ٨٦٣ صعد القديسان كيرلس وميتوديوس، رسولا السلافيين، شمالا ليقوما بعمل تبشيري خارج حدود الامبراطورية البيزنطية . وأدت جهودهما في النهاية إلى تنصير بلغاريا وبلاد الصرب وروسيا . وفي الوقت الذي بدأت السلطة البيزنطية بالتأرجح ، أخذت هذه الكنائس الجديدة تزداد أهمية ، وهكذا عند سقوط القسطنطينية على يد الأتراك السنة ١٤٥٣ ، كانت إمارة موسكو على أهبة الاستعداد لتأخذ مكان بيزنطية . وانقلب هذا الوضع جزئياً خلال السنوات الأخيرة . فعلى الرغم من ان القسطنطينية ظلت، في أيدي الأتراك ، شعاعاً باهتا لماضٍ مجيد ، فان

الكنيسة في اليونان تحررت من جديد ، بينما الكنيسة الروسية وسائر كنائس الشعوب السلافية أصبحت بدورها في ظل حكومات غير مسيحية .

تلك أهم الاحداث التي حددت انتشار الكنيسة الارثوذكسية . جغرافياً تغطي هذه الكنيسة ، فضلا عن روسيا ، جزءاً كبيرا من أوروبا الشرقية وشواطىء المتوسط الشرقية . وهي مكوّنة حاليا من الكنائس المستقلة (Autocéphale) التالية : [1]

١ ـ البطريركيات القديمة الأربع :

القسطنطينية	٣٠٠٠٠٠٠
الاسكندرية	٢٥٠ ٠٠٠
انطاكية	٧٠٠ ٠٠٠
اورشليم	١٠٠ ٠٠٠

وبالرغم من ضآلة رقعتها فان هذه الكنائس الأربع تحتل بفضل ماضيها التاريخي ، مكانة خاصة في الكنيسة الأرثوذكسية وتتمتع بأوّلية الاحترام[2] . ويحمل كل من رؤساء هذه الكنائس لقب بطريرك . [3]

---

(١) إن الأرقام المثبتة أمام إسم كل كنيسة هي تقريبية وكجميع الاحصاءات الكنسية يجب أخذ هذه المعطيات ببعض التحفظ واعتبارها مخصّصة فقط للمقارنة الاجمالية . فبالنسبة للعديد من الكنائس الأرثوذكسية ، وخاصة الواقعة منها في البلدان الشيوعية ، ليس بالامكان الحصول على احصاءات ولا يسعنا إلا اعتماد الافتراضات .

(٢) أما شعب هذه البطريركات فهو عربي ويوناني ، إضافة إلى بعض الافريقيين التابعين لبطريركية الاسكندرية (الناشر) .

(٣) بطريرك الاسكندرية يدعى « بابا وبطريركا » .

٢ ـ إحدى عشرة كنيسة مستقلة :

روسيا	١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ (قبل ١٩١٧) ولعله اليوم بين ٢٥ و ٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠
رومانيا	١٤ ٠٠٠ ٠٠٠
كنيسة الصرب في يوغوسلافيا	٨ ٠٠٠ ٠٠٠
اليونان	٨ ٠٠٠ ٠٠٠
بلغاريا	٦ ٠٠٠ ٠٠٠
جيورجيا في الاتحاد السوفياتي	١ ٢٥٠ ٠٠٠ (قبل ١٩١٧)
قبرص	٤٠٠ ٠٠٠
بولـونيا	٣٥٠ ٠٠٠
البانيا	٢١٠ ٠٠٠ (في السنة ١٩٤٤)
تشيكوسلوفاكيا	١٠٠ ٠٠٠
سيناء	أقل من ١٠٠

هـذه البلـدان ، في ما عدا تشيكوسلوفـاكيا وبولـونيا والبـانيا ، تقطنها شعوب مسيحية أكثريتها الغالبة أرثوذكسية . أما كنائس اليونان وقبرص وسيناء فشعبها يوناني ، وكنائس روسيا وبلاد الصرب وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا فشعبها سلافي . ويحمل رؤساء كنائس روسيا ورومانيا وبلاد الصرب وبلغاريا لقب بطاركة . ويدعى رئيس كنيسة جيورجيا الكاثوليكوس البطـريرك كما يدعـى رئيس كل من الكنائس الأخرى رئيس الأساقفة أو متروبوليت .

٣ ـ يجـب أن نذكر أيضـا بعض الكنـائس المستقلة ذاتيا

(Autonome) أي التي تحكم نفسها بنفسها من عدة نواح ولم تحصل بعد على استقلالها التام :

فنلندا	٦٦ ٠٠٠
اليابان	٣٥٠٠٠
الصين	من ١٠ إلى ٢٠ ٠٠٠

٤ ـ وهنالك أيضاً ابرشيات في أوروبا الغربية وأميركا الشمالية وأميركا اللاتينية وكذلك في أوستراليا ، تابعة لهذه الكنيسة أو تلك من الكنائس المستقلة . وفي بعض المناطق تتمتع هذه المجموعات بشيء من الاستقلال الذاتي ، بصورة خاصة في أميركا حيث أُعلن عن تأسيس الكنيسة الأرثوذكسية المستقلة في أميركا (حوالي مليون مؤمن) .ولكن لم تعترف بهذه الكنيسة الجديدة معظم الكنائس الأرثوذكسية .

والكنيسة الأرثوذكسية هي إذاً عائلة من الكنائس التي تحكم نفسها . وتستمد وحدتها ليس من منظمة مركزية وليس من سلطة حبر له على المجموع صلاحية مطلقة ، بل من صلة مزدوجة من الوحدة في العقيدة والمشاركة في الأسرار . وكل كنيسة مع كونها مستقلة ، متفقة كل الاتفاق مع سائر الكنائس الأخرى حول كافة مسائل العقيدة وتوجد فيما بينها مشاركة تامة في الأسرار . وليس في الكنيسة الأرثوذكسية مركز مساوٍ لمركز البابا في الكنيسة الكاثوليكية . ويُعرف بطريرك القسطنطينية بالبطريرك المسكوني وهو يحتل مرتبة شرف بين الكنائس الأرثوذكسية ، بدون أن يمنحه ذلك حق التدخل في شؤونها الداخلية .

هذا النظام من اللامركزية في الكنائس المحلية المستقلة يتمتع بقدر فائق من المرونة والتكيّف مع الظروف ؛فقد تُنشأ كنائس محلية وتُلغى ثم تُعاد من جديد إلى الوجود دون أن يؤثر ذلك على حياة الكنيسة ككل .

وكثير من هذه الكنائس المحلية هي كنائس قومية ، ولطالما كانت الكنيسة والدولة في البلدان الأرثوذكسية وثيقتي الارتباط . ولكن في حين ان للدولة معظم الأحيان كنيستها المستقلة ، فان الادارات الكنسية لا تتوافق حُكماً مع الحدود السياسية . فجيورجيا مثلا ، على الرغم من وجودها من ضمن دول الاتحاد السوفياتي ، ليست جزءاً من الكنيسة الروسية ، بينما أراضي البطريركيات الأربع القديمة موزّعة في عدة بلدان . فالكنيسة الأرثوذكسية إذاً اتحاد بين كنائس محلية دون أن تكون قومية بالضرورة إذ أنها لا تنطلق من المبدأ السياسي لكنيسة الدولة .

وثمة بين جميع هذه الكنائس اختلاف كبير في الحجم ، بدءاً بالكنيسة الروسية وانتهاء بسيناء . كما ان أعمار هذه الكنائس تختلف ، فبعضها يرجع إلى عهد الرسل بينما يرجع بعضها الآخر إلى أقل من جيل . والكنيسة التشيكوسلوفاكية على سبيل المثال لم تصبح مستقلة إلا في العام ١٩٥١ .

تلك إذاً هي الكنائس التي تكوّن العائلة الأرثوذكسية في الوقت الحاضر. وقد تطلق عليها اسماء مختلفة فهي أحياناً تدعى بالكنيسة اليونانية أو اليونانية الروسية، ولكن هذه التسمية ليست صحيحة لأن ملايين عدة من الأرثوذكسيين ليسوا يونانيين ولا روسا. وفي معظم الاحيان يطلق الأرثوذكسيون على كنيستهم اسم «الكنيسة الأرثوذكسية الكاثوليكية الشرقية»، أو «الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة» أو «الكنيسة الأرثوذكسية الكاثوليكية في الشرق»... الخ... على انه من الضروري ألا تؤدي هذه التسميات إلى سوء الفهم. ففي حين تعتبر الأرثوذكسية نفسها الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) الحقيقية،فانها ليست جزء من الكنيسة الكاثوليكية «الرومانية»، وعلى الرغم من أنها تُسمى

«شرقية»، فهي لا تقتصر على العالم الشرقي. وتُدعى أيضاً «الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة». ولعله من الأيسر والأقل التباسا أن يطلق عليها اسم أكثر إيجازاً ألا وهو «الكنيسة الأرثوذكسية».

تزعم الأرثوذكسية انها تمثل الكنيسة المسيحية الجامعة . إن الضعف البشري ومجرى التاريخ قد قصرا الكنيسة الأرثوذكسية على بعض الحدود الجغرافية ، ولكن يعتبر الأرثوذكسيون أن كنيستهم هي رغم ذلك أكثر من مجموعة كنائس محلية. فكلمة أرثوذكسية تعني « العقيدة الحقة » و « العبادة الحقة »، لذلك ، فانهم يؤمنون بأن كنيستهم مُوْدَعة الايمان الحق وهي التي تمجد الله كما يجب ، ويعتبرونها « كنيسة المسيح على الأرض ».

إن غرض هذا الكتاب في جانب منه تبيان كيفية التعبير عن هذا الزعم الأساسي للأرثوذكسيين وشرح موقفهم تجاه المسيحيين الذين لا ينتمون لكنيستهم [1].

(١) الكتاب الاصلي صدر بقسمين: القسم الأول يتكلم عن تاريخ الكنيسة الارثوذكسية وهو مضمون الكتاب الحالي. امّا القسم الثاني الذي يدرس ايمان الكنيسة وعقيدتها، فقد صدر عن منشورات النور تحت اسم الكنيسة الارثوذكسية: ايمان وعقائد (الناشر)

الفصل الأول

البدايات

بدأت المسيحية أقلية صغيرة عاشت وسط محيط معادٍ. وها هي الآن تعود إلى ذلك الوضع بالذات .والكنيسة المسيحية في فتراتها الأولى كانت متميزة من الدولة ومنفصلة عنها على نحو واضح. وهو وضع نعود إليه اليوم حيث نشهد في بلد تلو الآخر نهاية التحالف بين الكنيسة والدولة. كانت المسيحية في فترة نشوئها «ديانة محرّمة»، ديانة ممنوعة ومضطَّهَدة من قبل الدولة. وها هو الاضطهاد يعود حالياً إلى سابق عهده ولعله من المحتمل أن يكون قد مات من المسيحيين دفاعاً عن ايمانهم في الثلاثين سنة بين ١٩١٨ و١٩٤٨ أكثر مما مات منهم في السنوات الثلاثماية الأولى التي تلت صلب المسيح.

وأبناء الكنيسة الأرثوذكسية واعون بنوع خاص لهذه الحال وغالبيتهم يعيشون في البلدان الشيوعية في ظل حكومات تقف ضد المسيحية ويعتبرون أن ما جرى في المرحلة الأولى للمسيحية ، تلك التي تمتد من يوم العنصرة إلى يوم تنصير قسطنطين ، له أهمية خاصة بالنسبة للأرثوذكسية المعاصرة .

« وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين . وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم . وامتلأ الجميع من الروح القدس » (أعمال ٢ : ٢ ـ ٤) . بدأ تاريخ الكنيسة المسيحية بحلول الروح القدس على الرسل الذين كانوا مجتمعين في أورشليم يوم العنصرة. وفي

اليوم نفسه ، نتيجة لوعظ بطرس الرسول ، قبل ثلاثة آلاف من الرجال والنساء المعمودية ، وهكذا نشأت أول جماعة مسيحية في أورشليم .

وسرعان ما تشتت أعضاء كنيسة أورشليم نتيجة أعمال الاضطهاد التي وقعت بعد رجم القديس استفانوس. وكان المسيح قد قال «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم » (متى ٢٨ : ١٩) ، وعملا بأقواله كانوا يبشرون في أي مكان يقصدون إليه . فتوجهوا أولا إلى اليهود وما لبثوا أن تطلعوا أيضا نحو الوثنيين . من هذه الرحلات الرسولية قسم يرويه القديس لوقا في سفر أعمال الرسل ، أما القسم الآخر فينقله الينا تقليد الكنيسة . وقد تكون بعض القصص التي وصلت إلينا عن الرسل غير صحيحة كل الصحة ، لكن ذلك لا يحول دون التأكيد بأن العديد من الجماعات المسيحية قد أقيم خلال وقت قصير جدا في جميع مراكز الامبراطورية الرومانية وحتى في ما وراء حدودها.

فالامبراطورية التي كان يقصدها هؤلاء المبشرون المسيحيون الأوائل كانت ، لا سيما في الشرق ، امبراطورية من المدن الكبرى ، الأمر الذي حدّد الهيكل الاداري للكنيسة القديمة . وما برح ان أُنْشِئت في كل مدينة نواة كنيسة يديرها أسقف ، يعاونه كهنة وشماسة . وكان الريف المجاور تابعاً لكنيسة المدينة . نمط التنظيم الرعائي هذا المكوَّن من الأساقفة والكهنة والشماسة تبلور تماماً نحو نهاية القرن الأول . وقد مرّ ذكره في الرسائل القصيرة السبع التي كتبها القديس اغناطيوس أسقف انطاكية حوالي السنة ١٠٧ . وفي الوقت الذي كان يقصد فيه إلى رومية للاستشهاد شدّد القديس اغناطيوس بنوع خاص على أمرين ، دور الأسقف والافخارستيا (سر الشكر) . وكان يرى ان الكنيسة تسلسلية (هيررخية) وذات طابع أسراري . وكتب يقول :

« في كل كنيسة يترأس الأسقف في مكان الله » . . . « فلا يفعلنّ أحد شيئا يتعلق بالكنيسة دون موافقة الأسقف . . . حيث يكون الأسقف فليكن هناك الشعب ، كما انه حيث يكون يسوع المسيح فهنالك الكنيسة الجامعة» . كذلك قال: ان مهمة الأسقف الأساسية والمميزة إقامة سر الشكر الذي هو «دواء الحياة الأبدية» [1] .

ويسود الاتجاه اليوم إلى اعتبار الكنيسة منظمة عالمية تشكل كل جماعة محلية فيها جزءاً من كل، ولكن ليست هذه وجهة نظر القديس اغناطيوس الانطاكي . فالجماعة المحلية هي الكنيسة في نظره . كان يعتبر الكنيسة بأنها «كمجتمع افخارستي»، تحقق طبيعتها الحقيقية فقط عند إقامة العشاء السري، حين تتقبل جسد الرب ودمه في سر الشكر . لكن الافخارستيا حدث لا يكون إلا محليا في كل جماعة مسيحية مجتمعة حول أسقفها . فكلما يقام سر الشكر يكون المسيح كله حاضرا وليس فقط جزء منه . فلذلك كل جماعة محلية تقيم الافخارستيا في القداس الالهي هي بحد ذاتها الكنيسة بكليتها .

ولتعاليم القديس اغناطيوس [1] مكانة هامة في التقليد الأرثوذكسي الذي يعتبر الكنيسة بمثابة مجتمع افخارستي يأتي تنظيمه الخارجي ، على كونه ضروريا ، في المقام الثاني بعد حياته الداخلية في الأسرار . وكذلك لا تزال الكنائس المحلية تُعْتَبر كعامل بالغ الأهمية في تكوين هيكلية الكنيسة . حين يقف الأسقف في وسط الكنيسة بين المؤمنين في بداية القداس الالهي فهو يشير بوضوح تام إلى ما عناه اغناطيوس الانطاكي عندما قال بأن الأسقف مركز لوحدة الجماعة المحلية .

(١) الرسالة إلى أهل أزمير ٨ : ١و٢ والرسالة إلى أهل أفسس ٢٠ : ٢ والرسالة إلى أهل مغنيزيا ٦ : ١ .

للاطلاع على رسائل اغناطيوس الانطاكي راجع كتاب « الآباء الرسوليون » ، ترجمة المثلث الرحمات البطريرك الياس الرابع ، الصادر عن منشورات النور (الناشر) .

ولكن ، إضافة إلى وحدة الجماعة المحلية ، لا بد من التكلم أيضا عن وحدة الكنيسة الجامعة . وقد شدد الأسقف والشهيد القديس كبريانوس القرطاجي (المتوفي العام ٢٥٨) على هذه الناحية من وحدة الكنيسة . فالأسقفية بالنسبة للقديس كبريانوس يتقاسمها جميع الأساقفة ، ولكن ليس على نحو يملك فيه كل واحد قسما منها فقط بل هي كلّها له . وقد كتب يقول : « الأسقفية هي كل ، يتحمله كل أسقف بكليته . وكذلك الكنيسة كل ، على الرغم من انها تمتد بعيدا عبر العديد من الكنائس التي تزداد عددا بمقدار ما تصبح أكثر خصوبة »[1] هناك الكثير من الكنائس ولكن لا يوجد مع ذلك إلا كنيسة واحدة . وهناك الكثير من الأساقفة ومع ذلك لا توجد إلا رئاسة واحدة .

كثيرون هم الذين على غرار كبريانوس واغناطيوس ماتوا شهداء خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الكنيسة . وعلى الرغم من ان صنوف الاضطهاد لم تتخذ سوى طابع محلي موقت وذلك بين فترات طويلة سادها التسامح من قبل السلطات الرومانية ، فان التهديد بالاضطهاد كان دائما كامناً تحت الرماد وكان المسيحيون يدركون ان ذاك التهديد قد يصبح من جديد حقيقة واقعة في أية لحظة . لذلك احتلت الشهادة مكاناً أساسياً في روحانية المسيحيين الأوائل الذين لمسوا كنيستهم وكأنها مبنية على أسس الشهادة بالدم ، ليس دم المسيح فقط ، بل كذلك دم هؤلاء « المسحاء الآخرين » الذين هم الشهداء . وبمرور الزمن ، بعد ان « استقرت » الكنيسة ولم تعد تتعرض للاضطهاد ، استمرت فيها روح الشهادة ، لكنها اتخذت أشكالا أخرى . فالحياة الرهبانية ،مثلا ،اعتُبرت من قبل الآباء معادلة للشهادة . ومع ان فرص الشهادة بـ « الدم » قد تضاءلت في فترات متفاوتة من تاريخ

(١)« في وحدة الكنيسة » : ٥ .

الأرثوذكسية ، بيد أنها لم تنعدم . وها هم المسيحيون الأرثوذكسيون يُدعون مجدداً وفي أيامنا هذه لتأدية شهادة الدم .

وبما ان جميع الأساقفة يشاركون، كما قال كبريانوس، في الرئاسة الواحدة ، فكان من الطبيعي ان يلتئموا في مجامع يتبادلون فيها الرأي حول قضاياهم المشتركة . لقد أولت الأرثوذكسية دائماً أهمية كبرى للمجامع في حياة الكنيسة ، إذ تؤمن بأن المجمع هو الاداة الرئيسية التي شاء بها الله أن يهُدي شعبه . ولهذا نظرت الأرثوذكسية دائماً إلى الكنيسة الجامعة أنها مجمعية بصورة جوهرية . (كلمة سوبورني Soborny في الروسية هي نعت دلالة مزدوجة تعني جامعة ومجمعية بينما كلمة سوبور Sobor تعني الكنيسة والمجمع) . وليس في الكنيسة نزعة دكتاتورية أو فردية لكن فيها التجانس والاجماع . كل واحد يبقى حراً دون أن يصبح منعزلا ، حيث تربطه بالآخرين حياة المحبة والايمان والمشاركة في الأسرار . ويعطي المجمع لروح التجانس والاجماع الحر فرصة لكي يتجسدا في الواقع . ففي المجمع الذي يستحق هذه التسمية ، ما من أحد يفرض إرادته الشخصية على الآخرين بل يسعى كل واحد أن يستشير الآخرين ، وبهذه الطريقة يصل الجميع بملء حريتهم « للفكر الواحد » . فالمجمع هو تجسيد حياتي لطبيعة الكنيسة الجوهرية .

ورد وصف أول مجمع في تاريخ الكنيسة في أعمال الرسل ، الاصحاح الخامس عشر . التأم المجمع في أورشليم وحضره الرسل ليقرروا إلى أي حد على المهتدين من الأمم ان يتبنوا شريعة موسى . وتكلم الرسل إثر اتفاقهم بلهجة تبدو شديدة الادعاء لو استُعملت في ظرف آخر : « لأنه قد رأى الروح القدس ونحن . . . » (أعمال ١٥ : ٢٨) . بعد ذلك تحدثت مجامع أخرى على نفس المستوى من الثقة . إن فردا منعزلا لا يتجرأ على القول : « لأنه قد رأى الروح القدس وانا . . . » ، ولكن عندما يجتمع أعضاء الكنيسة في مجمع ،

يصبحون قادرين على التمتع بسلطة يدركون أن لا أحد منهم يقتنيها بمفرده .

ومجمع أورشليم هذا ، الذي حضره قادة كل الكنيسة ، كان اجتماعا إستثنائيا لم يُعرف له نظير حتى السنة ٣٢٥ ، تاريخ انعقاد مجمع نيقية . قبل ذلك في عصر كبريانوس ، درجت العادة على عقد المجامع المحلية التي كان يحضرها جميع الأساقفة العاملين في مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية الرومانية . وكانت هذه المجامع المحلية تُعقد على العموم في عاصمة المقاطعة برئاسة أسقفها الذي كان يحمل لقب متروبوليت . واتسع مدى المجامع في القرن الثالث بحيث باتت تضم أساقفة مقاطعات عديدة . وحيث ان هذه المجامع كانت تُعقد على العموم في المدن الكبرى مثل الاسكندرية أو انطاكية فان أساقفة بعض هذه المدن الكبرى أصبحوا أكثر أهمية من أساقفة عواصم المقاطعات . ولكن لم يُصرْ في ذلك الحين إلى تحديد دقيق لنظام هذه الكراسي الكبرى . كذلك وعلى الرغم من انتشار عقد المجامع المحلية بصورة متواصلة ، فانها لم تبلغ كامل انطلاقها في القرن الثالث ، إذ باستثناء المجمع الرسولي، لم ينعقد أي مجمع عام شاملاً أساقفة العالم المسيحي بأسره حتى يَدّعي النطق باسم الكنيسة جمعاء .

وفي السنة ٣١٢ جرى حدث غيّر وضع الكنيسة بصورة مفاجئة ، اذ يُرْوَى أن الامبراطور قسطنطين قد أبصر حين كان يعبر فرنسا بجيشه صليباً وضاءً منعكساً أمام صفحة الشمس دُوّنت عليه عبارة : « بهذه الاشارة ستنتصر » . على أثر هذه الرؤيا ، اعتنق قسطنطين الدين المسيحي ، وبدأت مذاك سلسلة من الأحداث التي وضعت حداً للفترة الكبرى الأولى من تاريخ الكنيسة ومهّدت لنشوء الامبراطورية المسيحية البيزنطية .

الفصل الثاني

بيزنطية : كنيسة المجامع السبعة

« كلهم يعترفون بأن هنالك سبعة مجامع مسكونية مقدسة ، وبأنها أعمدة ايمان كلمة الله السبعة ، وعليها شيّد بيته المقدس ، الكنيسة الجامعة المسكونية » .

يوحنا الثاني ، متروبوليت روسيا (١٠٨٠ ـ ١٠٨٩) .

نشوء كنيسة امبراطورية

يقف قسطنطين عند مفترق تاريخ الكنيسة . فعهد الشهداء والاضطهاد انتهى باعتناقه المسيحية وأصبحت كنيسة الدياميس كنيسة الامبراطورية . وكان اعلان براءة ميلانو السنة ٣١٣ أول نتيجة مهمة « لرؤيا » قسطنطين . فقد أعلن فيها بالاشتراك مع الامبراطور ليسينيوس السماح رسمياً بالديانة المسيحية . وعلى الرغم من ان قسطنطين لم يعط في البداية سوى ترخيص لها ، فانه ما لبث ان أعرب عن نيته بمنح الديانة المسيحية امتيازاً على جميع الأديان الأخرى المسموح بها في ظل الامبراطورية الرومانية . وبعد مرور أقلّ من خمسين سنة على وفاة قسطنطين ، أكمل ثيودوسيوس ما كان بدأه سلفه . ففي عهده لم تتمتّع المسيحية بالامتياز فقط ، بل أصبحت الديانة الوحيدة المعترف بها رسمياً . وهكذا أصبحت الكنيسة مؤسسة مقبولة من الدولة . وبعد أن كانت السلطات الرومانية تقول للمسيحيين : « ليس لكم الحق

بالوجود » ، جاء دور الوثنية في مجال الاضطهاد .

وكان أيضاً لرؤيا الصليب في حياة قسطنطين نتيجتان على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لنمو المسيحية . أولا ، قرر السنة ٣٢٤ نقل عاصمة الامبراطورية الرومانية من إيطاليا إلى ضفاف البوسفور . وفي موقع مدينة يونانية قديمة هي بيزنطية شيّد العاصمة الجديدة وأطلق عليها اسمه : « القسطنطينية » . وكانت المبررات التي أتى بها اقتصادية وسياسية من ناحية ودينية من ناحية اخرى. ذاك ان رومية القديمة كانت مدموغة تماماً بالطابع الوثني بحيث انها لا تصلح ان تكون مركزا للامبراطورية المسيحية التي يصبو إليها. أما في «رومية الجديدة» فكان يريد أن تأخذ الأمور منحى مختلفاً. فبعد الاحتفال بتدشين المدينة السنة الـ ٣٣٠، منعت فيها منعاً باتاً ممارسة أي طقس وثني. وكان لعاصمة قسطنطين الجديدة هذه أثر حاسم على التاريخ الأرثوذكسي.

من ناحية أخرى ، دعا قسطنطين المجمع العام أو المجمع المسكوني الأول للكنيسة المسيحية إلى الانعقاد في نيقية السنة ٣٢٥ . فاذا كان للامبراطورية الرومانية أن تصبح مسيحية ، كان من الضروري في نظر قسطنطين أن تقوم على الايمان الواحد القويم، وبالتالي كانت مهمة مجمع نيقية تحديد مضمون هذا الايمان . وأتت المراسم الخارجية التي رافقت انعقاد المجمع أبلغ رمز للعلاقات الجديدة التي نشأت بين الكنيسة والدولة . رئس المجمع الامبراطور نفسه « كرسول سماوي من عند الله » ، كما روى أفسابيوس أسقف القيصرية، وأحد أعضاء المجمع. وعند ارفضاض المجمع أقيمت مأدبة عشاء ضمت الأساقفة والامبراطور . وكتب أفسابيوس (وكان ميّالا للتأثر بهذا النوع من الأمور) يقول : « . . . إن ظروف المأدبة كانت رائعة تفوق كل وصف . كتائب الحرس وفرق أخرى وقفت عند أبواب

القصر ، السيوف كلها مستلّة ، وفي وسط السيوف رجال الله يتقدمون بلا وجل إلى قلب الصرح الامبراطوري . بعضهم دعي إلى مائدة الامبراطور ، بينما استلقى الآخرون على أسرّة وضعت لهم على الجانبين ؛ حتى ليخيَّل للرائي انه أمام مملكة المسيح ، وأمام حلم وليس أمام حقيقة »[1] . كم كانت الأمور قد تغيرت منذ بدأ نيرون يضيء حدائقه بأجساد المسيحيين التي حولّت إلى مشاعل. ومجمع نيقية هو أول المجامع العامة السبعة. ولهذه المجامع ، إلى جانب مدينة القسطنطينية ، مكان رئيسي في تاريخ الأرثوذكسية .

بلغت الكنيسة إذاً سن الرشد مع هذه الأحداث الثلاثة : براءة ميلانو وتأسيس القسطنطينية ، ومجمع نيقية .

(١) كتاب « حياة قسطنطين » الجزء ٣ ، ١٠ و ١٥ .

المجامع الستة الأولى [1] (٣٢٥ - ٦٨١)

خيّمت المجامع العامة الستة كلياً على حياة الكنيسة في القسم الأول من الفترة البيزنطية. وكانت المهمة المزدوجة لهذه المجامع تتأرجح بين ضبط التنظيم الخارجي للكنيسة، وتثبيت وضع الكراسي الخمسة الكبرى أو البطريركيات وبصورة خاصة تحديد تعاليم الكنيسة نهائياً بالنسبة للعقيدتين الأساسيتين في الايمان المسيحي: الثالوث والتجسد. جميع المسيحيين يعرفون أن هاتين العقيدتين تتصلان بسر الله الذي يتجاوز المفهوم والتعبير البشريين. كذلك فان الأساقفة المجتمعين في إطار المجامع حين حددوا العقيدة، لم يدر بخلدهم أبداً انهم فسّروا السر، بل قصدوا فقط منع بعض الطرق الخاطئة من الاقتراب اليه، سواء على صعيد الفكر أو اللغة. ولكي يحولوا دون الضياع في الخطأ والهرطقة، اكتفوا باحاطة السر بسياج محافَظَةً عليه. وهذا كل ما فعلوا.

وقد تبدو لنا أحياناً تلك المناقشات التي جرت خلال انعقاد المجامع تجريدية بعيدة عن الواقع ، لكنها تبحث عن هدف واقعي جدا ألا وهو خلاص الانسان . فالانسان ، كما يعلّمنا العهد الجديد ، ابتعد عن الله من طريق الخطيئة ، وليس بمقدوره بفضل جهوده وحدها أن

(١) راجع « تاريخ كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى » للدكتور أسد رستم ، في ثلاثة أجزاء ، منشورات النور ، وكتاب « مجموعة الشرع الكنسي » ، جمع وترجمة وتنسيق الأرشمندريت حنانيا الياس كساب ، منشورات النور (الناشر) .

يهدم جدار الانفصال الذي شيدته هذه الخطيئة . فأخذ الله إذاً المبادرة وتأنس وصُلب وقام من بين الأموات مخلّصاً البشرية من عبودية الخطيئة والموت . هذا هو محور الايمان المسيحي . وكان هم المجامع المحافظة على رسالة الفداء هذه . الهرطقات كانت خطيرة تجب إدانتها لأنها تشوّه تعاليم العهد الجديد ، حيث تُعيد بناء الحاجز بين الانسان والله ، وبهذا تجعل مستحيلا على الانسان ان يصل إلى الخلاص الكامل .

عبّر القديس بولس عن رسالة الفداء هذه بمفهوم المشاركة . قاسمنا المسيح فقرنا حتى يصبح بامكاننا أن نتقاسم واياه غنى ألوهته : « فانكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح . إنه من أجلكم افتقر وهو غني لكي تستغنوا أنتم بفقره » (٢ كورنثوس ٨ : ٩) . وعلى صورة مختلفة قليلا نجد الفكرة عينها في إنجيل يوحنا حيث يقول يسوع إنه أعطى تلاميذه أن يشتركوا في المجد الالهي وطلب إلى الله ان يتوصلوا إلى الاتحاد التام به : « وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد . أنا فيهم وانت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد » (يوحنا ١٧ : ٢٢ ـ ٢٣) . وقد أخذ الآباء هذه النصوص ونصوصا أخرى مشابهة بمعناها الحرفي ، وتجاسروا على الكلام عن « تأليه » الانسان (باليونانية THEOSIS) . كانوا يقولون : إذا دُعي الانسان للمشاركة في مجد الله واذا انبغى له أن يكون « مكملاً إلى واحد » مع الله ، فهذا يعني في الواقع ، ان الانسان « سيتأله » وانه مدعّو ليصبح بالنعمة كما هو الله في الطبيعة . وعلى هذا النحو تمكّن القديس أثناسيوس من اختصار هدف التجسد قائلا : « صار الله إنسانا لكي يصير الانسان إلها »[1] .

ولكن لكي يمكن للانسان ان يصير إلها ، ينبغي للمسيح المخلص

---

(١) « في التجسد » ، ٥٤ .

أن يكون في آن إنساناً حقيقياً وإلها حقيقياً. ما من أحد غير الله يستطيع ان يخلّص الانسان، واذا كان على المسيح إذاً أن يخلّصنا، فمن الواجب أن يكون الله . ولكن ، لا يسعنا أيضاً أن نشارك بما فعله من أجلنا إلا إذا كان إنسانا مثلنا بكل معنى الكلمة . والمسيح المتجسد هو الجسر الممتد بين الله والبشر . « من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الانسان . . » (يوحنا ١ : ٥١) . هذا ما وعد به السيد ، ولكن هذه السلم ليست مخصصة للملائكة فقط بل أيضاً للجنس البشري .

المسيح إله تام وانسان تام . لقد سعت كل الهرطقات ، الواحدة تلو الأخرى، أن تقوّض أهمية هذا التأكيد الحيوي. فاعتبر البعض أن المسيح أقلّ من الله (الآريوسية)، والبعض الآخر اعتبر ان ناسوته منفصل عن لاهوته بحيث يتحوّل إلى شخصين بدل الشخص الواحد (النسطورية)، ولم يصوّره آخرون كانسان تام (ذوو الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة) كل واحد من المجامع دافع عن صحة التأكيد الأساسي في وجه هذه المعتقدات.

فالمجمعان الأولان اللذان عُقدا في القرن الرابع شددا على ألوهة المسيح الكاملة وعبّرا عن عقيدة الثالوث . والمجامع الأربعة التالية في القرن الخامس والسادس والسابع ، اهتمت بتحديد ناسوت المسيح ، وتفسير الاتحاد في أقنوم واحد للطبيعة البشرية والطبيعة الالهية . ويبدو للوهلة الأولى أن المجمع السابع الذي انعقد للدفاع عن الأيقونات المقدسة يحتلّ مكاناً على حدة ، لكنه على غرار المجامع الستة الأولى ، كان بالنهاية مهتماً بالتجسد وخلاص الانسان .

والانجاز الأساسي لمجمع نيقية السنة الـ ٣٢٥ كان إدانة بدعة آريوس . وكان يرى كاهن الاسكندرية آريوس أن الابن هو دون

الآب . وهو حينما وضع فاصلا بين الله والخلق ، اعتبر الابن من ضمن المخلوقات . كان موافقاً على ان الابن خليقة عليا، ولكنه مع ذلك خليقة فقط . كان هدفه بدون شك أن يحافظ على تسامي الله ، لكن تعاليمه جعلت من المستحيل تأليهَ الانسان ، حيث جعل المسيح دون الله . وأجابه المجمع معتبراً أن المسيح ، لأنه إله حقيقي ، فهو يمكّننا من الاتحاد بالله لأن ما من أحد سوى الله نفسه يستطيع ان يفتح للانسان طريق الاتحاد . فالمسيح « مساوٍ للآب في الجوهر » (homoousios) ، وليس نصف إله أو خليقةً عليا ، بل هو إله بالمعنى ذاته الذي به الآب هو إله ، أي « إله حق من إله حق » ، كما أعلن المجمع في دستور الايمان الذي وضعه ، وهو « مولود غير مخلوق ، مساوٍ للآب في الجوهر » . [1]

وقد عني مجمع نيقية أيضاً بالتنظيم الاداري للكنيسة . فثبّت رفعة مكانِ كراسٍ ثلاثة كبرى هي رومية والاسكندرية وانطاكية (القانون رقم ٦) . وكذلك قرر ان يحتل كرسي أورشليم ، مع بقائه خاضعاً لمتروبوليت القيصرية ، مرتبة الشرف الرابعة (القانون رقم ٧) . وطبعاً لم يأتِ المجمع على ذكر القسطنطينية ، لأن هذه المدينة لم تُدشّن رسميا كعاصمة جديدة إلا خمس سنوات بعد انعقاد المجمع ، ولذلك ظلت آنذاك تابعة لمتروبوليت هرقلية .

استؤنف العمل المباشر في مجمع نيقية مع عقد المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية السنة ٣٨١ . حرص هذا المجمع على تطوير دستور الايمان ، مركّزا على التعليم المتعلق بالروح القدس ،مؤكّدا أنه

---

(١) أما بشأن هذا الموضوع وكل المواضيع العقائدية الأخرى الذي سوف يؤتى على ذكرها فيما بعد ، يمكنك ، لمزيد من التفاصيل ، الرجوع إلى كتاب « مدخل إلى العقيدة المسيحية ، لكوستي بندلي ومجموعة من الكتّاب الأرثوذكسيين ، الصادر عن منشورات النور ، في طبعته الثالثة (الناشر) .

هو الله كما الآب والابن ، وانه « منبثق من الآب » ، و « هو مع الآب والابن مسجود له وممجد » . وعدّل المجمع كذلك الترتيبات التي أقرت في القانون السادس لمجمع نيقية ، بحيث لم يعد بالامكان تجاهل وضع القسطنطينية كعاصمة للامبراطورية ، فحصلت على مرتبة الشرف الثانية بعد رومية وحلّت قبل الاسكندرية . « يتمتع أسقف القسطنطينية بامتياز الشرف مباشرة بعد أسقف رومية ، وذلك لأن القسطنطينية هي رومية الجديدة » (القانون رقم ٣) .

وأتت تحديدات المجامع العقائدية مرتكزة على عمل لاهوتيين أعطوا للعبارات المستعملة دقة ووضوحاً في المعنى . فلقد توصّل القديس أثناسيوس الاسكندري إلى إعطاء المعنى الكامل للعبارة الرئيسية التي وردت في الدستور النيقاوي وهي (homoousios) أي « المساوي في الجوهر » . وقد تمم عمله هذا ثلاثة من الآباء الكبادوكيين وهم القديس غريغوريوس النازينزي المعروف في الكنيسة الأرثوذكسية باسم غريغوريوس اللاهوتي (نحو ٣٢٩ - ٣٩٠) ، وباسيليوس الكبير (نحو ٣٣٠ - ٣٧٩) وشقيقه الأصغر غريغوريوس النيصصي (المتوفي السنة ٣٩٤) . وفي حين شدّد أثناسيوس على أن وحدانية الله - الآب والابن واحد في الجوهر (Ousia) - ،شدّد الكبادوكيون على كون الله ثالوثاً وان الآب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم (hypostaseis) . وبمحافظتهم على التوازن بين الثالوث ووحدة الله أعطوا عقيدة الثالوث مدلولها الكامل : « ثلاثة أقانيم في جوهر واحد » . والكنيسة لم تعطِ حتى ذلك الحين ، كما انها لم تعطِ بعده ، أربعة لاهوتيين من هذه المرتبة في جيل واحد .

بعد العام ٣٨١، ضعف نفوذ الآريوسية بسرعة باستثناء بعض البقع من أوروبا الغربية حيث ظلت موجودة فيها. وثمة وجهة جدلية لانجاز المجمع تجلّت في القانون الثالث الذي أقلق رومية والاسكندرية

على حد سواء. بدأت «رومية القديمة» تتساءل عن الحد الذي ستقف عنده متطلبات «رومية الجديدة»، أفلا تريد أن تحتل مكانها؟ وآثرت رومية تجاهل هذا القانون المهين. ولم يعترف البابا رسميا بحق القسطنطينية بتولي المركز الثاني قبل مجمع لاتران (السنة ١٢١٥)، وكانت القسطنطينية وقتئذ في يد الصليبيين وكذلك تحت سلطة بطريرك لاتيني. لكن هذا القرار كان أيضاً بمثابة تحدّ للاسكندرية التي ظلت تحتل المكان الأول في الشرق حتى ذلك الحين. وشهدت السنوات السبعون التالية نزاعا حادا بين القسطنطينية والاسكندرية، وذلك مع انتصار هذه الأخيرة بصورة مؤقتة.

عرفت الاسكندرية أول نجاح كبير لها في مجمع « السنديانة » حين استطاع ثيوفيلوس بطريرك الاسكندرية خلع أسقف القسطنطينية القديس يوحنا الذهبي الفم (نحو ٣٤٤ - ٤٠٧) ونفيه . كان يوحنا واعظاً فصيح اللسان، تستغرق خطبه معظم الأحيان أكثر من ساعتين ، وقد عبّر بصيغ مفهومة للجميع عن الحقائق اللاهوتية التي بشّر بها اثناسيوس والكبادوكيون. وكان رجلا متقشفاً ، مفعماً بالشفقة على الفقراء ، تشدّه إلى العدالة الاجتماعية رغبة ملحّة . ولعله أول الآباء مرتبة في قلب الشعب الأرثوذكسي ، وكتاباته معروفة أكثر من غيرها على العموم . [1]

والنجاح الثاني للاسكندرية حققه قريب ثيوفيلوس وخليفته ، القديس كيرلس أسقف الاسكندرية (المتوفي السنة ٤٤٤) ، الذي استطاع ، في المجمع المسكوني الثالث في أفسس (٤٣١) ، أن يُسقط أسقفاً آخر للقسطنطينية هو نسطوريوس .

(١) راجع رسائله إلى أولمبيا وأحاديثه عن الزواج وحواره عن الكهنوت ، في منشورات النور (الناشر) .

ولكن حصل في أفسس أكثر من التنافس بين الكرسيين الأسقفيين الكبيرين . فقد ظهرت من جديد مسائل عقائدية كانت كامنة منذ السنة الـ ٣٨١ ، أما نقطة ارتكازها فليست الثالوث هذه المرة ، وانما شخص المسيح . كان كيرلس ونسطوريوس يتفقان على ألوهة المسيح الكاملة ، لكنهما يتعارضان في تفسيراتهما لناسوته وفي طرق وصفهما الاتحاد بين الله والانسان في شخص المسيح الواحد. كانا يمثلان تقاليد لاهوتية أو مدارس لاهوتية مختلفة . نشأ نسطوريوس في مدرسة إنطاكية ، وأيّد كمال ناسوت المسيح ، لكنه شدّد كثيرا على التمييز بين ناسوته ولاهوته، فبدا وكأنه بلغ نقطة خطرة يكاد معها يرى شخصين يتعايشان في جسد واحد ولا يرى شخصاً واحداً . أما كيرلس ، رائد تقليد الاسكندرية ، فكان ينطلق من وحدة شخص المسيح أكثر مما ينطلق من التمايز بين ناسوته ولاهوته . لكنه حين يتحدث عن ناسوت المسيح لم يكن يمثل شغف الانطاكيين حول هذه النقطة . كل من هاتين المقاربتين ، لو ذهبت بعيدا ، كان بامكانها الوصول إلى الهرطقة ولكن الكنيسة كانت بحاجة لكل منهما لتثبت صورة المسيح في تكاملها . وفي حين انه كان بوسع كل من المدرستين ان تكمل الأخرى فقد دخلتا في نزاع حوّل الأمر إلى مأساة بالنسبة للمسيحية .

فتح نسطوريوس باب الجدال على مصراعيه حين أبى على العذراء مريم لقب « والدة الاله » (Theotokos) . وكان اللقب قد دخل في العبادة الشعبية إلا ان نسطوريوس رأى انه يتسبب في خلق الالتباس بين ناسوت المسيح ولاهوته . يقول ، وفي قوله هنا تبدو « انفصالية » إنطاكية واضحة ، إن مريم والدة ناسوت المسيح وليس لاهوته ، ولا يمكن أن تدعى غير « والدة الانسان » أو « والدة المسيح » على الأكثر . أما كيرلس ، مؤيّدا من المجمع ، فكان جوابه من النص الانجيلي القائل « والكلمة صار جسدا » (يوحنا ١ : ١٤) . فمريم أم الله لأنها

« حملت كلمة الله الذي صار جسدا » ، [1] . فالـذي حملـت به مريم ليس إنساناً اتحد بالله على نحو غامض ، بل شخص واحد وكامل هو إنسان وإله معـاً . وكلمـة « والـدة الالـه » تحافـظ على وحـدة شخص المسيح ، وانكار اللقب على مريم يجزىء المسيح المتجسد إلى شخصين متمايزين ، ويهدم الجسر القائم بين الله والانسان ويُدخل التجزئـة إلى شخص المسيح نفسه . فلم تكن المسألة في مجمع أفسس إذاً مجرّد نقاش حول تسميات تَقَوِيّة بل حول جوهر رسالة الخلاص. ولكلمة «والدة الاله » (Theotokos) في عقيدة التجسد نفس الدرجة من الأهمية التي لكلمة « المساوي في الجوهر » (homoousios) في عقيدة الثالوث .

وعرفت الاسكندرية أيضا إنتصاراً آخر في مجمع ثان انعقـد في أفسس السنة الـ ٤٤٩ . لكن هذا المجمع ، بخلاف مجمع ٤٣١ ، لم تقبله كل الكنيسة، لأنه ساد الشعور بأن حزب الاسكندرية قد ذهب بعيدا جدا هذه المرة . ديوسكوروس واوتيخوس ذهبا بتعاليم كيرلس إلى درجات قصوى قائلين: المسيح شخص واحد وفيه طبيعة واحدة فقط. وبدا لخصومهم، على الرغم من إنكار ذوي الطبيعة الواحـدة للتفسـير الذي أعطي لوجهات نظرهم، أن تعبير « الطبيعة الواحدة » يشوّه كمال ناسوت المسيح ، ذلك الناسوت الذي في نظر ذوي الطبيعـة الواحـدة يلتصق بلاهوته إلى حد يمتصّه هذا اللاهوت كما يمتص المحيط نقطة الماء .

بعدها بسنتين ، أي السنة الـ ٤٥١ ، دعا الامبراطور لعقد مجمع جديد للأساقفة في خلقيدونية ، اعتبرته كنيسة بيزنطية والغرب المجمع المسكوني الرابع . هذه المرة مال « الميزان » نحو إنطـاكية من جديد .

---

١ - في إبسالات كيرلس الأثنا عشر، كتاب مجموعة الشرع الكنسي، منشـورات النـور، ١٩٧٥، ص ٩١٥ (الناشر).

ووقف المجمع بقوة في وجه التسمية التي أخذ بها ذوو الطبيعة الواحدة . وأكد على ان المسيح رغم انه شخص واحد ، فان له طبيعتين لا واحدة . وقابل الأساقفة بحرارة رسالة القديس ليون الكبير بابا رومية (المتوفي السنة الـ ٤٦١) وفيه يفرق بوضوح بين الطبيعتين . وأعربوا عن إيمانهم بالابن الواحد، « الكامل من حيث ألوهيته والكامل من حيث إنسانيته ، الاله الحق والانسان الحق » . وكذلك نادوا « باتحاد الطبيعيتن اتحادا جوهريا بلا انقسام ولا انفصال ولا اختلاط . . . وبأنه اتحاد حقيقي في الجوهر والتركيب . . . » ، وقالوا: « في المسيح أقنوم واحد (hypostasis) مؤلف من طبيعتين متميزتين : اللاهوت والناسوت » [1] . يمكن الملاحظة ان التحديد العقائدي الصادر عن مجمع خلقيدونية لا يستهدف فقط ذوي الطبيعة الواحدة (طبيعتان متحدتان اتحاداً جوهرياً دون انقسام أو انفصال أو اختلاط) بل أيضاً أنصار نسطوريوس (ابن واحد . . . بلا انقسام ولا انفصال) .

لكن خلقيدونية كانت أكثر من هزيمة بالنسبة للاهوت الاسكندري ، حيث أشارت بنهاية ادعاء الاسكندرية في حق السيادة على المشرق . وقد ثبّت القانون ٢٨ الصادر في خلقيدونية القانون الصادر في القسطنطينية والذي خصّ رومية الجديدة بمرتبة الشرف الأولى بعد رومية القديمة . لقد رفض القديس ليون هذا القانون ولكن الشرق اعترف بصحته ولا يزال . كذلك حرّر المجمع نفسه أورشليم من سلطة القيصرية وأعطاها المرتبة الخامسة بين الكراسي الكبرى . هكذا أُنشىء النظام الذي عُرف في ما بعد باسم الرئاسة الخماسية (Pentarchie) . وقد أعطى أهمية خاصة لخمسة كراسٍ كبرى ،فكانت لرومية المكانة

١ ـ « طبيعتا المسيح الالهية والبشرية » ، مجموعة الشرع الكنسي ، منشورات النور ١٩٧٥ ، ص ٣٦٩ (الناشر) .

الأولى ، تليها القسطنطينية ، ثم الاسكندرية، فانطاكية، فالقدس. أما أسباب تقدم هذه الكنائس فتكمن في أن كل واحدة منها تدّعي ان تأسيسها يرجع إلى الرسل ، وان الأربعة الأولى موجودة في المدن الأربع الكبرى الأكثر أهمية في الامبراطورية الرومانية ، وان الخامسة هي في المكان الذي صُلب فيه المسيح وقام من بين الأموات . قد أعطي لأسقف كل من هذه المدن الخمس لقب بطريرك . وتقاسمت البطريركيات الخمس على أساس مناطق تابعة لسلطتها ، مجمل العالم المعروف ، باستثناء كنيسة قبرص التي كانت قد حصلت في مجمع أفسس على استقلال لا تزال تحافظ عليه حتى اليوم .

ثمة نوعان من سوء الفهم يقتضي تجنبهما حينما نتحدث عن المفهوم الأرثوذكسي للسلطة الخماسية. فنظام البطاركة والمتروبوليات يشكل جزءا لا يتجزأ من التنظيم الكنسي . هذا من جهة . لكننا إذا ما نظرنا إلى الكنيسة ، ليس من وجهة نظر التنظيم بل بالنسبة « لحق الله » فيها ، فمن البديهي أن يكون جميع الأساقفة متساوين في ما بينهم بصورة جوهرية ، مهما كانت أهمية المدينة التي يقيمون فيها . كل واحد من الأساقفة خليفة للرسل ، وكلهم يشرفون على الأسرار بالقَدْرِ نفسه ، وجميعهم مقامون من الله معلمين للايمان . ولو جرى النقاش حول عقيدة ما ، فلا يكفي أن يبدي البطاركة رأيهم ، إذ لكل مطران أبرشية حق حضور المجمع العام والتحدث فيه والادلاء بصوته . ونظام السلطة الخماسية لا يقلّل من شأن الميزة الأساسية للمساواة بين جميع الأساقفة ولا من شأن الأهمية التي أعطاها اغناطيوس الانطاكي لكل كنيسة محلية .

هناك من جهة أخرى سوء الفهم المتعلق بالمكانة الخاصة للبابوية . فالكنيسة الأرثوذكسية لا توافق على السلطة البابوية كما أقرت

بموجب مراسيم مجمع الفاتيكان الأول السنة الـ ١٨٧٠ . ولكنها في الوقت نفسه لا تنكر على الكرسي الروماني الرسولي المقدس، في حال عاد إلى الشركة، أولية الشرف مع الاعتراف بحقه ـ في بعض الظروف ـ في الاستجابة للنداءات التي يمكن أن تُرفع إليه من كل أنحاء العالم المسيحي. وهذا يعني رفعة المقام وليس التفوق. وكان الأرثوذكسيون ينظرون الى البابا ، كما حدّد ذلك القديس اغناطيوس الانطاكي، على انه الأسقف الذي «يرئس بالمحبة». وخطأ رومية بالنسبة إليهم أنها شاءت أن تحوّل رئاسة المحبة هذه الى تفوّق في السلطة والادارة.

ثمة ثلاثة أسباب تبرر أولية رومية. فهي:

أولاً ، هي المدينة التي استشهد فيها القديسان بطرس وبولس ، وبطرس كان أسقفا لها . والكنيسة الأرثوذكسية تقر لبطرس بالمكانة الأولى بين الرسل ولا تغفل النصوص الانجيلية المتعلقة به (متى ١٦ : ١٨ ـ ١٩، لو ٢٢ : ٣٢، يو ٢١ : ١٥ ـ ١٧)، على الرغم من ان اللاهوتيين الأرثوذكسيين لا يعطون هذه النصوص المعنى الذي يعطيها إياه المفسرون الكاثوليك. ففي حين يقول الكثيرون من اللاهوتيين الأرثوذكسيين بأن جميع الأساقفة هم خلفاء لبطرس وليس أسقف رومية وحده، فان معظمهم يوافق مع ذلك على أن أسقف رومية هو خليفة بطرس بمعنى خاص جداً.

ثانياً ، فان كرسي رومية مدين بأهميته لمدينة رومية نفسها ، فقد كانت عاصمة الامبراطورية، وظلت كذلك مرجعاً هاماً لكثير من الأمور الهامة حتى بعد نشوء القسطنطينية.

ثالثا ، مع ان بعض البابوات وقعوا في الهرطقة ، فان كرسي رومية قد تميز طيلة القرون الثمانية الأولى من تاريخ الكنيسة بنقاوة الايمان . لقد تزعزعت بطريركيات أخرى نتيجة الخلافات العقائدية الكبرى ، لكن رومية ، معظم الأحيان ، ظلت راسخة . وكان يشعر جميع الذين حشروا في حلبة الصراع ضد الهراطقة انه بامكانهم الرجوع بثقة إلى البابا . ومع ان كل أسقف أقيم من الله معلم للايمان وليس فقط أسقف رومية ، كان يلجأ هؤلاء إلى رومية بصورة خاصة لأن كرسي رومية كان في القرون الأولى من حياة الكنيسة قد حافظ بأمانة على الحقيقة في تعاليمه .

وكل ما يطبق على البطاركة ينطبق أيضاً على البابا إذ ليس لهذه الأولية التي منحت لرومية أن تقلل أبداً من شأن المساواة الأساسية بين جميع الأساقفة . والبابا هو أول أسقف في الكنيسة ولكنه « أول بين متساوين » .

مجمعا أفسس وخلقيدونية كانا حجري الزاوية في الأرثوذكسية ولكنهما في نفس الوقت شكلا حجر عثرة. فبينما اصطلح الآريوسيون مع الكنيسة تباعاً ولم يَدم انشقاقهم وقتاً طويلاً فاننا لا نزال نجد في أيامنا هذه مسيحيين نساطرة لا يسعهم أن يقبلوا بمقررات مجمع أفسس، كما نجد جماعات أخرى تقول بطبيعة المسيح الواحدة ولا تستطيع الموافقة على قرارات المجمع الخلقيدوني. إن معظم النساطرة كانوا يقيمون خارج حدود الامبراطورية ، ولم يكن لهم بالنتيجة شأن كبير في تاريخ بيزنطية . لكن قسماً كبيراً من « أصحاب الطبيعة الواحدة » ، خاصة في مصر وسوريا ، كانوا من رعايا الامبراطور، وقد بذلت جهود عديدة ولكن غير مثمرة لاعادتهم إلى الشركة مع الكنيسة البيزنطية . وكما في معظم الحالات، نرى الخلافات اللاهوتية تتفاقم بشكل مرير نتيجة

التوتر الناتج عن النزعات القومية واختلاف الثقافات. فشعب مصر وسوريا الذي لم يكن في غالبيته يونانياً لا من حيث اللغة ولا من حيث الثقافة، كان يغتاظ من السلطة اليونانية الآتية من القسطنطينية، سواء في الشؤون الدينية أو في الشؤون السياسية. فالانشقاق الكنسي كان إذاً مدعوماً بنزعة سياسية انفصالية. ولولا هذه العوامل غير اللاهوتية، لكان بالامكان على الأرجح، بعد المجمع الخلقيدوني، حمل الفريقين على العودة الى مفهوم لاهوتي واحد. إن الكثيرين من العلماء المعاصرين يميلون للاعتقاد بأن الفارق بين أصحاب الطبيعة الواحدة وبين الخلقيدونيين كان على مستوى اللغة والتعبير وليس على مستوى الفهم اللاهوتي. فكلا الطرفين عبّر بطريقة مختلفة ولكنه كان يسعى لاثبات الحقائق نفسها.

وعُقد في القسطنطينية مجمعان آخران أكدا مقررات المجمع الخلقيدوني. فراجع المجمع المسكوني الخامس (٥٥٣) كل المقررات ولكن من وجهة نظر اسكندرانية هذه المرة، محاولا بمزيد من الوضوح والايجابية تفسير كيفية اتحاد طبيعتي المسيح الاثنتين لتكوين شخص واحد. أما المجمع المسكوني السادس (٦٨٠ - ٦٨١) فرفض هرطقة القائلين بالمشيئة الواحدة التي كانت صيغة جديدة من صيغ القول بالطبيعة الواحدة. يزعم القائلون بالمشيئة الواحدة ان للمسيح طبيعتين، ولكن بما انه شخص واحد، فليس له إلا إرادة واحدة. وقد ردّ عليهم المجمع قائلا انه إذا كان للمسيح طبيعتان فلا بد ان يكون له بالتالي إرادتان، وان القائلين بالمشيئة الواحدة، على غرار القائلين بالطبيعة الواحدة، يتصدون بأقوالهم هذه لمبدأ كمال ناسوت المسيح، ذاك ان طبيعة إنسانية لا تتمتع بارادة إنسانية هي طبيعة ناقصة ومجرد نظرية غير واقعية. ولكون المسيح إنسانا حقاً وإلها حقاً فلا بد أن يملك إرادة إنسانية وإرادة إلهية.

وخلال السنوات الخمسين التي سبقت انعقاد المجمع المسكوني السادس ، رأت بيزنطية نفسها فجأة أمام انطلاقة الاسلام المقلقة . إن أكثر ما يثير الانتباه في انتشار الدعوة المحمدية إنما هو سرعتها . فعند وفاة محمد السنة الـ ٦٣٢ ، كانت سلطته لا تتجاوز الحجاز أو تكاد . لكن خلفاءه العرب فتحوا سوريا وفلسطين ومصر خلال خمس عشرة سنة بعد وفاته . وفي أقل من خمسين عاماً أصبحوا على أبواب القسطنطينية وكادوا أن يتغلبوا عليها . وفي غضون مئة عام عبروا الشمال الافريقي وتقدموا نحو إسبانيا وأرغموا أوروبا الغربية على الدفاع عن نفسها في معركة بواتييه . وقد لاقى العالم المسيحي كثيراً من الصعوبات في التصدي للفتح الاسلامي هذا . وفقد البيزنطيون ممتلكاتهم الشرقية وانتقلت بطريركيات الاسكندرية وانطاكية وأورشليم إلى أيدي غير المسيحيين . وأصبحت بطريركية القسطنطينية عند ذاك بلا منازع داخل الامبراطورية المسيحية الشرقية . ولم تعد بيزنطية ، بعد ذلك الوقت ، أبداً في مأمن من هجمات المسلمين . وعلى الرغم من أنها صمدت بثبات طيلة ثمانية قرون ، فما لبثت ان سقطت في النهاية .

الأيقونات المقدسة

لم تنته الخلافات حول شخص المسيح مع المجمع المسكوني السادس ، بل استمرت على شكل آخر طيلة القرنين الثامن والتاسع . وأصبح محور الخلاف موضوع الأيقونات المقدسة ، تلك الصور للمسيح ولوالدة الله والقديسين التي كانت تحفظ وتكرم في الكنائس وفي البيوت الخاصة . وطالب « محاربو الأيقونات » ، الذين كانوا يقفون موقف الحذر من كل فن ديني يصوّر الله أو الكائنات البشرية ، بتحطيم الأيقونات . أما « مكرّمو الأيقونات » ، فكانوا يدافعون بقوة عن مكانة هذه الأيقونات في حياة الكنيسة . لم تكن المسألة مجرد مفهومين مختلفين للفن المسيحي ، بل كان في الميدان أمور على كثير من الأهمية متعلقة

بخصائص طبيعة المسيح الانسانية والموقف المسيحي تجاه المادة والمعنى الحقيقي للفداء في المسيحية .

ولعلّ محاربي الأيقونات قد تأثروا بآراء يهودية أو إسلامية . ومن الأمور ذات الدلالة ، أنه قبل السنوات الثلاث التي سبقت الجولة الأولى لحرب الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية ، أمر الخليفة يزيد بن معاوية ، بخلع كل الأيقونات الموجودة في أراضي مملكته . ولكن فكرة محاربة الأيقونات لم تأتِ فقط من الخارج ، لأنه كان يوجد على الدوام في داخل المسيحية ، ولكن بصورة كامنة ، موقف « متزمت » يرفض الأيقونات لاقتناعه ان في الصور رواسب من عبادة الأصنام الوثنية . وحينما هاجم الاباطرة الايزوريون الأيقونات لاقوا دعماً لابأس به من داخل الكنيسة . والقديس ابيفانيوس، أسقف سلاميس (نحو ٣١٥ - ٤٠٣) مثال نموذجي لذاك الموقف المتزمت إذ يروى انه مزق بغضب في كنيسة إحدى القرى بفلسطين ستاراً نُسج عليه وجه المسيح . هذا الموقف كان شائعاً على العموم في آسيا الصغرى . وفي بعض من نواحيها كانت حركة تحطيم الأيقونات نوعا من الاحتجاج الآسيوي على التقليد اليوناني . فليس من الصدفة إذاً أن يكون اثنان من أهم الأباطرة الذين حاربوا الأيقونات ، هما ليون الثالث وليون الخامس ، من أصل آسيوي .

امتدت حرب الأيقونات سحابة مئة وعشرين عاماً ، وتقسم هذه الفترة إلى قسمين . بدأت الفترة الأولى السنة الـ ٧٢٦ مع أول هجوم لليون الثالث ضد الأيقونات وانتهت السنة الـ ٧٨٠ حين أوقفت الامبراطورة إيريني أعمال الاضطهاد. وقد أيّد المجمع المسكوني السابع[١] الذي انعقد السنة الـ ٧٨٧ ، وعلى غرار المجمع الأول ، في نيقية ،

(١) راجع كتاب « مجموعة الشرع الكنسي » ، منشورات النور ،ص ٧٦١ - ٨٣٧ (الناشر).

موقف المدافعين عن الأيقونات . وأعلن المجمع انه يجب البقاء على الأيقونات في الكنائس وانه من الواجب تكريمها بنفس آيات الاحترام التي تقابل بها سائر الرموز المادية مثل الصليب «الواهب الحياة» والأناجيل المقدسة .

وقام ليون الخامس الأرمني السنة الـ ٨١٥ بهجوم جديد على تكريم الأيقونات استمر حتى السنة الـ ٨٤٣ ، وهي السنة التي ردّت خلالها الامبراطورة ثيودورا الاعتبار نهائيا للأيقونات . ويُعرف الانتصار النهائي للأيقونات المقدسة السنة الـ ٨٤٣ باسم « انتصار الأرثوذكسية » ، ويجري التعييد له ، في خدمة خاصة يوم « أحد الأرثوذكسية » الذي هو أول آحاد الصوم الأربعيني المقدس . يُعلن، خلال هذه الخدمة ، الايمان الحقيقي ـ الأرثوذكسية ـ ويُغَبَّط المدافعون عنه وتتلى الابسالات ضد جميع الذين يهاجمون الأيقونات المقدسة أو المجامع السبعة : « هؤلاء الذين لا يعترفون بالمجامع الناطقة بكلام الآباء القديسين اللاهوتي الملهج به من الله معتقد الكنيسة الحسن العبادة ، فليكونوا ملعونين ، ملعونين ، ملعونين ».

ويُعتبر القديس يوحنا الدمشقي (نحو ٦٧٥ ـ ٧٤٩) أهم المدافعين عن الأيقونات في الفترة الأولى، والقديس ثيودوروس الستودي (٧٥٩ ـ ٨٢٦) أشهر هؤلاء في الفترة الثانية . ومما سهّل ليوحنا الدمشقي العمل بحرية في دفاعه عن الأيقونات كونه ظل مقيما داخل نطاق أراض خاضعة للحكم الاسلامي، في مأمن من أذية الحكومة البيزنطية . ولم تكن تلك المرة هي الأخيرة التي يقدم فيها الاسلام من حيث لا يدري على حماية الأرثوذكسية .

من بين خصائص الأرثوذكسية ، اعطاؤها مكانة خاصة للايقونات . فكل كنيسة تزخر بها، وهي تغطي الأيقونسطاس، الجدار

الفاصل بين المذبح وصحن الكنيسة . بعضها يوضع في مزارات خارج الكنائس ، كما انه يمكن تغطية جدران الكنائس بأيقونات من الفسيفساء أو الرسم الزيتي . والأرثوذكسي يسجد أمام الأيقونة ويقبِّلها ويضيء الشموع أمامها . كذلك يبخِّرها الكاهن ويحملها أثناء الزياحات الكنسية . فما معنى هذه الأعمال والطقوس ؟ ماذا تعني الأيقونات ولماذا اعتبرها يوحنا الدمشقي وكثيرون غيره على هذا القدر من الأهمية ؟

سننظر أولا في تهمة الوثنية التي أطلقها محاربو الأيقونات لمكرميها ، ثم في أهمية الأيقونات كوسيلة للتعليم ، وأخيراً في أهميتها العقائدية .

١ ـ **تهمة الوثنية** : لا يقع الأرثوذكسي في الوثنية حين يُقبِّل الأيقونة أو يسجد أمامها . فالأيقونة ليست صنماً ، بل رمز . وواجب التكريم الذي نبديه لهذه الصور المقدسة ليس موجهاً إلى المادة المكوَّنة من خشب وألوان أو حجر ، بل للشخص الذي تمثله . هذا ما أشار اليه بوضوح ليونتيوس أسقف نيابوليس ، (المتوفي حوالي السنة الـ ٦٥٠) أي قبل ابتداء حرب الأيقونات . قال :

« نحن لا ننحني للخشب كخشب ، لكننا نجّل ذاك الذي مات على الصليب وننحني أمامه . . . حينما تكون خشبتا الصليب مضمومتين فانني أسجد لشكلهما بسبب المسيح الذي عُلِّق على الصليب ، أما إذا تفككت الخشبتان فانني أرميهما واضرم النار فيهما » [١] .

وبما ان الأيقونات رموز فقط ، فان الأرثوذكسي لا يعبدها ، بل يحترمها أو يكرمها . وقد ميَّز يوحنا الدمشقي تمييزاً واضحاً بين الطريقة التي تُجَّل بها الأيقونات وتُحترم وبين العبادة الواجبة لله وحده .

---

(١) راجع :

Migne , Patrologia Graeca (P. G.), xciv, 1384D.

٢ ـ **الأيقونة كجزء من تعليم الكنيسة** : يقول ليونتيوس إن الأيقونات « كتب مفتوحة تذكّرنا بالله »[١] ، وهي إحدى الوسائل التي تستخدمها الكنيسة في نقل الايمان . فمن تعوزه الثقافة ، أو من ليس لديه الوقت الكافي لدراسة كتب لاهوتية ، ما عليه إلا ان يدخل الكنيسة ليرى أمامه جميع عقائد الدين المسيحي منشورة على الجدران . واذا طلب اليك وثني ان تشرح له إيمانك ، فأدخله إلى الكنيسة ، وضعه وجها لوجه امام الأيقونات[٢] .

٣ ـ **المعنى العقائدي للأيقونات** : ها نحن نصل الآن إلى قلب النزاع حول الأيقونات. وحيث أن الايقونات مفيدة في مجال التعليم ولا تؤدي إلى الوثنية فهل هي أكثر من مستحبة، بل هل هي ضرورية وهل اقتناء الأيقونات شيء جوهري ؟ يزعم مكرّمو الأيقونات انها هكذا لأنها تصون العقيدة الصحيحة والكاملة للتجسد . ويقولون إنهم متفقين مع محاربي الأيقونات على عدم إمكان تصوير الله بطبيعته الازلية إذ « الله لم يره أحد قط » (يو ١ : ١٨) ، ولكنهم يتابعون ان التجسد قد أفسح المجال أمام إمكانية وجود فن ديني تصويري بحيث انه أصبح من الممكن تصوير الله لأنه تأنس وأخذ جسداً . ويقول يوحنا الدمشقي انه بوسعنا رسم صورة مادية لذاك الذي لبس جسداً مادياً :

« لا يمكن رسم الله غير المدرك وغير المحدود . أما الآن وقد ظهر الله في الجسد وعاش بين البشر ، فأنا أرسم الله الذي تراه العين . أنا لا أعبد المادة بل خالق المادة الذي استحال مادة من أجلي ، ذاك الذي شاء أن يقيم في المادة وجعل خلاصي من طريق المادة . لن أنفك عن إجلال

---

(١) راجع : P. G. xciv, 1276A.

(٢) راجع : P. G. xcv, 325c.

والجدير بالملاحظة ان الأيقونات هي جزء من التقليد الشريف كما سنرى في القسم الثاني من الكتاب .

المادة التي جُعل خلاصي من خلالها »[1]

أما محاربو الأيقونات فلم يأخذوا بعين الاعتبار ، برفضهم كل تصوير لله ، كل معاني التجسد ، وبالتالي وقعوا ، على غرار العديد من المتزمتين ، بنوع من الثنوية . وبما أنهم اعتبروا المادة شيئا ملوّثاً، فقد كانوا يتطلعون إلى تحرير الدين من كل احتكاك مع العالم المادي لاعتقادهم بأن كل ما هو روحي متعارض مع ما هو مادي . لكن هذا الموقف يشكل تنكراً لمفهوم التجسد إذ لا يترك مكاناً لطبيعة المسيح البشرية ولجسده، ويتناسى أن جسد الانسان، كما روحه، مدعو للخلاص وللتجلي. ويتضح إذاً أن حرب الأيقونات متصلة اتصالاً وثيقاً بالخلافات السابقة حول شخص المسيح وانها لم تكن مجرد جدال حول الفن الديني بل تتعدى ذلك إلى مفهوم التجسد وخلاص الانسان.

فالله حين اتخذ له جسداً مادياً برهن ان الخلاص سيشمل المادة . يقول يوحنا الدمشقي : « إن الكلمة الصائر جسداً قد ألّه الجسد »[2] . الله « ألّه » المادة وجعلها « حاملة للروح » . واذ أصبح الجسد هيكلا للروح القدس فبوسع الخشب والألوان على طريقتها أن تكون كذلك أيضاً . إن العقيدة الأرثوذكسية المتعلقة بالأيقونات مربوطة ارتباطاً وثيقاً بالايمان بأن كل خليقة الله ، المادية والروحية ، ستذوق الخلاص وتتمجد . إن ما يقوله نقولا زرنوف صحيح ، ليس فقط بالنسبة للروس بل بالنسبة للأرثوذكسيين كافة :

« لم تكن (الأيقونات) في نظر الروس مجرد رسوم ، بل كانت تعبيرا حيوياً عن مقدرة الانسان الروحية في خلاص الخليقة من طريق الفن والجمال . إن خطوط (الأيقونات) وألوانها لا تبتغي تقليد

(١) « في الأيقونات » ، ١ ، ١٦ .
(٢) « في الأيقونات » ، ١ ، ٢١ .

الطبيعة ، بل قصد من خلالها الرسامون أن يبيّنوا انه يمكن خلاص الانسان والحيوان والنبات فضلا عن الكون بأسره من حالة الانحطاط التي هم يرزحون تحتها واعادتهم إلى « صورتهم» الأصلية . الأيقونة هي عربون نصر الخليقة المفتداة الآتي على الخليقة الساقطة . . . ولم يكن الكمال الفني للأيقونة مجرد انعكاس للمجد السماوي ، بل كان مثالا حسياً لمادة أعيدت إلى سابق تجانسها وجمالها ، وصارت حاملة للروح القدس . الأيقونات هي جزء من الكون المتجلي » [1] .

وكما قال يوحنا الدمشقي ، « فالأيقونة نشيد الظفر واعلان صريح ثابت يشير إلى غلبة القديسين وخزي الشياطين » [2] .

إن انتهاء حرب الأيقونات والتآم المجمع المسكوني السابع وانتصار الأرثوذكسية السنة الـ ٨٤٣ ، تشير جميعها الى نهاية الحقبة الثانية من تاريخ الأرثوذكسية ، حقبة المجامع المسكونية السبعة . ولهذه المجامع السبعة أهمية قصوى في الأرثوذكسية ، ليس على الصعيد التاريخي فحسب بل أيضاً لكونها ما تزال حاضرة في ضمير أعضاء الكنيسة الأرثوذكسية وتعني جميع شعب المؤمنين وليس فقط العلماء والاكليروس . ويلاحظ دين ستانلي بأنه « حتى الفلاحون الأميّون - الذين لم يسمع نظراؤهم من الطبقات ذاتها في إسبانيا وايطاليا على الأرجح باسماء كونستانس وترانت - حتى هؤلاء نراهم واعين كل الوعي أن كنيستهم ترتكز على أساس المجامع المسكونية السبعة ويعللون النفس بالعيش إلى وقت يشهدون فيه انعقاد مجمع مسكوني ثامن يصار فيه إلى تقويم كل أعوجاجات العصر » [1] . وكثيرا ما يطلق الأرثوذكسيون

---

(١) « الروس وكنيستهم»، ص ١٠٧ و ١٠٨ .

(٢) « في الأيقونات » ٢ ، ١١ .

(١) راجع : Dean Stanley: Lectures on the History of the Eastern Church, Everyman Edition, p. 99.

على كنيستهم إسم « كنيسة المجامع السبعة » ، وهم لا يعنون بذلك ان الكنيسة الأرثوذكسية انقطعت عن التفكير بشكل خلاّق منذ العام ٧٨٧ ، لكنهم يعتبرون فترة انعقاد المجامع السبعة العصر الذهبي للاهوت . وبعد الكتاب المقدس ، تُعتبر المجامع السبعة المرجع والمرشد في البحث عن الحلول الواجب إيجادها لجميع المشاكل التي تظهر في كل جيل .

القديسون

لم يُطلق على بيزنطية عبثاً لقب « أيقونة أورشليم العلوية » . فالواقع ان الدين كان يدخل في كل أشكال الحياة البيزنطية : العُطل الرسمية هي بمناسبة الأعياد الدينية . في ملاعب الفروسية تبدأ السباقات بالتراتيل . كذلك كان يستجير الانسان البيزنطي الثالوث القدوس في عقوده التجارية ويمهرها باشارة الصليب . . . ومن الصعب في أيامنا هذه ، حيث خفّ الاهتمام بالأمور اللاهوتية ، أن نتصوّر مدى الاهتمام الذي كانت تحفل به المسائل الدينية في ذلك الحين ، على جميع الفئات الاجتماعية ، سواء في أوساط العلمانيين أو الكهنة ، وسواء بين الفقراء والجهلة أو بين رجال البلاط والعلماء . يصف غريغوريوس النيصصي جو المناقشات اللاهوتية في فترة انعقاد المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية هكذا :

« المدينة ملأى بالمناقشات ، في الساحات العامة كما في الأسواق ، عند تقاطع الطرق والأزقة الفرعية ، بياعو « العتيق » والصيارفة والبقالون ، الكل يتناقشون بحماس . فلو طلبت من أحد ان يصرف لك مالاً ، تراه « يتفلسف » حول « المولود » و «غير المولود » .

ولو أردت أن تعرف سعر الرغيف ، سيقول لك إن الآب أعظم من الابن ... ولو سألت : « هل حمّامي جاهز ؟ » ، سيجيبك خادمك بأن الابن مخلوق من العدم » [1] .

هذه الشكايات الطريفة تدلل على الجو الذي كانت تُعقد فيه المجامع . وكانت المشاعر على درجة قصوى من العنف بحيث ان الجلسات افتقرت أحيانا للوقار وحفظ اللسان . وقد لاحظ غريغوريوس النازينزي بجفاف : « أحيّي من بعيد السينودسات والمجامع ، لأنني أعلم انها مقلقة ... لن أجلس أبداً بعد الآن في مثل هذه الاجتماعات المليئة بالرهاء والأوز »[2].ولطالما دافع الآباء عن قضيتهم بطرق واهية : فكيرلس الاسكندري مثلاً، استخدم الرشوة في البلاط كسباً لعطفه في نزاعه مع نسطوريوس، كما انه روّع مدينة أفسس بواسطة فرقة من الرهبان الموالين له. ولكن إذا كانت أساليب كيرلس تفتقر للاعتدال، فذلك عائد فقط لرغبته الملحة في أن ينتصر الحق. ولم تكن الشراسة التي كان يبديها أحياناً المسيحيون سوى تعبير عن تعلقهم بالايمان المسيحي. فلعّل الفوضى أفضل من الجمود وعدم الاهتمام. تقر الأرثوذكسية بأن المجامع انعقدت على أيدي أناس خاطئين ولكنها تؤمن بأنهم كانوا ملهَمين من الروح القدس.

لم يكن الأسقف البيزنطي شخصا متعال يكتفي بحضور المجامع ، بل كان في العديد من الحالات مثال الاب الحقيقي المنتبه لحاجات رعيته والصديق والمجير الذي يمكن الركون إليه بثقة في أوقات المحن. هاجس الفقراء والمظلومين الذي نجده عند القديس يوحنا الذهبي الفم نجده أيضاً عند العديد من الأساقفة . فالقديس يوحنا الرحوم

(١) « في ألوهة الابن » . (P. G. xlvi, 557 B)

(٢) الرسالة ١٢٤ ، قصائد عن نفسه ، ١٧ ، ٩١ .

بطريرك الاسكندرية (المتوفي السنة الـ ٦١٩) مثلا أنفق كل أموال كرسيه ليساعد أولئك الذين أسماهم « إخوتي الفقراء » ، ولما نفذت موارده أخذ يستعين بالآخرين . كان يقول حسب رواية أحد معاصريه : « إذا أخذ أحد بدون سوء نية من الغني حتى قميصه ليعطيه للفقراء ، فلا يكون أبداً قد قام بعمل سوء »[١] . وكان يقول أيضاً : « أولئك الذين تسمونهم فقراء ومتسولين ، أدعوهم معلميّ ومساعديّ ، لأنهم وحدهم يساعدوننا حقيقة ويجلبون لنا ملكوت السموات »[٢] . لم تغفل الكنيسة في الامبراطورية البيزنطية أبداً واجباتها الاجتماعية وكانت أعمال الاحسان من بين مهامها الرئيسية .

الرهبان

لعبت الرهبنة دوراً حاسماً في الحياة الدّينية لبيزنطية تماماً كما فعلت في البلدان الأرثوذكسية الأخرى . وكان على حق من قال « ان خير سبيل للولوج إلى الروحانية الأرثوذكسية هو الدخول اليها من طريق الرهبنة»[٣]. وقد قيل أيضاً انه « يوجد تنوع عظيم في الأشكال التي عرفتها الحياة الروحية في الأرثوذكسية ، ولكن الرهبنة تبقى أشدها كلاسيكية»[٤].

تنظمت الحياة الرهبانية أول ما تنظمت في مصر في أوائل القرن الرابع ، ومنها انتشرت بسرعة عبر العالم المسيحي كله . وليس

---

(١) ليونتيوس أسقف نيابوليس ، « ملحق لحياة يوحنا الرحوم » ، ٢١ .
(٢) المرجع نفسه ، ٢ .
(٣) بول افدوكيموف ، « الأرثوذكسية » ، ص ٢٠ ، باريس .
(٤) فلاديمير لوسكي ، « مدخل إلى اللاهوت الصوفي للكنيسة الشرقية » ، ص ١٧ ، أوبيه ، باريس .

بالمصادفة ان تكون الرهبنة قد ظهرت مباشرة بعد تنصير قسطنطين اي في الوقت الذي عرفت فيه أنواع الاضطهاد ضدها، وأصبحت المسيحية مقبولة. فالرهبان، بتقشفهم، كانوا بمثابة شهداء فى عصر لم يعد يعرف شهادة الدم، وبذلك ناقضوا السهولة التي ثبّتت معها المسيحية دعائمها في العالم. وكان الخطر المحدق آنذاك أن ينسى الناس في المجتمع البيزنطي ان بيزنطية هي فقط أيقونة ورمز لعالم الله وليست واقعه، وان يخلطوا بالتالي بين ملكوت الله والمملكة الأرضية. وهكذا بتركهم المدن وانسحابهم إلى الصحراء، أدّى الرهبان في حياة الكنيسة مهمة نبوية واخروية وذكّروا المسيحيين أن ملكوت الله ليس من هذا العالم.

اتخذت الرهبنة ثلاثة أشكال رئيسية ظهرت كلها في مصر حوالي العام الـ ٣٥٠، ولا تزال هذه الاشكال عينها سائدة في الكنيسة الأرثوذكسية حتى يومنا هذا. هناك أولا النساك الذين يعيشون حياة منعزلة في أكواخ أو مغاور وحتى في القبور، أو على أغصان الشجر أو رؤوس الأعمدة. وأروع مثال لهذا النوع من الحياة الرهبانية هو القديس أنطونيوس الكبير (٢٥١ ـ ٣٥٦) أبو الرهبنة.

وثمة نمط آخر من الرهبنة يرتكز على الحياة الجماعية حيث يعيش الرهبان سوية في ظل قانون مشترك وفي دير أُعدّ لهذه الغاية. والرائد الأول لهذا النوع من الحياة الرهبانية هو القديس باخوميوس المصري (٢٨٦ ـ ٣٤٦)، الذي وضع قانوناً لهذه الحياة نقله فيما بعد القديس بنديكتوس إلى الغرب. وكان باسيليوس الكبير، الذي أثّرت كثيراً كتاباته في الحياة النسكية في تطور الرهبنة الشرقية، محاميا جسوراً لحياة الرهبنة الجماعية. وقد أعطى القديس باسيليوس طابعاً اجتماعياً للرهبنة إذ حثّ الأديرة على العناية بالفقراء والمرضى، وعلى إقامة المستشفيات والمياتم. وركّز وبصورة عامة على العمل في خدمة هذا

العالم. ولكن الرهبنة الشرقية في مجملها كانت أقل اهتماما من الرهبنة الغربية بالنشاطات الاجتماعية، إذ ان الهاجس الاول للراهب الأرثوذكسي هو أن يعيش حياة الصلاة. وبها يخدم الآخرين، إذ ليس المهم ما يفعله الراهب بل من يسعى أن يكون. وهذه القاعدة تنطبق أيضاً على كل علماني أرثوذكسي.

وهناك أخيراً شكل ثالث من أشكال الحياة الرهبانية، يقع في منتصف الطريق بين الشكلين السابقين وهو ما يسمى بالحياة « الشبه النسكية ». وفيه يستعاض عن الجماعة الواحدة الشديدة التنظيم بكتلة من الجماعات الصغيرة تضم كل منها عدداً من الرهبان يتراوح بين الاثنين والستة يعيشون الحياة الرهبانية تحت إرشاد متقدم من الآباء الروحيين. أما مراكزها الكبرى في مصر فكانت في أديرة وادي النطرون وصحراء سكيتيا التي خرج منها العديد من كبار الرهبان مثال عمّون مؤسس دير النطرون ومكاريوس الكبير ومكاريوس الاسكندري وايفاغريوس البنطي وأرسانيوس الكبير.

جعلت هذه الأديرة الناس، في القرن الرابع، ينظرون إلى مصر على انها « أرض مقدسة » ثانية، وبات الحجاج القاصدون القدس يعتبرون حجهم غير مكتمل إن لم يشمل زيارة أديرة بلاد النيل. ولعبت أديرة فلسطين، في القرنين الخامس والسادس، الدور الطليعي في الحركة الرهبانية بقيادة القديس أفتيميوس الكبير (المتوفي العام الـ ٤٧٣) وتلميذه القديس سابا (المتوفي العام الـ ٥٣٢). هذا ويمكن للدير الذي أسسه القديس سابا في وادي الأردن وإليه انتمى يوحنا الدمشقي، ان يدّعي حقيقة استمراره بلا انقطاع وحتى يومنا هذا. وكذلك دير القديسة كاترينا في جبل سيناء. فهو تقريباً على نفس المستوى من القدم والاستمرارية، وقد أسسه الامبراطور يوستنيانوس (الذي حكم من

العام ٥٢٧ إلى العام ٥٦٥). وحين سقطت فلسطين وسيناء في أيدي العرب ، انتقلت الأولية في الحياة الرهبانية في الامبراطورية البيزنطية إلى دير ستوديوم الكبير في القسطنطينية والذي تأسس السنة الـ ٤٦٣ . وقد أصبح القديس ثيودوروس له رئيسا وفيه أعاد النظر بنظام الرهبنة .

ومنذ القرن العاشر احتل جبل آثوس المركز الأول في الرهبنة الأرثوذكسية . وآثوس عبارة عن شبه جزيرة صخرية في شمال اليونان لها امتداد على بحر إيجه ، تنتهي بمرتفع يبلغ طول شاطئه الالفي متر . ويُعرف جبل آثوس « بالجبل المقدس » ويضم عشرين ديراً رئيسياً وعدداً كبيراً من الأديرة الصغيرة وصوامع النساك . وشبه الجزيرة بمجملها مخصصة للحياة الرهبانية ، وكانت تعد أربعين ألف راهباً في بعض الفترات الذهبية من تاريخها ، وقد خرج من واحد من الأديرة العشرين الرئيسية ستة وعشرون بطريركا ومئة وأربعة وأربعون أسقفا . وهذا يعطي فكرة عن أهمية جبل آثوس في تاريخ الأرثوذكسية .

ليس في الأرثوذكسية « رهبانيات » على غرار ما يوجد في الغرب حيث يكون الراهب منتمياً إلى رهبنة معينة مستقلة عن مثيلاتها . أما في الشرق فهو مجرد عضو في أخوية واحدة كبرى تضم كل الرهبان والراهبات ، على الرغم من كونه ملتحقاً بدير معيّن من الأديرة .

و « الشيخ » (باليونانية جيرون geron ، وبالروسية ستارتس (staretz) هو صورة نموذجية في الرهبنة الأرثوذكسية . « الشيخ » راهب وصل إلى درجة من التمييز الروحي والحكمة يمكنه معهما ان يلعب المرشد والأب الروحي لرهبان آخرين أو لغير الرهبان .

وقد يكون الشيخ كاهنا ولكنه غالبا ما يكون راهبا عادياً لم يتقبل نعمة الكهنوت . ولا يحتاج الشيخ الى رسامة خاصة أو تفويض معيّن

ليمارس عمل « الشيخ »، لكنه يسير بالهام مباشر من الروح القدس وتتجلى موهبته الخاصة(Charisma) بكشفه للذين يقصدونه ارادة اللّه ومقاصده فيما يعانون وكيفية معالجة حالة كل واحد منهم . وأول « شيخ » بل وأشهرهم هو القديس أنطونيوس الكبير نفسه . أمضى الشطر الأول من حياته ، بين سن الثامنة عشرة والخامسة والخمسين ، في العزلة والابتعاد عن العالم . بعدها ، وعلى الرغم من بقائه في الصحراء ، هجر حياة العزلة التامة وبدأ استقبال الزوار . فاجتمع حوله نفر من التلامذة ، وصار يقصده العديد من الناس قادمين من أماكن بعيدة جداً طلباً للنصح . ويقول القديس أثناسيوس ، كاتب سيرة القديس أنطونيوس : ان تدفق هؤلاء الزوار كان كبيرا إلى حد أصبح معه أنطونيوس طبيباً لمصر كلها . وكان لأنطونيوس خلفاء عدة اتَّبع معظمهم في حياتهم الخارجية نمط الابتعاد عن العالم من أجل العودة إليه . فعلى الراهب أن يعتزل أولا لكي يتعلم في الصمت معرفة الحقيقة عن اللّه وعن نفسه . ثم بعد تدريب طويل وشاق في العزلة ، يكتسب موهبة التمييز التي يتحلى بها « الشيخ » إذاك يستطيع فتح باب صومعته للعالم الذي هرب منه في الماضي .

الأباطرة

كان موقع الامبراطور في قلب الادارة المسيحية البيزنطية ، إذ لم يكن يُعتبر ملكاً عادياً بل ممثل الله على الأرض . وبقدر ما كانت بيزنطية تُعتبر أيقونة أورشليم السماوية ، بهذا القدر اعتُبر الملك الامبراطوري في الأرض صورة لله الملك في السموات . وكما كان يسجد الناس في الكنائس أمام أيقونة المسيح ، كذلك كانوا يسجدون في القصر أمام الامبراطور الذي هو أيقونة حية لله . والقصر بمتاهاته ، والبلاط

باحتفالاته الباذخة ، وردهة العرش حيث تزأر الأسود الآلية وتغرد العصافير الاصطناعية ، كل ذلك كان من أجل إظهار الامبراطور على انه نائب الله الملك . وقد كتب الامبراطور قسطنطين السابع البورفيري (Porphyrogenitus) يقول : « بهذه الوسائل ، نصوِّر حركة الله الخالق المتناسقة حول الكون ، ويحافظ على السلطة الامبراطورية في تناغم ونظام » [1] ، وكان للامبراطور مكانة خاصة في الخدم الكنسية . لم يكن من حقه بالطبع إقامة سر الافخارستيا ، ولكنه كان يتناول « على غرار الكهنة » ، ويقوم بالوعظ ويبخر المذبح بمناسبة بعض الأعياد . كذلك فان الملابس التي يرتديها الأساقفة الأرثوذكسيون في أيامنا هذه هي نفس الثياب التي كان يلبسها الأباطرة قديماً في الكنائس .

كانت تشكل الحياة في بيزنطية كلا موحداً بحيث لم يوجد فاصل صلب بين الدين والدنيا ، وبين الكنيسة والدولة ، فكلاهما اعتبرا جزءين في جسم واحد . وبالتالي كان لا بد من أن يلعب الامبراطور دورا مهماً بالنسبة لشؤ ون الكنيسة ، ولكن ليس من العدل بمكان الاستناد إلى هذا الأمر لاتهام بيزنطية بأنها أخضعت الكنيسة للدولة . صحيح ان الكنيسة والدولة كانتا تشكلان جسما واحداً ، ولكن يوجد في هذا الجسم تمايز واضح بين عنصريه الاثنين . فهناك الاكليروس من جهة وسلطة الامبراطور من جهة أخرى . ومع ان هذين العنصرين يتعاونان عن قرب ، فكان كل منهما يحافظ على استقلاليته التامة في دائرة اختصاصه . كان ثمة تناغم وتناسق Symphonie بين السلطتين ، ولكن بدون أن تمارس احداهما على الأخرى سيطرة مطلقة .

وهذا ما نجده مطروقا بوضوح في مجموعة القوانين البيزنطية التي وضعت في عهد يوستينيانوس (أنظر نوڤيلته السادسة) والذي

---

(١) « كتاب الاحتفالات » ، التوطئة .

يتكرر ذكره في العديد من النصوص البيزنطية الأخرى، ولا سيما في أقوال الامبراطور يوحنا تزيميسكاس (Tzimisces) : «أعترف بسلطتين، سلطة الكهنوت وسلطة الامبراطور. وقد أوكل خالق الكل للأولى رعاية الأرواح، وللثانية مراقبة أجساد البشر. ولكي يكون العالم مزدهراً ينبغي ألا تطغى أي من هاتين السلطتين»[1]. كان على عاتق الامبراطور إذاً دعوة المجامع للالتئام وتنفيذ القرارات الصادرة عنها، ولكن لم يكن له حق التدخل في مضمون هذه القرارات، لأن تحديد مضمون الايمان هو من شأن الأساقفة المشتركين في المجمع. والأساقفة اختيروا من الله ليعلّموا الايمان بينما الامبراطور هو حامي الأرثوذكسية وليس ناطقاً باسمها. تلك كانت النظرية وكذلك كان العرف الى حد بعيد. ومن المؤكد انه قد حصل في مناسبات عدة تدخل غير جائز من قبل بعض الأباطرة في الشؤون الكنيسية. ولكن كلما أثيرت قضية تتعلق بمبادىء الكنيسة كانت السلطات الكنسية تبرهن بسرعة انها حرة من الارادة الملكية. ولطالما وقف العديد من الأباطرة موقفاً صلباً يدعم محاربة الأيقونات، لكن الكنيسة رفضت ذلك باصرار. وهكذا في التاريخ البيزنطي كله كانت توجد علاقة وثيقة بين الكنيسة والدولة دون أن تخضع قط الواحدة للأخرى[2].

غالباً ما نسمع في أيامنا هذه، سواء في داخل الكنيسة الأرثوذكسية أو خارجها، انتقادات لاذعة ضد الامبراطورية البيزنطية وضد فكرة المجتمع المسيحي الذي كانت تدعو إليه. ولكن هل كانت بيزنطية في سعيها هذا مخطئة كل الخطأ؟ كانت تؤمن بأن المسيح، إذ

(١) «دراسات بيزنطية» لبايز، لندن، ١٩٥٥، ص ٥٢.
(٢) راجع بهذا الصدد «الكنيسة والدولة» لترويتسكي وخضر، منشورات النور، ١٩٨٢ (الناشر).

عاش على هذه الأرض كانسان ، قد افتدى كل أشكال الوجود الانساني ، وأصبح بالتالي ممكناً « تعميدٌ » ليس للفرد فحسب ، بل لعقلية المجتمع وكل تنظيماته . لذلك جدّ البيزنطيون في السعي لايجاد نظام تقوم أسس حكمه وحياته اليومية على المبادىء المسيحية . وبالتالي تكون بيزنطية ليست ، بالواقع ، سوى محاولة لقبول وتطبيق كل ما يقتضيه فعل التجسد . من الأكيد انه لم يكن بالامكان تطبيق نظرية كهذه بلا محاذير ، وقد سقط البيزنطيون مراراً في خطأ الخلط بين بيزنطية ـ المملكة الأرضية ، وبين ملكوت اللّه ، كما أنهم غالباً ما خلطوا بين الشعب اليوناني وبين شعب اللّه . ومن المؤكد أيضاً أن بيزنطية قد تنكرت للهدف العظيم الذي وضعته آنذاك نصب عينيها ، وكانت سقطاتها عظيمة ومفجعة . وقصص الخداع والعنف والوحشية البيزنطية أشهر من أن نوردها في هذا السياق . هي قصص حقيقية لكنها لا تشكل سوى جزء من الحقيقة . ذلك انه ، على الرغم من كل ما شاب بيزنطية من نواقص ، فلا يسعنا إلا أن نرى من خلال تلك النواقص ، الرؤيا العظيمة التي ألهمت البيزنطيين ، ألا وهي إقامة ايقونة حية لملكوت اللّه على هذه الأرض .

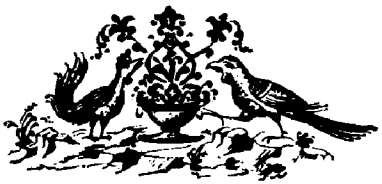

coptic-books.blogspot.com

الفصل الثالث

الانشقاق الكبير

« نحن لم نتغير ، نحن لا نزال كما كنا في القرن الثامن . . . آه لو توافقون فقط ان ترجعوا كما كنتم عندما كنا متحدين في الايمان والشركة ! »

الكسي خومياكوف

التباعد بين الشرق والغرب المسيحيين

كان ذلك في القسطنطينية بعد ظهر ذات يوم من أيام صيف العام الـ ١٠٥٤ ، وقبيل بداية الخدمة في كنيسة آجيا صوفيا[١] . دخل الكنيسة الكاردينال هامبرتوس ومعه قاصدان بابويان شقوا لهم طريقاً إلى الهيكل. لم يأتوا من أجل الصلاة، بل ليضعوا على المذبح نص الحرم ويغادروا المكان فوراً. وعند خروجه من الباب الغربي، نفض الكاردينال الغبار عن رجليه قائلا : «ليشهد الله وليحكم» . ولحق به أحد الشمامسة ورجاه ان يسترجع الوثيقة، لكن هامبرتوس رفض وسقطت الوثيقة في الشارع .

ذلك هو الحدث الذي اصطلح على انه نقطة الانطلاق في الانشقاق الكبير[٢] بين الشرق الأرثوذكسي والغرب اللاتيني . ولكن

(١) أي « الحكمة المقدسة » .

(٢) راجع أيضاً « نحن وروما والفاتيكان » ، للدكتور أسد رستم ، منشورات(الناشر) .

هذا الانشقاق ، كما بات يعترف معظم المؤرخين ، ليس بالحدث الذي يمكن تحديد تاريخه بدقة . فقد حصل تدريجياً وفقا لعملية طويلة ومعقدة ، بدأت قبل القرن الحادي عشر بكثير ، ولم تنته إلا بعده بوقت غير يسير.

وقد لعبت تأثيرات عديدة ومختلفة دورها في تلك العملية البطيئة والشاقة . واذا كان السبب الرئيسي للانشقاق لاهوتيا وليس زمنيا ، فقد ساهمت أيضاً في تطويره عوامل ثقافية وسياسية واقتصادية . على ان النزاع الأخير إنما حصل لأسباب عقائدية وخاصة تلك المتعلقة بالادعاءات البابوية من جهة وبالخلاف حول عقيدة الثالوث القدوس ، (المعبَّر عنه بزيادة عبارة « والابن » (Filioque) بعد « المنبثق من الآب) في بند دستور الايمان المخصص للروح القدس) ، من جهة أخرى . ولكن قبل الدخول في تفاصيل هذين الخلافين الرئيسيين ، وقبل الولوج في دراسة تطور الانشقاق ، لا بد لنا أن نتحدث بايجاز عن خلفيات هذا الحدث البعيدة المدى . وفي السعي لفهم كيفية وأسباب هذا التصدع في الشركة الذي عرفه العالم المسيحي علينا،بادىء ذي بدء، أن نأخذ بعين الاعتبار واقع التباعد التدريجي الذي جعل، قبل اعلان الانشقاق رسميا بوقت طويل، الشرق والغرب غريبين واحدهما عن الآخر.

التباعد السياسي

حين كان بولس وسائر الرسل يطوفون حوض المتوسط ، لم يكونوا ليتجاوزوا حدود الأمبراطورية الرومانية التي كانت تسودها آنذاك وحدة سياسية وثقافية وطيدة. كانت تضم هذه الامبراطورية مجموعات قومية ذات لغات ولهجات متنوعة، لكنها كلها كانت تخضع لحكم امبراطور واحد. وكان المثقفون في كل ارجاء الامبراطورية يساهمون في تكوين

حضارة يونانية رومانية واحدة رغم التنوع. واللغة اليونانية واللغة اللاتينية كانتا مفهومتين حيثما كان ، وكثيرون هم الذين كانوا يتكلمون هذه وتلك. وهذا ما ساعد كثيراً الكنيسة الاولى في عملها التبشيري.

لكن وحدة العالم المتوسطي أخذت خلال القرون اللاحقة تضمحل تدريجياً، بدءاً بالوحدة السياسية. والامبراطورية، منذ نهاية القرن الثالث وعلى الرغم من كونها موحدة نظرياً، كانت منقسمة عملياً الى امبراطورية شرقية وامبراطورية غربية، على رأس كل منهما امبراطور. وقد ساهم قسطنطين في توطيد هذا الانقسام عندما أقام عاصمة ثانية للامبراطورية في الشرق موازية لرومية القديمة في إيطاليا. في بداية القرن الخامس ، أدت غزوات البرابرة المتلاحقة إلى اقتسام الغرب فيما بين زعمائهم الرئيسيين . ولم يتركوا للامبراطورية سوى معظم إيطاليا . أما البيزنطيون فلم ينسوا أبداً أحلام رومية أيام أغسطس وتراجان ، ولم ينفكوا عن اعتبار امبراطوريتهم شاملة للمسكونة كما في المبدأ ، علماً أن يوستنيانوس كان آخر امبراطور سعى جدياً في ردم الهاوية بين المبدأ والواقع ، ولكن لم يطل الزمن وتم الانسحاب من كل الأراضي التي كان قد غنمها في الغرب . مهما كان من أمر ، يبقى ان الوحدة السياسية بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني تهدمت في الواقع تحت وطأة الغزو البربري ولم يُصر أبداً إلى ترميمها فيما بعد بصورة كاملة .

وزاد انتشار الاسلام من حدة هذا الانفصال. فالمتوسط ، الذي كان يدعوه الرومان « بحرنا » (mare nostrum) ، انتقل في معظمه إلى السيطرة العربية. بيد أن الاتصالات الثقافية والاقتصادية بين المتوسط الشرقي والمتوسط الغربي لم تنقطع ولكنها أضحت أكثر صعوبة.

وهكذا بانقطاعه عن بيزنطية، بدأ الغرب بتنظيم امبراطورية رومانية على طريقته . وفي يوم عيد الميلاد العام الـ ٨٠٠ توّج البابا شارل الكبير ملك الفرنجة امبراطوراً على الغرب . وسعى شارلمان للحصول على اعتراف بلقبه هذا من الامبراطور البيزنطي ، لكنه لم يفلح . ولكونهم ما زالوا أوفياء لمبدأ وحدة الامبراطورية ، اعتبره البيزنطيون مغتصباً ونظروا إلى تتويج البابا له كعمل انفصالي ضمن الامبراطورية. هكذا فان إنشاء الأمبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب ، لم يُسهم أبداً في شد الأواصر الأوروبية ، لا بل زاد في اتساع رقعة الخلاف بين الشرق والغرب .

التباعد الثقافي

استمرت الوحدة الثقافية وقتاً أطول ولكنها ضعفت جداً . ففي الشرق كما في الغرب ، ظل المثقفون محافظين على التقليد الكلاسيكي الذي تبنته الكنيسة ، لكنهم باتوا يفسرون هذا التقليد على نحو أكثر فأكثر تبايناً . وجاءت مشكلة اللغة لتزيد من تعقيد الموضوع ، إذ لم يعد هؤلاء المثقفون يتقنون اللغتين كما في الماضي. وفي نحو السنة ٤٥٠ لم يعد يوجد في الغرب إلا عدد قليل يفهم اليونانية، وبعد العام ٦٠٠، اصبح من النادر وجود بيزنطيين يتكلمون اللاتينية لغة الرومان، مع ان بيزنطية كانت لا تزال تطلق على نفسها إسم «الامبراطورية الرومانية ». ففوتيوس مثلا ، أعظم فقهاء القسطنطينية في القرن التاسع لم يكن يقرأ اللاتينية . وفي السنة الـ ٨٦٤ ، توصل أحد الأباطرة « الرومان » البيزنطيين وهو ميخائيل الثالث ، إلى أن ينعت لغة فرجيليوس « باللغة البربرية البدوية ». وكان السبيل الوحيد لمن يريد التعرف على كتاب موضوع بلغة أخرى اللجوء إلى قراءة ترجمة له .

ولكن معظم المثقفين لم يكن عندهم الميل إلى قراءة الترجمات فكانوا يلجؤ ون الى الأصل رغم جهلهم لغته، حتى أن أحد كبار العلماء اليونانيين، لجهله اللاتينية، خلط بين قيصر وشيشرون. وسوء الفهم هذا أدى في النهاية إلى اتساع الشقة المتزايد بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني. وقد تجاوز العداء الروماني للقسطنطينية القضايا السياسية إلى الميدان الثقافي فتميزت النهضة الثقافية في بلاط شارلمان بموقفها السلبي المطلق من كل ما يمت بصلة للثقافة اليونانية. وأخذ الادباء الغربيون يسعون إلى خلق حضارة مسيحية خاصة بهم ضاربين عرض الحائط بكل الانتاج البيزنطي. وهكذا فأوربا القرن الرابع التي لم تعرف سوى حضارة مسيحية واحدة قد عرفت في القرن الثالث عشر حضارتين متمايزتين. وقد يكون الشرخ الحضاري قد أخذ بالوضوح في ايام

وأما البيزنطيون فانغلقوا في قوقعتهم الفكرية ولم يعطوا الفكر الغربي حقه من الاهتمام ولم يسعوا إلى ملاقاة الغرب في منتصف الطريق لأن كل ما يأتي من الفرنجة بربري ليس إلا . . .

التباعد الديني

ولم يعد بالامكان إلا ان تؤثر هذه العوامل السياسية والثقافية في حياة الكنيسة وتجعل استمرار الوحدة الدينية أمراً صعباً . مثال على ذلك ما فعله شارلمان . فحينما رفضت بيزنطية الاعتراف بحقوقه في المجال السياسي ، سارع هو إلى اتخاذ التدابير المضادة ونعت الكنيسة البيزنطية بالهرطقة لأنها لم تضف عبارة « والابن » على دستور الايمان ، وذهب إلى

حد رفضه قبولَ قرارات المجمع المسكوني السابع. صحيح ان شارلمان لم يطلع على قرارات المجمع إلا من خلال ترجمة مغلوطة شوّهت محتوياتها وحرّفت معانيها الحقيقية، ولكن ذلك لا ينفي عنه الميل الجزئي في آرائه إلى محاربي الأيقونات.

وحيث ان الوضع السياسي لم يعد في الغرب مطابقاً لما هو في الشرق، فقد أثر هذا التمايز على وحدة التنظيم الكنسي إلى حد اصبحت تتكوّن فيه وجهات نظر متناقضة.

وقد وُجد بالفعل منذ البدء بعض المفارقة في وجهات النظر بين الشرق والغرب بشأن هذا الموضوع. ففي الشرق العديد من الكنائس يعود تأسيسها إلى أصل رسولي، مما أنمى شعوراً قوياً بمساواة الأساقفة فيما بينهم وبالطبيعة الجامعة والمجمعية للكنيسة. وكان يعترف الشرق ان البابا هو أول أسقف في الكنيسة، لكن الأول بين متساوين. أما في الغرب، فلم يكن سوى كرسي كبير واحد يعود تأسيسه إلى الرسل هو كرسي رومية، وبالتالي أُعتبر هذا الكرسي بمثابة «الكرسي الرسولي» الذي ليس له شبيه. لذلك وعلى الرغم من قبول الغرب بقرارات المجامع المسكونية، فهو لم يشترك فيها قط بصورة فعالة، لأنه كان يميل إلى اعتبار الكنيسة ذات رأس واحد ـ هو البابا ـ أكثر من اعتبارها مبنية على المجمعية.

وقد زادت الأحداث السياسية من حدة هذا التباين في النظرة . وكان طبيعياً ان تساعد غزوات البرابرة وسقوط الامبراطورية في الغرب تحت سيطرتها، في تقوية البنية الأوتوقراطية للكنيسة الغربية . وفي حين بقي الشرق، بفضل أباطرته، على إدارة زمنية قوية حرصت على المحافظة على النظام المتحضر وتطبيق القوانين، نرى الغرب، بعد ظهور البرابرة، وقد خضع للعديد من القادة المحاربين الذين تتفاوت درجاتهم في مضمار احتكار السلطة . وبالتالي لم يبقى معظم الأحيان، أحد سوى البابا يستطيع أن يكون محوراً للوحدة وعنصراً للاستمرار والاستقرار في الحياة الروحية والحياة السياسية لأوروبا الغربية . وبحكم هذا الوضع لعب البابا دوراً لم تتح لأي من البطاركة اليونانيين فرصة لكي يقوم بمثله . وهكذا أصبح البابا حاكما فرداً، وملكاً مطلقاً على الكنيسة ، يصدر أوامره ليس لمرؤوسيه من الاكليريكيين وحسب بل ولبعض الحكام الزمنيين أيضاً، هذا الأمر الذي لم يحصل مطلقاً في الشرق . لذلك تمركزت السلطة في الكنيسة الغربية على نحو لم تعرفه أبداً البطريركيات الشرقية الأربع ـ ربما باستثناء مصر. كان إذاً في الغرب حكم للفرد وفي الشرق قيادة جماعية .

ولم يكن ذلك التأثيرَ الوحيدَ الذي تركته الغزوات البربرية في حياة الكنيسة . لقد عرفت بيزنطية عدداً كبيراً من العلمانيين المثقفين الذين أظهروا اهتماماً جدياً بالأمور اللاهوتية، وقد لعب «اللاهوتي العلماني» دوراً مهماً في الحياة الأرثوذكسية . حتى أن عدداً من البطاركة البيزنطيين المميزين، ومنهم فوتيوس الكبير، كانوا علمانيين عندما اختيروا للسدة البطريركية . أما في الغرب فان الثقافة الوحيدة التي

حُفظت وبقيت في الفترة المظلمة التي رافقت حكم البربر ، هي الثقافة التي اختزنتها الكنيسة وخصت بها الاكليروس فقط . وبما ان العلمانيين في غالبيتهم كانوا لا يحسنون القراءة ولا يستطيعون ان يتفهموا دقائق البحث اللاهوتي اصبح اللاهوت وقفاً على الكهنة .

والأرثوذكسية ، مع انها أوكلت للأسقف سلطة تعليمية خاصة ، لم تعرف أبداً مثل هذه التفرقة بين الاكليروس والعلمانيين التي طبعت الغرب بطابعها في القرون الوسطى .

وكما ذكرنا سابقاً فان غياب اللغة المشتركة أعاق تبادلَ الآراء والأفكار بين المسيحيتين الشرقية والغربية وجعل من العسير على الجانب الواحد أن يفهم الآخر . وهذا ما أدى حتى فيما يتعلق بالامور اللاهوتية ، الى أنواع مختلفة من سوء الفهم . وغالباً ما كانت الترجمات السيئة تعمل على إذكاء سوء الفهم هذا بحيث بات يُخشى أن يكون السوء في الترجمة مقصوداً في بعض الأحيان .

الشرق والغرب أصبحا في غربة عن بعضهما البعض ، وغدت هذه الغربة سبباً لمعاناة كثيرة لكل منهما . كان في الكنيسة الأولى وحدة في الايمان على الرغم من تعدد المدارس اللاهوتية . منذ البدايات الأولى ، فهم اليونان واللاتين السر المسيحي كل بطريقته الخاصة . فالنظرة اللاتينية كانت أقرب الى الواقع والتطبيق بينما كانت النظرة اليونانية تميل أكثر إلى التأمل . كان الفكر اللاتيني تحت تأثير الشرع المدني الروماني ، في حين فهم اليونان اللاهوت في إطار العبادة الليتورجية وفي ضوء القداس الالهي . فإذا فكّر بالثالوث القدوس توقّف

اللاتيني أولا عند وحدانية الالوهة بينما ارتأى اليوناني التشديد على الأقانيم الثلاثة. وتجاه الصلب نجد فكر اللاتيني يتجه أولاً الى المسيح الضحية، بينما فكر اليوناني يلتفت الى المسيح الغالب. تحدث اللاتين أكثر ما تحدثوا عن الفداء وتحدث اليونان عن التأله، وهكذا دواليك. وكما كانت الحال في الشرق بالنسبة للمدرستين الانطاكية والاسكندرية، لم تكن تلك النظرات متناقضة بحد ذاتها بل متكاملة ولكل منها مكانتها في إغناء التقليد الشريف للكنيسة الجامعة. أما الآن، في غمرة هذه الفترة من التباعد والغربة، إذ لا توجد وحدة سياسية بل ضعف في الوحدة الثقافية، وفقدان للغة المشتركة، اصبح الخطر كبيراً على اليونان واللاتين، وبات يخشى، إذا ما سار كل في طريقه ان يسير فيه حتى نهاية الشوط طارحاً جانباً كل قيمة لرأي الآخر.

تكلمنا عن الفروقات المختلفة في وجهات النظر بين الشرق والغرب وقلنا إنها غير متناقضة. ولكن هناك نقطتين حول العقيدة لم يكمِّل بهما الفريقان بعضهما البعض، بل دخلا في نزاع مباشر، وهما موضوع الادعاءات البابوية وموضوع زيادة عبارة « والابن » في دستور الايمان. إن عناصر التفرقة التي أشرنا إليها في الفقرات السابقة كانت كافية لتهديد وحدة العالم المسيحي، ولكنها لم تكن قد هدمت هذه الوحدة كلياً لو لم يبرز الخلاف حول هاتين النقطتين الأخيرتين. بتحليل هاتين المشكلتين نرى انهما، وان تبلور بوضوح الخلاف حولهما في منتصف القرن التاسع، كانتا موجودتين بشكل كامن من قبل ذلك التاريخ بوقت طويل.

قضية البابوية

سبق أن تطرقنا للحديث عن البابوية خلال عرض المواقف السياسية المختلفة في الشرق والغرب ، ورأينا كيف ان البنية المركزية المتمحورة حول شخص واحد لكنيسة الغرب اشتدت بفعل غزوات البربر . وطالما لم يطالب البابا بالسلطة المطلقة إلا على الغرب وحده ، لم تبدِ بيزنطية أي اعتراض . فلم يكن يعنيها في شيء كون الكنيسة الغربية متمركزة في رومية، طالما انها لا تتدخل في شؤ ون الشرق. لكن البابا ظن ان سلطته المباشرة تتعدى الغرب الى الشرق، وما ان فكر في المطالبة بتطبيق هذه السلطة على سائر الكراسي البطريركية الشرقية حتى بدأت المصاعب بالظهور. لقد اعترف اليونان للبابا بأولية شرفية ، لكنهم لم يوافقوا له على ذاك التفوق الشامل الذي اعتبره حقاً له. كذلك رأى البابا انه وحده يتميز بالعصمة، بينما اعتبر اليونانيون ان القرار النهائي في شؤ ون الايمان ليس للبابا وحده بل لمجمع يمثل جميع أساقفة الكنيسة. هذان مفهومان مختلفان للتنظيم المرئي للكنيسة.

والموقف الأرثوذكسي تجاه البابوية عبَّر عنه بشكل رائع كاتب من القرن الثاني عشر هو نيسيتاس رئيس أساقفة نيقوميديا :

« أيها الأخ العزيز ، نحن لا ننكر على الكنيسة الرومانية حق الأولية بين البطريركيات الخمس الشقيقة ، كما نعترف بحقها في تولي الكرسي الأول في المجمع المسكوني . لكنها انفصلت عنّا بفعل ما صنعته ، حين تولّت بكبرياء مكانة صدارة إدارية ليست من ضمن وظيفتها . . . كيف لنا ان نقبل بمراسيم أصدرتها دون استشارتنا وحتى دون أن نعلم عنها شيئاً ؟ فاذا شاء الحبر الروماني الجالس على عرش مجده المتعالي ، ان يزجرنا ويصدر إلينا الأوامر ، واذا شاء ان يحاكمنا ويحكمنا نحن وكنائسنا أيضاً ، دونما تشاور معنا وبمحض استبداده

وهواه، فما هي هذه الأخوة؟، بل أي نوع من القرابة هذا؟ المطلوب أن نصبح عبيداً لكنيسة نحن أبناؤها ، وتكون رومية بهذه الطريقة ليست تلك الأم المتفانية من أجل أبنائها ، بل بالأحرى سيدة قاسية ومتعجرفة تجاه عبيدها » . [1]

هكذا كان شعور أرثوذكسي من القرن الثاني عشر ، عندما طُرحت هذه القضية في مداها الواسع . وفي القرون التي سبقت ، كان الموقف اليوناني تجاه البابوية على كثير من التشابه في جوهره ، على الرغم من عدم التعبير عنه بهذه الحدّة الناتجة عن موقف جدلي . حتى العام ٨٥٠ تحاشى كل من رومية والشرق أي نزاع علني حول مزاعم البابا. لكن كون الاختلاف في وجهات النظر مخبأ جزئياً ، لم يخفف أبداً من خطورته .

قضية انبثاق الروح القدس

أما الصعوبة الكبرى الثانية فقد أثارتها مشكلة إضافة عبارة «والابن » إلى دستور الايمان النيقاوي القسطنطيني وذلك في الفقرة المتعلقة بالروح القدس . وكان يُقرأ الدستور في الأصل هكذا : « أؤمن . . . بالروح القدس، الرب، المحيي ، المنبثق من الآب ، الذي هو مع الآب والابن مسجود له وممجد » . هذا النص الذي هو الصيغة الأصلية لا يزال كما هو ودون تعديل في الكنيسة الأرثوذكسية حتى يومنا هذا . لكن الغرب أدخل عليه عبارة « والابن » (باللاتينية filioque) بحيث أصبح يُقرأ : « المنبثق من الآب والابن » . ليس من المعلوم بوضوح أين وكيف تمت هذه الاضافة لأول مرة، ولكن يبدو انها ذات أصل اسباني، وقد وضعت كتدبير احترازي ضد الآريوسية. ومن الأكيد ان الكنيسة الاسبانية أدخلت هذه العبارة في مجمع طليطلة

(١) ـ النص مذكور في كتاب « الانشقاق الشرقي » ، لستيف رانسيمان ، ص ١١٦ .

(السنة الـ ٥٨٩) ، إن لم يكن قبله . ثم انتقلت هذه الاضافة من إسبانيا إلى فرنسا ومنها الى جرمانيا حيث رحب بها شارلمان وتبناها مجمع فرانكفورت الذي اتخذ موقفاً شبه مؤيد لمحاربي الأيقونات (السنة ٧٩٤) . ومن بلاط شارلمان انتقل الجدل حول هذه القضية حين نعت بعض كتّاب هذا البلاط اليونانيين بالهرطقة لأنهم يتلون دستور الايمان بصيغته الأصلية . ولكن رومية تابعت استخدام الدستور بدون الزيادة حتى بداية القرن الحادي عشر . وفي العام الـ ٨٠٨ كتب البابا ليون الثالث لشارلمان يقول انه على الرغم من انه يجد الأسباب الداعية الى زيادة عبارة « والابن » صحيحة عقائدياً ، فهو يعتقد ان من الخطأ إدخال التغيير على النص الأصلي لدستور الايمان . وأمر ليون الثالث ،عن عمد، بنقش دستور الايمان، بدون الزيادة ، على صفائح فضية وضعت في كنيسة القديس بطرس في رومية . وكانت رومية في ذلك الوقت تلعب دور الوسيط بين جرمانية وبيزنطية .

ولم يبد اليونان كثيرا من الانتباه لهذه الاضافة قبل السنة ٨٥٠، ولكن سرعان ما بدا رد فعلهم عنيفاً. عارضت ولا تزال الأرثوذكسية تعارض هذه الاضافة لسببين : أولهما يكمن في الخطر الواضح الذي وضعته المجامع المسكونية على إجراء أي تغيير في دستور الايمان. واذا كان لا بد من إضافة، فلا يمكن ان تتم إلا في مجمع مسكوني آخر. فدستور الايمان هو ملك الكنيسة جمعاء ولا يحق لجزء من الكنيسة ان يشوّهه. والغرب، إذ غيرّ اعتباطاً في نص الدستور بدون استشارة الشرق، هو مذنب (كما يقول خومياكوف) بقتل أخيه معنوياً وباقتراف خطيئة بحق وحدة الكنيسة. والسبب الثاني هو ان الاضافة تشكل خطأ من الناحية اللاهوتية. فبالنسبة للأرثوذكسي، يعتبر الروح القدس منبثقاً من الآب وحده، ومن الخطأ القول إنه منبثق من الابن أيضاً. قد يبدو

لكثيرين ان نقطة المناقشة هذه بعيدة جداً عن الواقع ولا طائل تحتها، ولكن سيقول الأرثوذكسيون الذين يعتبرون ان عقيدة الثالوث القدوس تتصدر الايمان المسيحي، ان كل تغيير مهما صغر في لاهوت الثالوث يحمل في طياته عواقب بعيدة المدى في مجالات عديدة أخرى. فلا تهدم الزيادة التوازن بين أقانيم الثالوث فحسب، بل تُدخل أيضاً مفهوماً خاطئاً لدور الروح القدس في العالم وبالتالي تؤدي إلى تشجيع عقيدة مغلوطة للكنيسة.[1]

إلى جانب هاتين المسألتين الرئيسيتين المتعلقتين بالبابوية وبقضية انبثاق الروح القدس، ثمة مواضيع أخرى أقل شأنا، تتعلق بعادات الكنيسة وعبادتها، عكّرت أيضاً صفو العلاقات بين الشرق والغرب في الفترة بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر: فاليونانيون مثلا يقبلون الكهنة المتزوجين بينما كان يشدد اللاتين على ضرورة عزوبيتهم؛ وكان لكل فريق قواعد مختلفة بشأن الصوم؛ وفي حين يستخدم اليونان خبزا مخمراً لاقامة سر الشكر، كان اللاتين يستخدمون خبزاً فطيراً...

كان الشرق والغرب في نحو السنة الـ ٨٥٠ لا يزالان في شركة كاملة وكانا يشكلان كنيسة واحدة. وقد أدت الفروقات السياسية والثقافية الى تباعد تدريجي بينهما لم يصل إلى حد الانشقاق. كذلك اختلف الطرفان في النظر إلى أولية البابا وسلطته كما أنهما كانا يتلوان دستور الايمان على نحو مختلف ولكن كل هذه الأمور لم تكن بعد قد ظهرت كليا على السطح.

---

(١) أوردت هنا وجهة النظر الأرثوذكسية الرسمية حول موضوع الاضافة. ولكن تقتضي الاشارة إلى ان بعض اللاهوتيين الأرثوذكسيين يعتبرون ان الأمر مقتصر على زيادة غير مشروعة ولكنها ليست بالضرورة هرطقة بحد ذاتها.

coptic-books.blogspot.com

ولكن ، في السنة الـ ١١٩٠ ، نظر البطريرك الانطاكي ثيودور بلسمون والمرجع في القانون الكنسي ، إلى تلك الأمور بطريقة مختلفة جداً إذ قال :

« منذ سنين عديدة (لم يحُدِّد العدد) قطعت الكنيسة الغربية الشركة الروحية مع البطريركيات الأربع الأخرى وأصبحت غريبة بالنسبة للأرثوذكسيين . . . لهذا فلا يجب أن يناوَل اللاتيني (في كنائسنا) ما لم يُعلن سلفاً تراجعه عن العقائد والعادات التي تفصله عنّا ، وان يقبل بقوانين الكنيسة ويدخل بالشركة مع الأرثوذكسيين » . [١]

ففي نظر بلسمون قد انقطعت الشركة وتم الانشقاق بين الشرق والغرب وما عادا يكوّنان الكنيسة المنظورة الواحدة.

في مسيرة هذا التطور، بدءاً بالتباعد والغربة وحتى الانشقاق، نصادف أربعة حوادث على جانب كبير من الأهمية ، هي على التوالي : النزاع بين فوتيوس والبابا نيقولاوس الأول (ويُعرف باسم « انشقاق فوتيوس » علما ان الشرق يفضل تسميته بانشقاق نيقولاوس) ، ثم حادث الذبتيخا السنة الـ ١٠٠٩ ، ثم محاولات المصالحة السنة ١٠٥٣ ـ ١٠٥٤ ، وأخيراً الحملات الصليبية .

من التباعد الى الانشقاق : ٨٥٨ ـ ١٢٠٤

النزاع بين فوتيوس الكبير والبابا نيقولاوس الأول

السنة الـ ٨٥٨ ، بعد مرور خمسة عشر عاماً على انتصار الأرثوذكسية على محاربي الأيقونات في عهد ثيودورا، تم تعيين القديس فوتيوس الكبير بطريركا على القسطنطينية . وقد نُعِتَ فوتيوس بأنه « ألمع مفكر وأبرز سياسي وأحذق دبلوماسي تولى السدة البطريركية في

(١) ذكر هذا النص في كتاب « الانشقاق الشرقي » لرنسيمان ، ص ١٣٩ .

القسطنطينية »[1] . وبعد فترة وجيزة من تنصيبه وجد نفسه منجرفاً في نزاع مع البابا نيقولاوس الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) . وكان قد سبق لسلفه ، القديس اغناطيوس أن تعرض للنفي من قبل الامبراطور ، وقدَّم استقالته من السدة البطريركية بملء إرادته وهو في المنفى . ولكن أنصاره رفضوا الاعتراف بشرعية استقالته تلك ونظروا الى فوتيوس على انه مغتصب. وحين أرسل فوتيوس كتاباً للبابا يعلمه فيه اعتلاءه الكرسي البطريركي، قرر نيقولاوس أن يدرس عن كثب الخلاف القائم بين البطريرك الجديد وحزب اغناطيوس قبل الاعتراف بفوتيوس. لذلك أرسل قاصدين بابويين إلى القسطنطينية في السنة الـ ٨٦١.

وفوتيوس، الذي لم تكن عنده رغبة بالدخول في نزاع مع البابا، استقبل موفَدَيْه بكل احترام، ودعاهما لترؤس المجمع الذي كان قد دعي للانعقاد في القسطنطينية للنظر في الخلاف بينه وبين اغناطيوس. وقبل القاصدان البابويان هذا العرض وقررا بالاتفاق مع سائر أعضاء المجمع ان فوتيوس هو البطريرك الشرعي. ولكن بعودتهما إلى رومية، لامهما نيقولاوس على هذا التصرف، واتهمهما بتجاوز صلاحياتهما ورفض قرارهما . ثم باشر باعادة النظر في القضية في رومية حيث عُقد مجمع برئاسته السنة الـ ٨٦٣ . واعترف هذا المجمع باغناطيوس بطريركا للقسطنطينية وأسقط فوتيوس من رتبته الكهنوتية . ولم يعبأ البيزنطيون أبداً لتلك الادانة، ولم يردوا على رسائل البابا. وهكذا حدثت ثغرة بين كنيستي رومية والقسطنطينية .

ومن الواضح ان هذا الخلاف متعلق بالمزاعم البابوية . كان نيقولاوس الأول مصلحاً كبيراً ، يحمل فكرة سامية عن صلاحيات

(١) جورج أغورسكي، «تاريخ الدولة البيزنطية»، ص ١٩٩ .

coptic-books.blogspot.com

كرسيّه . وقد سبق له ان عمل كثيراً على اقرار سلطته المطلقة على كل أساقفة الغرب ، وظن ان بامكانه بسط هذه السلطة على الشرق أيضاً وكما أورد في رسالة له مؤرخة السنة الـ ٨٦٥ ، يتمتع البابا بسلطة « على الأرض كلها ، أي على كل كنيسة » . وهذا بالضبط ما لم يكن البيزنطيون على استعداد لاقراره . وما ان علم نيقولاوس بالنزاع بين فوتيوس واغناطيوس ذلك حتى رأى في فرصة سانحة لدعم زعمه بالسلطة العالمية، عن طريق جعل الفريقين يلجآن لتحكيمه. هذا مما يفسر، إلى جانب اسباب أخرى ، لماذا ألغى البابا قرارات موفديه إلى القسطنطينية ، مع علمه بأن فوتيوس كان قد رضخ بملء إرادته لتحقيق القاصدين البابوين ، وانه لا يمكن اعتبار عمله هذا اعترافا بسلطة البابا المطلقة . وكان البيزنطيون ، من جهتهم ، على استعداد للقبول بالرجوع الى رومية ، لحل بعض القضايا ولكن ضمن الأطر التي حددها القانون الثالث لمجمع سرديقية السنة الـ ٣٤٣ . وينص هذا القانون انه يحق لأسقف وقع تحت الادانة ان يستأنف إلى رومية ، وانه بامكان البابا ، إذا اقتنع بسبب الاستئناف ، ان يأمر بفتح ملف القضية من جديد . ولكن لا يعطي هذا القانون للبابا حق النظر شخصياً في القضية مجدداً في رومية ، بل ينظر فيها أساقفة المقاطعة المجاورة لمنطقة الأسقف المدّعي عليه . وشعر بالتالي البيزنطيون بأن نيقولاوس ، برحضه قرارات مبعوثيه ، وباصراره على إثارة القضية مرة ثانية في رومية نفسها ، قد تجاوز حدود القانون المذكور . واعتبروا تصرفه هذا بمثابة تدخل لا مبرر له وغير قانوني في شؤون بطريركية أخرى.

وسرعان ما دخلت مسألة انبثاق الروح القدس في النزاع الى جانب المزاعم البابوية . وكانت شرعت بيزنطية وكذلك الغرب وبلاد الجرمان بارسال الحملات التبشيرية بين الشعوب السلافية [١]. ولم

(١) أنظر الفصل الرابع من الكتاب نفسه.

يمض وقت طويل حتى بدأت طلائع هذه الحملات القادمة من الشرق والغرب بالتلاقي . وعندما التقى المبشرون اليونانيون والجرمانيون في العمل ضمن منطقة واحدة ، لم يكن بوسعهم تحاشي النزاعات الناتجة أساساً عن اختلاف واسع في المبادىء المرتكزة عليها حملاتهم التبشيرية . وقد أبرز بالطبع هذا الاحتكاك قضية عبارة « والابن » التي كان الجرمانيون قد أضافوها على دستور الايمان، والتي لم تكن معروفة لدى اليونانيين . وكانت بلغاريا سبب الاحتكاك الرئيسي بين رومية والقسطنطينية، حيث كان كل منهما يريد ان يشمل هذه البلاد برعايته. وكان الخان بوريس، الذي سمح للمبشرين اليونان والجرمان بالعمل على حد سواء في بلاده، قد اتجه أولا نحو اليونانيين وتلقى المعمودية السنة الـ ٨٦٤ على يد بطريرك القسطنطينية. لكن بوريس شاء ان تستقل الكنيسة في بلغاريا، وحينما رفضت القسطنطينية منحها الاستقلال، اتجه نحو الغرب على أمل الحصول على شروط أفضل. وبذا أصبح المبشرون الجرمانيون طليقي الأيدي في بلغاريا، فقاموا سريعاً بحملة صاخبة ضد اليونانيين، مظهرين نقاط التباين بين عادات بيزنطية وعاداتهم، كزواج الكهنة وقواعد الصوم وبصورة خاصة قضية انبثاق الروح القدس . لم تكن عبارة «والابن» قد أدخلت بعد إلى الدستور في رومية آنذاك، لكن نيقولاوس أيّد كلياً الجرمانيين عندما أصرّوا على استعمالها في بلغاريا. وهكذا فان البابوية التي لعبت دور الوسيط عام ٨٠٨ بين اليونانيين والجرمانيين، لم تعد بعد الآن محايدة.

وبالطبع أبدى فوتيوس قلقه أمام تزايد النفوذ الجرماني في البلقان المجاورة لحدود الامبراطورية البيزنطية، وتزايد هذا التخوف أكثر فأكثر نتيجة زيادة عبارة «والابن» في دستور الايمان فاسرع إلى العمل ضدها

السنة الـ ٨٦٧ حيث كتب رسالة عامة (Encyclique) إلى البطاركة الشرقيين الآخرين منددا فيها بهذه الاضافة وناعتاً مستعمليها بالهرطقة. وغالباً ما انتُقد فوتيوس لسبب كتابته هذه الرسالة. وحتى المؤرخ الكاثوليكي الروماني الكبير، فرنسيس دفورنيك المؤيد لفوتيوس عموماً، وصف هذه الرسالة بأنها تشكل «هجوما تافهاً» وأضاف: «الخطأ كان جسيماً، فيه تسرّع ويحمل في طياته أو خم العواقب».[1]

ولكن هل كان بمستطاع فوتيوس أن يتصرف بشكل آخر وهو يعتبر ان في القضية هرطقة؟ ولا بد أيضاً من التذكر بأن شارلمان وأعوانه هم الذين جعلوا من انبثاق الروح القدس موضوع أخذ وردّ - قبل ذلك بسبعين سنة - وليس فوتيوس. فالغرب كان المعتدي في الاصل وليس الشرق. وأتبع فوتيوس رسالته بعقد مجمع في القسطنطينية ألقى الحرم على البابا نيقولاوس داعياً إياه «الهرطوقي الذي يهدم كرمة السيد».

خلال هذه الفترة الحرجة من الخصام تغيّر الموقف على حين غرة. ففي العام نفسه (٨٦٧) خُلع فوتيوس من السدة البطريركية من قبل الامبراطور وعاد إليها البطريرك اغناطيوس. فأعيدت بذلك الشركة مع رومية. والسنة الـ ٨٦٩ عُقد مجمع آخر في القسطنطينية عُرف باسم «المجمع المعادي لفوتيوس». أدان هذا المجمع فوتيوس وحرمه وعكس قرارات ٨٦٧. وافتُتح هذا المجمع، الذي يعترف به الغرب على انه المجمع المسكوني الثامن، بحضور اثني عشر اسقفاً فقط، ثم ارتفع العدد في الجلسات اللاحقة الى مائة وثلاثة أساقفة.

وبدت رومية منتصرة الى ان ظهرت تغييرات أخرى. فقد أصيب الخان بوريس البلغاري بخيبة الأمل تجاه البابوية. وحين شعر ان البابا

(١) ف. دفورنيك، «إنشقاق فوتيوس»، ص ٤٣٣.

سوف يمنحه استقلالا أقل بكثير من بطريرك القسطنطينية قرر في العام الـ ٨٧٠ أن يعود الى الرعاية البيزنطية. فطرد المبشرين الجرمانيين ومنع اضافة عبارة «والابن» على دستور الايمان في انحاء بلغاريا كلها. وأما في القسطنطينية فتصالح اغناطيوس وفوتيوس. وبموت اغناطيوس السنة الـ ٨٧٧، خلفه فوتيوس من جديد. وعُقد السنة الـ ٨٧٩ مجمع آخر في القسطنطينية ضمّ ٣٨٣ أسقفا، وهو عدد عظيم الدلالة اذا ما قورن مع الرقم الهزيل الذي ضمه المجمع المعادي لفوتيوس قبل عشر سنوات. وقد حرم هذا المجمع مجمع ٨٦٩ وسحب جميع الادانات الموجهة تاريخ الانشقاق ،وافقت رومية بدون أي احتجاج على كل قرارات هذا المجمع. وهكذا يبدو ان فوتيوس ظل في النهاية منتصراً، معترفاً به من قبل رومية، وبطريركاً على الكنيسة البلغارية.

كان يُعتقد لوقت طويل انه حدث انشقاق ثانٍ على يد فوتيوس، ولكن برهن الدكتور دفورنيك بطريقة لا تقبل الجدل، ان ذاك الانشقاق الثاني لم يحدث أبداً، وان الشركة بين القسطنطينية ورومية لم تقطع في الفترة الثانية من ولاية فوتيوس البطريركية (٨٧٧ ـ ٨٨٦)، وأن البابا يوحنا الثامن (٨٧١ ـ ٨٨٢) لم يكن شديد التعاطف مع الجرمانيين ولم يثر قضية الانبثاق، كما لم يسع الى فرض سيطرته على الشرق. ولعل مرد ذلك يعود الى ادراكه إلى أي حد أساءت سياسة سلفه البابا نيقولاوس إلى وحدة العالم المسيحي.

هكذا انتهى الانشقاق، ولكن بدون ان يصار إلى إيجاد حل صحيح للمعضلتين الرئيسيتين اللتين أثارهما الخلاف بين نيقولاوس وفوتيوس.

وفوتيوس ، الذي يُعتبر في الشرق قديساً ومن كبار رعاة الكنيسة ولاهوتيا لامعاً ، لم يحظَ أولا بعطف الغرب الذي نظر إليه كأب الانشقاق ليس إلا . أما الآن فلقد وصل الجميع الى الاعتراف بصفاته الحسنة . ولقد انهى الدكتور دفورنيك دراسته المهمة عن فوتيوس بهذه الكلمات : «لو صحَّت استنتاجاتي ، يمكننا من جديد أن نعترف بفوتيوس كراع كبير أنَسيّ (Humaniste) لامع ومسيحي حقيقي لديه من روح التسامح ما يجعله يغفر لاعدائه ويقوم بالخطوة الاولى في طريق المصالحة» .[1]

وأهم ما نجد في السعي الذي قام به المؤرخون المعاصرون لاعادة تقويم تاريخ الانشقاق ، هو تصحيح الأحكام المغلوطة القديمة المتعلقة بالقديس فوتيوس الكبير .

قضية الذبتيخا

وظهرت في بداية القرن الحادي عشر صعوبات جديدة حول مسألة الانبثاق . لقد وافقت البابوية أخيراً على الزيادة . وفي رومية السنة الـ ١٠١٤ أثناء تتويج الامبراطور هنري الثاني ، رُتل دستور الايمان في صيغته المحرفة . وقبل ذلك بخمس سنوات ، أي السنة ١٠٠٩ ، كان البابا سرجيوس الرابع بُعَيْدَ انتخابه قد بعث الى القسطنطينية باعتراف إيماني يتضمن عبارة « والابن » . ولم يقدّم بطريرك القسطنطينية وقتئذ (واسمه أيضاً سرجيوس) أي احتجاج رسمي ، لكنه مقابل ذلك لم يذكر اسم البابا الجديد في الذبتيخا . والذبتيخا عبارة عن لوائح يحتفظ بها كل بطريرك وقد سجلت عليها أسماء البطاركة الآخرين ، الأحياء منهم والأموات ، ممن يُعتبرون

مستقيمي الرأي . فالذبتيخا إذاً هي رمز لوحدة الكنيسة . واغفال ذكر أحد البطاركة من اللائحة عن عمد يعني الاعلان عن قطع الشركة معه . ومنذ العام الـ ١٠٠٩ لم يعد اسم البابا يظهر على ذبتيخا القسطنطينية ويمكن بالتالي القول ان الشركة قد قطعت بين كنيستي رومية والقسطنطينية منذ ذلك الحين . لكنه من غير الحكمة التشديد على هذه النقطة لأن الذبتيخا كانت في كثير من الأحيان منقوصة ، ولا تُشكل بالتالي دلائل قاطعة لوجود خطأ في العلاقات بين الكنائس . فكثيراً ما أُغفل ذكر أسماء البابوات في ذبتيخا القسطنطينية قبل ١٠٠٩ ، لأن هؤلاء عند اعتلائهم السدة البابوية لم يُعلموا الشرق بانتخابهم . وعدم ذكر اسم البابا السنة الـ ١٠٠٩ لم يُثر أي تعليق في رومية ، وسرعان ما نسي أهل القسطنطينية السبب الذي أدى إلى إسقاط اسم البابا والزمن الذي تم فيه ذلك لأول مرة .

محاولات للتقارب ؟

وخلال القرن الحادي عشر توترت العلاقات بين البابوية والبطاركة الشرقيين مجدداً . فالقرن الذي سبق كان حقبة من الفساد والانحطاط الخلقي بالنسبة لكرسي رومية . هو قرن دعاه الكاردينال برونيوس بحق عصر الحديد والرصاص في تاريخ البابوية . لكن رومية أصلحت ذاتها ، وبقيادة رجال أمثال هيلد براند (البابا غريغوريوس السابع) بلغ نفوذها في الغرب حداً لم تعرفه سابقاً . ومع نهضتها هذه أحيت رومية المزاعم حول سلطتها الشاملة التي أطلقها البابا نيقولاوس الأول في الماضي . والبيزنطيون ، الذين ألفوا النظر إلى البابوية بنوع من الاحتقار الذي كان يبرره وضعها في القرن العاشر ، وجدوا من الصعوبة بمكان التكيف مع الوضع الجديد . وقد زادت في تسميم الأجواء

عوامل سياسية كالعدوان العسكري الذي شنه النورمانديون على إيطاليا البيزنطية ، والعدوان التجاري من قبل المدن البحرية الايطالية في شرقي البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

وحدث نزاع خطير السنة الـ ١٠٥٤ . لقد أرغم النورمانديون السكان اليونانيين في إيطاليا البيزنطية على اتباع العادات اللاتينية . فطالب بالمقابل ميخائيل كيرولاريوس بطريرك القسطنطينية ان تتبع كل الكنائس اللاتينية الموجودة في القسطنطينية العادات اليونانية ، وعندما رفضت هذه الكنائس التقيّد بطلبه ، أصدر أمراً باقفالها السنة ١٠٥٢ . لعل الأمر كان شديد القسوة ، ولكن من حق كيرولاريوس بصفته بطريركاً ان يتصرف على هذا النحو . احتجّ البطريرك ميخائيل وأنصاره بنوع خاص على استعمال الخبز الفطير في الافخارستيا ، وهي مسألة لم تجر إثارتها في القرن التاسع . ولكن السنة الـ ١٠٥٣ ، بدا كيرولاريوس أكثر استعداداً للتفاهم واقترح على البابا ليون التاسع اعادة اسمه في الذبتيخا . جواباً على ذلك ، وبقصد وضع حد لمسائل النزاع حول العادات اليونانية واللاتينية ، أوفد البابا ليون السنة ١٠٥٤ ثلاثة ممثلين عنه إلى القسطنطينية . كان على رأس هؤلاء الكاردينال هامبرتوس ، أسقف سيلفا كانديدا . وجاء اختياره فاشلا لأنه كان ، على غرار كيرولاريوس ، إنساناً متصلباً وعنيداً . وأصبح من الصعب بالتالي ان يؤدي لقاؤهما إلى أي انفراج في العلاقات بين المسيحيين . وحين مَثَلَ القاصدون أمام البطريرك لم يعطوه انطباعاً حسناً ، إذ اكتفوا بتسليم رسالة البابا ثم انسحبوا بدون تقديم التحيات المرعية . والرسالة ، مع كونها موقعة من البابا ، كان قد صاغها هامبرتوس بتعابير عدائية . بعد ذلك امتنع البطريرك عن إجراء أي اتصال مع القاصدين وعيل صبر هامبرتوس ، فألقى على مذبح كنيسة آجيا صوفيا مرسوماً بالحرم ضد كيرولاريوس ـ توجد في وثيقة

الحرم هذه عدة اتهامات لا أساس لها ، من بينها اتهام هامبرتوس لليونانيين بأنهم قد حذفوا عبارة « والابن »من دستور الايمان ـ!! . . . وغادر هامبرتوس القسطنطينية دون إبداء أي تفسير لعمله هذا ، وبعودته إلى إيطاليا ، صوّر الحادثة على انها انتصار كبير لكرسي رومية . لم يرفع البابا الحرم. وأدت محاولة التقارب والمصالحة هذه الى تفاقم الوضع .

الحروب الصليبية

على انه بعد السنة الـ ١٠٥٤ ، استمرت علاقات الصداقة بين الشرق والغرب ، إذ لم يشعر كل من قسمي المسيحية في الشرق والغرب بعظم الهوة التي فصلت بينهما . وظَنّ الكثيرون ، من هذا الجانب أو ذاك ، بأنه سيتم تذليل سوء التفاهم بدون صعوبات كثيرة . وظلت غالبية المسيحيين ، من عامة الناس ، خارج النزاع ، ولم تعرف عنه الشيء الكثير . وكان ان حصلت الحروب الصليبية وتسببت في جعل الانشقاق نهائياً . لقد أدخلت روحاً من الكراهية والمرارة ، ونقلت النزاع بمجمله إلى مستوى الشعب .

من الناحية العسكرية ، بدأت الحروب الصليبية بكثير من النجاح . فقد انتُزعت إنطاكية من أيدي الأتراك السنة الـ ١٠٩٨ ، وكذلك القدس السنة الـ ١٠٩٩ . وكان الانتصار باهراً ، على دمويّته[١] . وسواء في إنطاكية أو في القدس ، نصَّب الصليبيون بطاركة لاتين . وكان الكرسي الأورشليمي شاغراً آنذاك ، فرضي في البدء الشعب الفلسطيني ، اليوناني منه واللاتيني ، بالبطريرك الجديد .

(١) ـ كتب ريمون دار جيل : « في الهيكل وعند بوابة سليمان ، كان الرجال غارقين في الدم حتى أرجلهم بل حتى الجمة خيولهم . . . والمدينة ملأى بالموتى والدم » .
راجع :
A.C. Krey: The First Crusade, Princeton, 1921, P. 261.

وروى الأرشمندريت دانيال ، رئيس دير تشرنيغوف الروسي ، الذي قدم الى القدس للحجّ بين ١١٠٦ و ١١٠٧ ، أن كلا من اليونانيين واللاتين كانوا يصلّون معاً باتفاق في الأماكن المقدسة . ولكنه يشير بنوع من الارتياح الى ان مصابيح اليونان أضيئت بصورة عجائبية أثناء خدمة « سبت النور » ، واضطر اللاتين لاضاءة مصابيحهم منها !! ولكن تجدر هنا أيضاً الملاحظة ان تنصيب البطريرك اللاتيني على أورشليم قد أدى إلى جعل بطاركة أورشليم اليونانيين بعد ذلك لعدد من السنوات ، يعيشون في المنفى في جزيرة قبرص .

أما في إنطاكية فكان البطريرك الأصيل اليوناني موجوداً ، فجاء تنصيب البطريرك اللاتيني كمنافس مباشر له . وهكذا وقع انشقاق في إنطاكية منذ السنة الـ ١١٠٠ ، وانقسم الشعب بين بطريركين وارتفع عرش في وجه عرش آخر ، ومذبح مقابل مذبح .

وبعد ١١٨٧ ، حين استولى صلاح الدين على القدس ، أصبح الوضع في الأراضي المقدسة كما هو في إنطاكية : بطريركان مقيمان في فلسطين ومتقاسمان للشعب المسيحي ، البطريرك اللاتيني في عكا والبطريرك اليوناني في القدس .

وقد أدّت هذه الانشقاقات المحلية في إنطاكية وأورشليم إلى تطورات وخيمة . فطالما كان النزاع محصوراً بين القسطنطينية ورومية ، لم يؤثر عملياً على حياة المسيحي العادي في سوريا وفلسطين ، إذ كانت رومية بعيدة كل البعد عن بلاده . ولكن ما ان بدأ اسقفان اثنان بالتنازع على كرسي واحد ، وما ان وُجدت في المدينة الواحدة طائفتان متخاصمتان حتى أصبح الانشقاق حقيقة ملموسة بالنسبة لأبسط المؤمنين .

وقد حصلت امور اخرى اكثر بشاعة السنة الـ ١٢٠٤ ، عند

الاستيلاء على القسطنطينية خلال الحملة الصليبية الرابعة . كان الصليبيون في الأصل متجهين نحو مصر ، لكنهم اتبعوا نصيحة الكسيوس بن اسحاق انجلوس امبراطور بيزنطية المخلوع ، وقصدوا القسطنطينية من أجل اعادته إلى العرش مع أبيه . لم يوفّق هذا التدخل الغربي في شؤون السياسة البيزنطية . وفي نهاية الأمر ، ضاق الصليبيون ذرعاً بما أسموه خداع اليونانيين وعملوا في المدينة السلب . ولم يكن الشرق المسيحي لينسى قط أيام السلب الثلاثة الرهيبة هذه . قال نيسيتاس كونياتس محتجاً على هذه الأحداث : « حتى البربر رحيمون وطيّبون إذا ما قدوا بهؤلاء الرجال الحاملين صليب المسيح على أكتافهم » . وان أكثر ما أثار مشاعر اليونانيين انتهاك الصليبيين للمقدسات على نطاق كامل ومنحل . فكيف يمكن لأناس كرسوا أنفسهم لخدمة الله أن يفعلوا ما فعلوه بالأشياء المتعلقة بالله ؟ حين رأى البيزنطيون كيف ان الصليبيين يهدمون المذبح ويحطمون الايقونسطاس ويُجلسون العاهرات حتى على العرش البطريركي[1] في كنيسة آجيا صوفيا، كانوا مرغمين على الاعتقد بأن هؤلاء الذين يرتكبون افعالاً كهذه ليسوا مسيحيين بالمعنى الذي هم فيه مسيحيون. «مدينة القسطنطينية ،الكافرة طويلاً»، هكذا كان الصليبيون الفرنسيون من مدينة انجيه ينشدون ، عندما عادوا إلى بلادهم ببقايا القديسين والذخائر التي سلبوها. فهل لنا ان نعجب إذا اعتبر اليونانيون بعد العام الـ ١٢٠٤ اللاتين «كفاراً»؟ لم يُدرك المسيحيون الغربيون حتى الآن مدى القرف والذعر والاشمئزاز الذي خلّفه عند الأرثوذكسيين نهب القسطنطينية على يد الصليبيين.

(١) ـ ويقول البعض على المذبح نفسه . وقد أوحى هذا العمل ملحديّ الثورة الفرنسية .

« لم يأت الصليبيون بالسلام ، بل اتوا بالسيف . وهذا السيف مزّق العالم المسيحي » [1] . فزاد العدوان الغربي وانتهاكه للمقدسات ، من حدة الخلافات العقائدية القديمة ، إذ ولّد عند اليونانيين شعوراً قوياً من الكراهية والحقد والسخط . لذلك لم يعد ثمة أدنى شك بعد السنة الـ ١٢٠٤ ان الانقسام بين الشرق والغرب المسيحيين قد تم فعلياً .

العوامل اللاهوتية للانشقاق

يشدد بحق الكتّاب المعاصرون ، حين يستعيدون تاريخ الانشقاق ، على أهمية العوامل غير اللاهوتية ، ولكن ينبغي ألا نغفل المسائل العقا الأساسية التي كان لها دورها هي الأخرى . ومع أخذ الصعوبات الثقافية والسياسية بعين الاعتبار ، يبقى في النهاية أن الخلافات العقائدية ـ أي قضية انبثاق الروح القدس وقضية المزاعم البابوية في السلطة ـ هي التي سبّبت الانشقاق بين رومية والكنيسة الأرثوذكسية . وهذه الخلافات بالذات هي التي تحول دون مصالحتهما اليوم . وكان الانشقاق ، في هذا الجانب وذاك عبارة عن « التزام روحي واتخاذ موقف واع في شأن ايماني » [2] .

في نواحي العقيدة هذه ، ترى الأرثوذكسية كما ترى رومية ان الحق الى جانبها ، وتعتبر كل منهما منذ الانشقاق انها هي الكنيسة الحقيقية . ولكن من واجب كل منهما ، مع اقتناعها بصحة موقفها ، ان تنظر إلى الماضي بحسرة وندامة . وعليهما ان تعترفا معاً بأنه كان بامكانهما ، وانه كان عليهما بذل المزيد من أجل تلافي الانشقاق . وعلى

(١) ـ رانسيمان ، « الانشقاق الشرقي » ، ص ١٠١ .
(٢) ـ لوسكي ، « مدخل إلى اللاهوت الصوفي للكنيسة الأرثوذكسية » ، ص ١٣ .

كل منهما الاقرار انه وقعت أخطاء على الصعيد الانساني من الجانبين. فيجب على الأرثوذكسيين مثلا ان ينحوا بالائمة على أنفسهم نظراً لما أبدوه من تكبر واحتقار تجاه الغرب ابان الفترة البيزنطية . كذلك عليهم ان يتذكروا بالتوبة احداثا كاللاضطرابات التي وقعت السنة الـ ١١٨٢ حين أقدمت الجماهير البيزنطية على إبادة عدد من اللاتين من سكان القسطنطينية ، علماً بأنه ليس ثمة مجال للمقارنة بين ما أقدم عليه الجانب البيزنطي على هذا الصعيد مع الأعمال التي رافقت نهب القسطنطينية ، العام الـ ١٢٠٤ . وعلى كل من الكنيستين الاعتراف ، مع اقتناعها بأنها الكنيسة الحقيقية ، ان الانشقاق قد أفقرها الكثير من إمكانياتها على الصعيد الانساني . فالشرق اليوناني والغرب اللاتيني كانا ولا يزالان يحتاج واحدهما للآخر ، وكان الانشقاق الكبير مأساة بالنسبة اليهما معاً .

العام الـ ١٢٠٤ أنشأ الصليبيون في القسطنطينية مملكة لاتينية سقطت السنة الـ ١٢٦١ عندما استعاد اليونانيون عاصمتهم . وقد حافظت بيزنطية على بقائها بعد ذلك طيلة قرنين عرفت خلالهما نهضة كبيرة على الصعيد الثقافي والفني والديني . أما من الناحية السياسية والاقتصادية ، فكان وضع الامبراطورية يزداد ضعفاً ، وكانت الجيوش التركية تضغط عليها باستمرار من الشرق . فمن الأكيد ان الحملة الصليبية الرابعة كانت قد حملت الى الامبرطورية ضربة أدّت في النهاية إلى انهيارها .

مجمع ليون (١٢٧٤)

جرت محاولتان مهمتان لاعادة الوحدة بين مسيحيي الشرق والغرب، أولاهما خلال القرن الثالث عشر، والثانية في القرن الخامس عشر. كان وراء المبادرة الأولى الأمبراطور ميخائيل الثامن (فترة جلوسه من ١٢٥٩ الى ١٢٨٢) وهو الذي استعاد القسطنطينية. ومع صدق رغبته في رأب صدع الانشقاق لأسباب دينية، كانت له أيضاً دوافع سياسية . كان بأشد الحاجة للحصول على مساعدة الغرب ضد الأتراك، وكان يأمل بأن تحقق له الوحدة الكنسية ما يحتاجه من عون. وعُقد السنة الـ ١٢٧٤ في ليون مجمع وافق فيه الأرثوذكسيون الحاضرون على الاعتراف بسلطة البابا وبالعقيدة الرومانية المتعلقة بانبثاق الروح القدس. لكن الاتفاق ظل حبراً على ورق ، حيث رُفض بشدة من قبل غالبية ساحقة من الشعب المؤمن باكليروسه وعلمانييه، ليس فقط في الكنيسة البيزنطية بل أيضاً في بلغاريا وباقي البلاد الأرثوذكسية. ويمكن تلخيص ردة الفعل العامة التي أحدثها مجمع ليون عبر كلام نُسب الى شقيقة الامبراطور: «الأفضل ان تنهار امبراطورية أخي على ان تمُس نقاوة الايمان الأرثوذكسي» . وقد دُحض رسمياً اتفاق ليون من قبل خليفة ميخائيل، وحُرم ميخائيل من الجنازة المسيحية لاعتباره جاحداً.

قضية الهادئين(Hésychastes)

خلال هذا الوقت كان الشرق والغرب يتباعدان أكثر فأكثر في مجال اللاهوت ومفهوم الحياة المسيحية . وظلت بيزنطية تعيش في جو ابائي ، أمينة للغة وفكر اباء القرن الرابع اليونانيين ، بينما حلّت الفلسفة الكلامية ـ ذاك المزيج الكبير من الفلسفة واللاهوت الذي نشأ في القرنين

الثاني عشر والثالث عشر ـ محل تقليد الآباء في غربي أوروبا . وبدأ اللاهوتيون الغربيون باستخدام نماذج جديدة في التفكير ، فضلا عن مناهج لاهوتية وتعابير جديدة لم يكن الشرق ليفهمها . وبهذا أخذ يتقلص أكثر فأكثر ما بقي للطرفين من مفهوم مشترك ونقاط التقاء .

وقد ساهمت بيزنطية أيضاً في هذا التباعد باستنباط شروحات لاهوتية لم يشترك فيها الغرب ، علماً بأنها لم تكن كالثورة الكلامية من حيث جذريتها . وتتصل هذه الشروحات بالجدل الذي قام في بيزنطية في منتصف القرن الرابع عشر الذي عُرف بالقضية « الهادئية » ، والذي يدور حول العقيدة الخاصة بطبيعة الله ومناهج الصلاة المتبعة في الكنيسة الأرثوذكسية .

ولفهم هذا الجدال ، ينبغي لنا الرجوع الى بداية تاريخ اللاهوت الصوفي (Mystique) الشرقي . وقد وضع الخطوط الكبرى لهذا اللاهوت إقليموس الاسكندري (المتوفي السنة الـ ٢١٥) وأوريجانس (المتوفي السنة الـ ٢٥٣ أو الـ ٢٥٤) . ثم استعاد أفكارهما وطبّقها في القرن الرابع الآباء الكبادوكيون ، وخاصة القديس غريغوريوس النيصصي وآباء الصحراء المصريين ومنهم ايفاغريوس البنطي (المتوفي ٣٩٩) .ويمكننا أن نميّز في هذا اللاهوت اتجاهين يبدوان للوهلة الأولى غير متماسكين وان كانا لا يتعارضان : طريق النفي وطريق الاتحاد[١] . طريق النفي ويدعى أيضاً اللاهوت التنزيهي يتحدث عن الله بتعابير سلبية . فالعقل البشري لا يستطيع ان يستوعب الله ، ولغة البشر هي دائما ناقصة في ما يتعلق بتحديده . لذلك فان الكلام السلبي عن الله يقود لنسبة أدنى من الخطأ لما هو الحال بالنسبة للكلام الايجابي . فنستنكف عن القول من هو الله لنقول ما ليس هو الله . وكما كتب

(١) راجع : الرؤية الأرثوذكسية لله والانسان ، جورج خضر ، منشورات النور (الناشر) .

غريغوريوس النيصصي : « معرفة الله الحقة ورؤية الله هي في ان نرى انه لا يُرى ، ذاك لأن ما نسعى إليه إنما يتعدى حدود معرفتنا ، ومحجوب عنا وراء ظلام غير المدرك »[1] .

وقد عرف اللاهوت التنزيهي تعبيره الأكثر كلاسيكية في كتابات ديونيسيوس . نُسبت هذه الآثار لوقت طويل الى القديس ديونيسيوس الأريوباغي الذي تنصّر في أثينا على يد بولس الرسول (أعمال ١٧ : ٣٤) . والواقع انها آثار كاتب مجهول، من المحتمل انه عاش نحو نهاية القرن الخامس في أوساط متعاطفة مع اتباع عقيدة « الطبيعة الواحدة » . وقد علّق القديس مكسيموس المعترف (المتوفي ٦٦٢) على الآثار الديونيسية مكرّساً لها مكانة راسخة في اللاهوت الأرثوذكسي . كذلك أحدث ديونيسيوس تأثيراً قوياً في الغرب ، فقد ذكره توما الأكويني في خلاصته اللاهوتية ١٧٦٠ مرة ، كما كتب أحد المؤرخين الانكليز من القرن الرابع عشر ان اللاهوت الصوفي لديونيسيوس « يجوب أرجاء انكلترا كالايل » . واستعمل لغة ديونيسيوس التنزيهية العديد من الآباء . « الله غير متناه وغير مدرك » على حد قول القديس يوحنا الدمشقي ، و « جل ما يمكننا ان نُدرك عنه انه غير متناه وغير مدرك . . . ولا ينتمي الله إلى درجة الموجودات ، لا لأنه ليس له وجود ، بل لأنه فوق جميع الموجودات وفائق الوجود نفسه » .[2]

هذا التأكيد على تسامي الله يبدو لأول وهلة وكأنه ينفي إمكانية كل اختبار مباشر لله . لكن في الواقع ، ان الكثيرين ممن لجأوا للاهوت التنزيهي ، ومنهم غريغوريوس النيصصي وديونيسيوس ومكسيموس المعترف ، كانوا يؤمنون أيضاً بامكانية اتحاد صوفي حقيقي مع الله . ويكونون بذلك قد مزجوا بين « طريق النفي » و « طريق الاتحاد » ، أي

١ ـ « حياة موسى » ، ٢ ، ١٦٣ . قارن هذا النص مع ما قاله ايفاغريوس : « طوبى لمن وصل إلى الجهل اللامتناهي » (الفصول المئة الغنوصية ٣ , ٨٨) .

٢ ـ « في الايمان الأرثوذكسي » ، ١ ، ٤ .

مع تقليد « الهادئين » أو « الازيقيين »[1] . ومع استخدامهم للّغة النابعة من اللاهوت التنزيهي ، كانوا يتكلمون عن إمكانية حصول خبرة مباشرة للاله غير المدرك، واتحاد شخصي مع هذا الذي لا يُدنى منه . فكيف يمكن التوفيق بين هذين الطريقين؟ وكيف يكون الله في آن مدركاً وغير مدرك؟

تلك مسألة من بين المسائل التي كانت قد طُرحت بحدة في القرن الرابع عشر، ونتج منها طرح كل قضية الجسد ومشاركته في الصلاة. ايفاغريوس، على غرار أوريجانس، بالغ أحياناً في استعارته من الأفلاطونية . لقد كتب عن الصلاة بعبارات عقلانية ، كأنها نشاط للذهن أكثر مما هي نشاط للانسان كله جسداً وروحاً. ويبدو كذلك انه لا يعطي الجسد الانساني دوراً إيجابيا في عملية الفداء والتأليه . واعادت كتابات نسكية أخرى، هي ما يسمى «بالمواعظ المكاريوسية»، التوازن بين الذهن والجسد . كان التقليد ينسب هذه المواعظ للقديس مكاريوس المصري (٣٠٠ ـ ٣٩٠)، لكنها تُعتبر اليوم من تأليف كاتب مجهول في النصف الأول من القرن الخامس . وتنظر هذه المواعظ إلى الانسان نظرة أقرب إلى المفهوم الكتابي له، انه ليس روحاً سجينة في جسد ـ كما في الفكر اليوناني ـ بل روح وجسد معاً في كائن حي واحد وموحّد . وفي حين يتكلم ايفاغريوس عن «الذهن» يستخدم مكاريوس فكرة «القلب» العبرانية . فنرى إذاً ان التغيير في التشديد واضح ، لأن «القلب» يشمل الانسان كله بما فيه العقل والارادة والانفعالات وحتى الجسد .

وكثيراً ما يتكلم الأرثوذكسيون عن « صلاة القلب » مستعملين كلمة « القلب » بالمعنى الذي كان يقصده مكاريوس . فماذا تعني هذه

(١) ـ وكلمة « إزيقي » مشتقة من تعبير Hesychia اليوناني الذي يعني « السكون » . فيكون « الازيقي » « إنساناً نذر نفسه بصمت للتأمل والصلاة الداخلية .

العبارة ؟ حين يباشر الانسان بالصلاة ، فهو يبدأ بشفتيه أولا ، ويبذل جهداً عقلياً واعياً ليفهم معنى ما يقوله . لكنه إذا ثابر ، وصلى باستمرار مع التأمل ، فلا بدّ لعقله وقلبه ان يتحدا . هكذا « يعثر على مكان القلب » ، وتكتسب روحه القدرة على « الاستقرار في القلب » ، فتصبح صلاته بالتالي « صلاة القلب » . فليس هي بعد الآن كلاماً صادراً عن الشفاه أو فكراً يؤديه العقل ، بل تصبح صلاة عفوية يقدمها الانسان بكليته ، شفاهاً وعقلا وانفعالا وارادة وجسداً . وتملأ الصلاة الانسان كله ، ولا تعود ثمة حاجة « لدفعها » بل هي تنطلق كما بقوة ذاتية . فصلاة القلب هذه لا يمكن الوصول اليها بمحض بذل جهودنا ، بل هي عطاء ونعمة من الله .

وعندما يستخدم المؤلفون الأرثوذكسيون عبارة « صلاة القلب » يعنون على العموم صلاة خاصة هي صلاة يسوع [١] . ديادوكس الفوتيكي (منتصف القرن الخامس) والقديس يوحنا السلمي [٢] نحو ٥٧٩ ـ ٦٤٩) من بين الكتّاب الروحيين اليونانيين الذين أوصوا بالترداد المستديم لاسم يسوع أو بالذكر الدائم له كشكل من أنجع أشكال الصلاة . وبمرور الزمن تبلّور ذكر الاسم هذا في جملة قصيرة معروفة باسم «صلاة يسوع» «أيها الرب يسوع المسيح ، ابن الله ، ارحمني» [٣] .

وقد اقترنت تلاوة صلاة يسوع في القرن الثاني عشر ، وربما قبل ذلك الوقت ، ببعض الحركات الجسدية المساعدة على التركيز ، كمثل مطابقة

---

(١) راجع كتاب « سائح روسي على دروب الرب » ، ترجمة ا . جورجي ، منشورات النور (الناشر) .

(٢) راجع كتاب « السلم إلى الله » ، ترجمة دير مار جرجس الحرف ، منشورات النور (الناشر).

(٣) في أيامنا هذه غالبا ما تختتم الصلاة بعبارة « ارحمني أنا الخاطىء » . قارنها بصلاة العشّار (لوقا ١٨ : ١٣) .

حركة التنفس لتلاوة الصلاة والجلوس على شكل معيّن ، الرأس منحنٍ إلى الأمام ، والذقن متكئة على الصدر والعيان شاخصتان الى موقع القلب[1]. هذا ما يُدعى غالباً «بطريقة الصلاة الازيقية». ولكن لا ينبغي الاعتقاد بأن الحركات الجسدية تكوّن جوهر الصلاة بالنسبة «للهادئين». فلم تكن تُعتبر هذه الطرق غايات بحد ذاتها ولكن وسائل لبلوغ مرحلة التأمل. فهي حركات تساعد البعض ولكنها ليست إلزامية للجميع. كان «الهادئون» يدركون بأن ليس ثمة وسيلة آلية للحصول على نعمة الله وليس ثمة تقنية تقود تلقائياً إلى الحالة الصوفية.

وقمة الخبرة الصوفية في نظر«الهادئين» البيزنطيين تكمن في رؤية النور الالهي غير المخلوق. وكتابات القديس سمعان اللاهوتي الجديد (٩٤٩-١٠٢٢)، كبير المتصوفين البيزنطيين ملأى « بروحانية النور » هذه. فحينما يكتب عن تجاربه الشخصية ، نراه يتحدث دائما عن النور الالهي ويقارنه « بنار إلهية حقاً » ، و بـ« نار غير مخلوقة وغير منظورة، لا بداية لها وغير مادية » . وكان « الهادئون » على يقين ان ذاك النور الذي اختبروه هو نفسه النور غير المخلوق الذي شاهده التلاميذ الثلاثة يشّع من يسوع في يوم التجليّ على جبل ثابور. ولكن كيف يمكن توفيق هذه الرؤية للنور الالهي مع المذهب التنزيهي القائل بإله متسام لا يُدنى منه ؟

جميع هذه التساؤلات المتعلقة بتسامي الله ودور الجسد في الصلاة والنور الالهي ظهرت على سطح الأحداث نحو منتصف القرن الرابع عشر. وتعرّض « الهادئون » آنئذ لهجوم عنيف من قبل فقيه يوناني من إيطاليا هو برلاعام الكلابري ، الذي عرض بشكل متطرف عقيدة الله

---

(١) -أيمكن إجراء مقارنات هامة بين الطريقة « الازيقية » ويوغا الهنود وحلقات الذكر عند المسلمين ، ولكن نبغي الا نذهب بعيداً جداً مع هذه المقارنات .

غير المدرك «والكليّ الآخريّة» عن كل المخلوقات. ومع ان برلاعام كان معجباً بالآباء اليونانيين وخاصة ديونيسيوس الأريوباغي ، أتت وجهة نظره هذه شديدة الشبه بالفلسفة الاسمية التي كانت شائعة في الغرب آنذاك . وانطلاقاً من تفسير متميّز لديونيسيوس ، زعم بأن الله لا يمكن إدراكه الا بصورة غير مباشرة . وكان يقول ان « الهادئين » يخطئون عندما يتحدثون عن خبرة مباشرة مع الله ، لأن خبرة كهذه انما هي مستحيلة . وسخر من التمارين الجسدية التي استخدمها « الهادئون » واتهم مفهومهم للصلاة بأنه مادي غليظ. كذلك كان ادعاؤهم القدرة على رؤية النور الالهي غير المخلوق يسبب له العثار. وكونه لم يستطع ان يفهم كيف يمكن للانسان بعينيه البشريتين ان يبصر جوهر الله ، زعم بأن النور الذي تحدث عنه «الهادئون» ليس بنور الألوهية الأزلي ، بل هو نور مخلوق وزمني » .

وتولى الدفاع عن الهادئين القديس غريغوريوس بالاماس(١٢٩٦ - ١٣٥٩) ، رئيس أساقفة تيسالونيكيا ، وكانت نظرته الى الانسان تبيح اشتراك الجسد في الصلاة . وقد حاجّ برلاعام بأن « الهادئين » قد عرفوا حقاً نور جبل ثابور الالهي غير المخلوق . ولكي يشرح امكانية هذه الخبرة أوضح انه يوجد فارق بين جوهر الله و « أفعاله » (Energies). وبتوضيحه هذا ارسى غريغوريوس التقليد « الازيقي » على أسس عقائدية راسخة ، مدخلا إياه في صلب اللاهوت الأرثوذكسي ، ومبيّناً ان رؤية « الهادئين » للنور الالهي لا تقلل في شيء من قيمة اللاهوت التنزيهي فيما يتعلق بالله . وقد أيد تعاليمه هذه المجمعان المنعقدان في القسطنطينية السنة الـ ١٣٤١ والسنة الـ ١٣٥١ . ومع ان هذين المجمعين لم يكونا مسكونيين ، لهما في اللاهوت الأرثوذكسي من الأهمية والسلطة ما يضعهما بمركز يكاد يضاهي مركز المجامع المسكونية السبعة نفسها . ولكن المسيحية الغربية

لم تعترف قط بهذين المجمعين ولا بلاهوت بالاماس الذي ارتكزا عليه .

بدأ غريغوريوس بالتأكيد على عقيدة الكتاب المقدس في الإنسان والتجسّد . الإنسان كلّ ، هو ليس روحاً فقط بل كلّ تام ، خُلق على صورة الله [1]. وجسد الإنسان ليس عدوّ روحه ، بل شريك له ومعاون . والمسيح إذ اتخذ جسد إنسان عند تجسده ، إنما جعل من الجسد معيناً لا ينضب للقداسة.[2] ويشرح غريغوريوس هنا أفكاراً ضمنية أوردها كتّاب من أسلافه، أمثال كاتب عظات مكاريوس. وكما رأينا سابقاً، هذا التأكيد على أهمية الجسد الإنساني يكمن وراء العقيدة الأرثوذكسية المتعلقة بالأيقونات. وقد طبّق القديس غريغوريوس هذه العقيدة عن الإنسان على طرق «الهادئين» في الصلاة: فـ «الهادئون» حين يولون أهمية لدور الجسد خلال الصلاة، لا يمكن وصمهم بالمادية، إذ أنهم يظلون أوفياء لنظرة الكتاب المقدس في تكامل الإنسان. والمسيح حين أخذ جسداً إنسانيا خلّص الإنسان كلّه، فالإنسان كلّه إذاً، جسداً وروحاً، هو من يرفع صلاته نحو الله.

إنطلاقاً من هذه النظرة، اتجه غريغوريوس نحو جوهر الموضوع وهو حلّ عقدة هذا اليقين المتناقض : الإنسان يعرف الله الذي هو بطبيعته لا يدرك . يرى غريغوريوس أننا نعرف الأفعال الإلهية وليس جوهر الله . ويعود التمايز بين جوهر الله وأفعاله إلى زمن الآباء الكبادوقيين « نعرف إلهنا من خلال أفعاله » على حد قول القديس باسيليوس الكبير ، « ولكن لا ندّعي الاقتراب من جوهره ، لأن أفعال الله تنحدر إلينا ، لكنّ جوهره لا سبيل إلى بلوغه».[3] قبل غريغوريوس

---

١ ـ P . G . cl , 1361c

٢ ـ عظة رقم ١٦

٣ ـ رسالة ٢٣٤ ، ١

هذا التمايز ، وأكد بكلام واضح على غرار جميع من اتبع اللاهوت التنزيهي ، أن الله في جوهره لا يمكن إدراكه مطلقاً . « الله ليس طبيعة لأنه فوق كل طبيعة . . . وليس هو كائناً ، لأنه فوق كل الكائنات. . . وما من شيء مخلوق له أو سيكون له أدنى شركة مع الطبيعة الأسمى ، ولا يستطيع أبداً أن يقاربها »[1] . ولكن مهما كان الله بعيداً عنّا في جوهره ، فإنه يعلن ذاته للإنسان من خلال أفعاله . وهذه الافعال ليست موجودة خارجاً عنه ، وليست هي هبة يمنحها الله للإنسان ، بل هي الله نفسه في عمله وإعلانه للعالم . والله موجود بشكل وافٍ وكامل في كلٍّ من الأفعال الألهية . وكما يقول الشاعر الإنكليزي جيرار-مانلي هوبكنز : إن العالم مليء بعظمة الله والخليقة علّيقة كبيرة مشبعة لكنها غير محترقة بنار أفعال الله الرائعة التي تفوق الوصف .

وبهذه الأفعال ينشيء الله علاقة مباشرة مع الإنسانية ، وما هذه الأفعال الإلهية بالنسبة للإنسان سوى نعمة الله .والنعمة ليست« هبة » من الله ، وليست بالشيء الذي يعطيه الله للإنسان ، بل هي ظهور مباشر للإله الحيّ ، والمجابهة الشخصية بين الخالق وخليقته . « تعني النعمة كلّ ما في الطبيعة الإلهية من غنى من حيث هي تتصل بالبشر »[2]. حينما نتحدث عن قدّيسين تحوّلوا أو تألّهوا بنعمة الله ، نعني أنهم قاموا بتجربة شخصية مع الله نفسه. وانهم يعرفون الله ، أي يعرفونه في «أفعاله» وليس في جوهره .

الله نور ، لهذا فإن خبرة الأفعال الإلهية تتخذ شكل النور . يقول القديس غريغوريوس بالاماس ، أن رؤية «الهادئين» ليست رؤية لنوع من النور المخلوق، بل لنور الألوهة نفسه، نفس النور الذي لفّ

١ - P . G . cl , 1176c

٢ - لوسكي ، الكتاب المذكور ، ص ١٦٢ .

المسيح فوق قمة ثابور، وهذا النور ليس حسّياً مادياً ، ولكن يمكن لعيون البشر أن تراه (كما حصل بالنسبة للتلامذة في يوم التجلّي) لأن القدرات الجسدية الخاصة بإنسان متأله تتحوّل في نفس الوقت مع روحه. ورؤية «الهادئين» للنور إذاً رؤية حقيقية لله في أفعاله الإلهية، ولهم ملء الحق بالقول انه نور الثابور غير المخلوق.

وهكذا نرى بالاماس يحافظ على تسامي الله ويتجنب الحلولية التي قد تؤدي إليها الصوفية المتهوّرة لكنه يأخذ في الاعتبار ملازمة الله وحضوره المستمرّ في العالم . الله هو « الآخر كلياً » لكنه عبر أفعاله (التي هي هو أيضاً) يقيم اتصالاً مع العالم . والله إله حيّ ، إله التاريخ والكتاب المقدس ، ذاك الذي تجسد في المسيح. وبرلعام، بدحضه كلّ معرفة مباشرة لله وتأكيده على أن النور الإلهي شيء مخلوق، حفر هوة سحيقة بين الله والإنسان. وكان همّ غريغوريوس الأساسي في معارضته لأفكار برلعام هو نفسه الذي شغل اثناثيوس والمجامع العامة، أي المحافظة على علاقة الإنسان المباشرة بالله والتأكيد على إمكانية تألهه الكامل وخلاصه التام. فعقيدة الخلاص هذه التي سبق أن كانت كامنةً في المنازعات المتعلقة بالثالوث، وبشخص المسيح والأيقونات المقدسة، هي التي نعثر عليها في الجدال الذي قام حول «الهادئين».

كتب دوم غريغوار ديكس[1] يقول :« في عالم بيزنطية المغلق ما من دفع جديد أعطي منذ القرن السادس . . . وبدأ عصر النوم . . .نحو القرن التاسع ، ولعلّه قبل ذلك منذ القرن السادس»[2] : إن المنازعات البيزنطية في القرن الرابع عشر تكذيب صارخ لرأي كهذا . من الأكيد أن غريغوريوس بالاماس لم يكن مجدّداً ثورياً ، بل كان متمسكاً بالتقاليد كل التمسك ، لكنه مع ذلك لاهوتي خلاّق من الطراز الأوّل

١ - وهو راهب ولاهوتي كاثوليكي معاصر (الناشر).
٢ - « شكل الليتورجيا » ١٩٤٥ ، ص ٥٤٨.

وقد برهن بإنتاجه على أن اللاهوت الأرثوذكسي حافظ على حيويته ، حتى بعد القرن الثامن والمجامع المسكونية السبعة .

وأهم وأشهر تلميذ لبالاماس ، نيقولاوس كباسيلاس (التواريخ مجهولة ، فشطر من ١٣٤٥ إلى ١٣٦٥) ، وهو رجل علماني من البلاط ودبلوماسي ولاهوتي في نفس الوقت . وقد وضع كتاب « شرح القداس الإلهي »، وهو احد المراجع الأرثوذكسية الكلاسيكية في هذا الموضوع . كما وضع مؤلفاً عن الأسرار المقدسة بعنوان « الحياة في المسيح»[1] . وتتميز كتاباته بحسّ حاد لشخص • المسيح « المخلّص » الذي هو كما يقول « أقرب إلينا من أنفسنا »، وبالأهمية القصوى التي يوليها للأسرار الإلهية . والحياة الصوفية بالنسبة لكباسيلاس في جوهرها حياة في الأسرار المقدسة وحياة في المسيح . ومن أخطار الحياة الصوفية أن تؤدي إلى مواقف فردية ونظرية منفصلة عن الإعلان الإلهي الذي جاء به المسيح وعن حياة الكنيسة الجماعية المكوّنة بالأسرار. أما روحانية كباسيلاس فمتمحورة حول المسيح والأسرار وحياة الكنيسة . وتدلّ كتبه على الصلة العميقة الموجودة في التقليد «الازيقي» بين الصوفية والحياة في الأسرار المقدسة اذ لم ينظر بالاماس وأتباعه أبداً إلى الصلاة الصوفية كوسيلة تغني عن الاشتراك في حياة الكنيسة العادية .

مجمع فلورنسة

وجاء مجمع فلورنسة (١٤٣٨ ـ ١٤٣٩) كمحاولة أخرى للاتحاد. حضر المجمع الإمبراطور يوحنا الثامن (فترة حكمه من ١٤٢٥ حتى ١٤٤٨) وبطريرك القسطنطينية، إلى جانب عدد كبير من ممثلي الكنيسة البيزنطية والكنائس الأرثوذكسية الأخرى. وجرت مناقشات طويلة

١ ـ راجع ترجمة عربية له للبطريرك الراحل الياس الرابع ، منشورات النور (الناشر) .

وبُذل من هذا الجانب وذاك جهد فعلي في سبيل الوصول لاتفاق مرضٍ. لكنه كان يصعب على اليونانيين الذين كانوا في وضع سياسي ميؤوس منه، أن يناقشوا الأمور اللاهوتية بدون هوى، إذ كان أملهم الوحيد في قهر الأتراك ما انتظروه من مساعدة تأتي من الغرب. وتمّ التوصل في النهاية لصيغة اتفاق شملت القضايا المتنازع عليها أي قضية الانبثاق، والمطهر، والخبز الفطير، والمزاعم البابويّة. ووقّعها جميع الأرثوذكسيين الحاضرين، ما عدا مرقس رئيس أساقفة أفسس الذي تم إعلان قداسته فيما بعد في الكنيسة الأرثوذكسية. كان اتحاد فلورنسة يرتكز على مبدأي الاجماع في مجال العقيدة واحترام الطقوس والتقاليد الخاصة بكل كنيسة. وهكذا فإن الأرثوذكسيين على صعيد العقيدة وافقوا على المزاعم البابوية (مع أن تحرير الصياغة ظلّت مبهمة يشوبها الالتباس)، كما قبلوا بزيادة عبارة «والابن» على الدستور وبالتعاليم الرومانية حول المطهر وهو النزاع الذي ظهر بين الشرق والغرب حوالي القرن الثالث عشر، على أنه لم يتم اتفاق بشأن الخبز الفطير وظل بوسع اليونانيين استخدام الخبز بالخميرة في حين ظل اللاتين يستخدمون خبزاً بدون خميرة.

وعلى الرغم من أن اتحاد فلورنسة قد قوبل بالترحاب في كل أوروبا الغربية، لم يكن حظه من التطبيق في الشرق أقوى من حظ اتحاد ليون. ومع أن يوحنا الثامن وخليفته قسطنطين التاسع آخر إمبراطور على بيزنطية. ظلاّ مخلصين للاتحاد، فإنهما لم يتمكنا من إقناع أتباعهما بالأمر. حتى أنهما لم يتجاسرا على إعلان هذا الاتحاد في القسطنطينية قبل السنة الـ ١٤٥٢. وتراجع العديد من الموقّعين فور عودتهم، ولم يبقَ سوى قلّة ضئيلة من الشعب والإكليروس البيزنطيين ممّن قبلوا بقرارات المجمع. وتجاوباً مع صدى أقوال شقيقة الإمبراطور بعد مجمع ليون، كان كبير الدوقة لوقاس نوتاراس يقول: «لأحب إلينا أن نرى العمامة التركية في المدينة وليس التاج الأسقفي اللاّتيني».

كان يوحنا وقسطنطين يأملان بأن يؤمّن لهما اتحاد فلورنسة مساعدة عسكرية هامة من الغرب ، لكنّ ما حصلا عليه كان ضئيلاً للغاية . وفي ٧ نيسان ١٤٥٣ هاجم الأتراك القسطنطينية بحراً وبراً . وعلى الرغم من أن القوى المهاجمة كانت أضخم بعشرين مرّة ، فقد دافع البيزنطيون عن المدينة طيلة أسابيع سبعة وبشجاعة يائسة . وفي ٢٩ أيار ، في الصباح الباكر ، أقيمت في كنيسة آجيا صوفيا آخر خدمة مسيحية ، خدمة جمعت الارثوذكسيين والكاثوليك الرومانيين الذين أمام الخطر المداهم نسوا خلافاتهم حول اتحاد فلورنسة ،وتناول الإمبراطور ، ثم خرج ليموت مدافعاً عن الأسوار . وفي اليوم نفسه سقطت المدينة في أيدي الأتراك ، وتحوّلت أعظم كنيسة في المسيحية إلى مسجد .

تلك كانت نهاية الامبراطورية البيزنطية ، لكنها لم تكن نهاية بطريركية القسطنطينية ، لا ولا نهاية الأرثوذكسية .

الفصل الرابع
تنصير السلافيين

«انتشر دين النعمة على الأرض حتى بلغ الشعب الروسي . . . فواهب النعم الذي يعنى بجميع الشعوب، لم يعد يغفلنا الآن ويريد أن يهدينا إلى الحكمة ويؤمّن لنا الخلاص».
هيلاريون ، متروبوليت روسيا (١٠٥١ ـ ١٠٥٤)

كيرلّس وميتوديوس

شهد منتصف القرن التاسع بالنسبة للقسطنطينية فترة من النشاط التبشيري الحاد . فبعد أن تحررت الكنيسة البيزنطية من صراعها الطويل مع محاربي الأيقونات ، تمكّنت من توجيه طاقتها نحو دعوة السلافيين إلى الإيمان ، وهم الذين كانوا يقيمون بمحاذاة الحدود الشمالية والشمالية الغربية للامبراطورية، وأعني بهم الموراڤيين والبلغار والصرب والروس. وكان فوتيوس أول بطريرك على القسطنطينية أعدّ لهذا النشاط التبشيري على نطاق واسع . ومن أجل ذلك وقع اختياره على شقيقين يونانيين من تسالونيكيا: قسطنطين (٨٢٦ ـ ٨٦٩) وميتوديوس (نحو ٨١٥ ـ ٨٨٥) . ويدعى قسطنطين على العموم في الكنيسة الأرثوذكسية كيرلّس، الإسم الذي اتخذه عندما أصبح راهباً. عُرف في مطلع حياته «بقسطنطين الفيلسوف»، وكان من أكثر تلامذة فوتيوس كفاءة. أتقن العديد من اللغات الأجنبية من بينها العبرية والعربية وحتى اللغة

السامرية المحكية. وكان على غرار أخيه يتكلم السلافونية بطلاقة. وكانا قد تعلماها في طفولتهما بواسطة السلافيين الذين كانوا يعملون في ضواحي تيسالونيكيا.

أول رحلة تبشيرية لكيرلس وميتوديوس بدأت نحو السنة الـ ٨٦٠ بزيارة قصيرة إلى الخازار شمالي القفقاس. ولم يكن لهذه الرحلة من نتيجة إيجابية، اذ اعتنق أهل خازار اليهودية بعد ذلك بعدة سنوات. وبدأ نشاط الشقيقين فعلياً العام الـ ٨٦٣، حين قصدا إلى موراڤيا (نفس مكان تشيكوسلوفاكيا اليوم تقريباً). قصدا إليها تلبية لنداء الأمير روستسلاف الذي طلب مبشّرين من ذوي الكفاءة لإلقاء العظات وإحياء الطقوس بلغة البلاد. عمل كهذا كان يتطلب إيجاد ترجمة سلافونية للكتاب المقدس والكتب الطقسية. وكان الشقيقان قد شرعا، قبل سفرهما إلى موراڤيا في ترجمتها ووضعا لهذه الغاية أبجدية خاصة[1] وأنجزا الترجمة باللغة السلافونية التي عرفاها في طفولتهما، أي اللهجة المقدونية الخاصة بسلافيي منطقة تيسالونيكيا. وهكذا أصبحت هذه اللغة المحكية اللغة «السلافونية الكنسية» التي لا تزال حتى اليوم معتمدة في الليتورجيا لدى الروس وبعض الكنائس الأرثوذكسية الأخرى.

١ ـ هناك نوعان من الأبجدية السلافونية: أ) الأبجدية الكيرلسية التي لا يزال استعمالها شائعاً حتى اليوم في الكتابات الليتورجية الروسية وبعض الكنائس السلافية الأخرى وهي مرتكزة على الأبجدية اليونانية.

ب ـ الأبجدية الغلاغولية glagolitique التي لم تعد مستخدمة في الكنيسة الأرثوذكسية، لكن استعمالها ما يزال شائعاً لدى مجموعة صغيرة من الكاثوليك، في كرواتيا وإستريا (حيث يحتفلون بالقداس بالسلافونية القديمة). والأبجدية الغلاغولية أكثر تعقيدا من الأبجدية الكيرلّسية كما أنها ليست مرتكزة على اليونانية بشكل ظاهر.

وتصعب إقامة الصلة المضبوطة بين الأبجديّتين. قديما كانت الأبجدية الكيرلّسية تنسب ـ كما يدل اسمها ـ إلى القديس كيرلس. لكن أغلب الظن اليوم، أن كيرلس هو صاحب الأبجدية الغلاغولية. ومن المحتمل ان تكون الأبجدية الكيرلسية قد أدخلت في وقت لاحق بعد موت كيرلس، وقد يكون ذلك في القرن التاسع.

وليس بإمكاننا أن نبالغ في إعطاء الأهمية في تاريخ الأرثوذكسية للترجمات التي أخذها كيرلّس وميتوديوس معهما حين غادرا القسطنطينية إلى الشمال المجهول، ولا يوجد حدث بمثل هذه الأهمية في تاريخ العمل التبشيري للكنيسة. كان للسلافيين المسيحيين منذ البداية ذاك الامتياز الكبير - الذي لم يكن متوفراً آنئذ في سائر بلدان أوروبا الغربية - في سماع الانجيل والخدم الكنسية بلغة يفهمونها. وعلى عكس كنيسة رومية التي فرضت اللاتينية، لم تكن الكنيسة الأرثوذكسية قط متعنّتة بموضوع اللغة واتّبعت في معظم الأحيان مبدأ إقامة الخدم الدينية بلغة الشعب.

وسرعان ما اصطدمت البعثة اليونانية في موراڤيا كما في بلغاريا بالمبشرين الجرمان. فلم تكن البعثتان تعملان في ظل بطريركيتين مختلفتين وحسب، بل وفقاً لمبادىء متباينة كذلك. كيرلّس وميتوديوس يستخدمان السلافونية في الخدم بينما الجرمان يلجأون الى اللاتينية. كيرلّس وميتوديوس حافظا على دستور الإيمان في صيغته الأصلية، أما الجرمان فأدخلوا إليه عبارة و«الإبن». ولكي يمنع الجرمان من التدخل في شؤ ون بعثته قرّر كيرلّس أن يضعها تحت حماية البابا مباشرة. وبرجوعه إلى رومية، بيّن على أنه لم يأخذ بعين الجدّية الصراع الذي دار بين فوتيوس ونيقولاوس. فالشرق والغرب بالنسبة إليه لا يزالان متحدين، وسيّان عنده إذا كان مرجعه رومية أو القسطنطينية طالما أنه حرّ في استخدام السلافونية في الخدم الكنسية. في السنة الـ ٨٦٨ قصد الشقيقان إلى رومية حيث كان لهما ما أرادا. لم يكن أدريان الثاني، خليفة نيقولاوس الأول، متعاطفاً مع الجرمان، فأبدى مساندته الكاملة للبعثة اليونانية وكرّس استعمال اللغة السلافونية لغة ليتورجية في موراڤيا. كذلك وافق على ترجماتهما وأودع نسخة من الكتب الطقسية السلافونية على مذابح الكنائس الرئيسية في المدينة.

وتوفي كيرلّس في رومية العام الـ ٨٦٩ ، لكنّ ميتوديوس عاد إلى موراڤيا . وبكل أسف ، لم يكترث الجرمان أبداً لقرارات البابا وأعاقوا بكل قواهم نشاطات ميتوديوس ، حتى أنهم سجنوه مدّة تزيد على السنة . وبوفاته السنة الـ ٨٨٥ ، طرد الجرمان تلاميذه وباعوا بعضهم في سوق الرقيق . وظلّت آثار البعثة السلافونية مستمرة نحو قرنين من الزمان ، في موراڤيا ، لكنّها ما لبثت أن امّحت ورجحت كفة المسيحية الغربية بما في ذلك الثقافة اللاتينية واللغة اللاتينية وكذلك قضية «والإبن» .ولم يبلغ الأمل في إنشاء كنيسة وطنية سلافونية في موراڤيا أية نتيجة، وبدا أن عمل كيرلّس وميتوديوس قد آل إلى الفشل.

لكن الواقع ليس كذلك ، لأن بلداناً أخرى لم يُبشر فيها الأخوان مباشرة ، كبلغاريا وصربيا وروسيا خاصة ، أفادت من جهودهما . وبوريس ، خان بلغاريا، بعد أن تردد، كما رأينا، بين الشرق والغرب، عمد في النهاية الى اختيار سلطة القسطنطينية. على أن المبشرين البيزنطيين في بلغاريا افتقروا لرؤيا الشقيقين ، وبدأوا باستخدام اللغة اليونانية في الخدم الكنسية ، وهي اللغة التي لا يألفها البلغاري من العامة ، تماماً كما لا يألف اللاتينية . وحينما طُرد تلامذة ميتوديوس من موراڤيا ، لجؤوا إلى بلغاريا ونقلوا إليها المبادىء التبشيرية التي استخدموها من قبل فأدخلوا اللغة السلافونية عوض اليونانية وقدّموا للبلغار الثقافة الدينية البيزنطية بلغتهم ، فاستطاع هؤلاء من استيعابها بسهولة . وتوسّعت الكنيسة البلغارية بسرعة ، فأنشئت بطريركية بلغارية مستقلة (نحو ٩٢٤) في عهد القيصر سمعان الكبير (٨٩٣ ـ ٩٢٧) ، وحصلت على اعتراف القسطنطينية السنة الـ ٩٤٥ ، وتحقق حلم بوريس في إقامة كنيسة مستقلة بعد وفاته بنحو نصف قرن ، وكانت بلغاريا بين البلدان السلافية ، أوّل بلد تنشأ فيه كنيسة وطنية .

وقصد تلامذة آخرون لميتوديوس إلى بلاد الصرب ، حيث كان

الأمير موتيمير قد اعتنق الدين المسيحي في نهاية القرن التاسع تقريباً . وبعد فترة من التردد ، حذت بلاد الصرب الممتدة عبر منطقة وسطى بين الشرق والغرب حذو بلغاريا وتبعت القسطنطينية . وأُدخلت الكتب الطقسية السلافونية إلى هناك أيضاً ومعها نمت الثقافة السلافونية البيزنطية . وقد حظت كنيسة الصرب باستقلال جزئي في عهد كبير قديسيها الوطنيين القديس سابا (١١٧٦ - ١٢٣٥) الذي سيم رئيساً لأساقفتها في نيقيا السنة ١٢١٩ . وتحوّلت السنة ١٣٤٦ إلى بطريركية مستقلة حصلت على اعتراف القسطنطينية السنة ١٣٧٥ .

وسنرى فيما بعد كيف أن تنصير الروس ارتبط أيضاً بصورة غير مباشرة بنشاط كيرلّس وميتوديوس. وحيث أن البلغار والصرب والروس أصبحوا « أبناء روحيين » لكيرلّس وميتوديوس ، فلا شك أنهما استحقّا بحق لقب « رسوليّ السلافيين » .

وتأثر بعملهما بلد أرثوذكسي آخر من بلاد البلقان هو رومانيا . وعلى الرغم من أن أبناء رومانيا ينتمون لأصل لاتيني ، ورغم أنهم اعتنقوا الديانة المسيحية قبل القرن التاسع ، فقد أخذوا الكثير عن الكنائس السلافية المجاورة لهم ، بدون الرجوع عن ثقافتهم اللاتينية الأصلية . والدليل على ذلك يوجد في المفردات الرومانية المتعلقة بالأمور الكنسية . فهي مزيج غريب من السلافوني واللاتيني ، وإن تكن هيمنة اللاتينية واضحة (فنجد عبارات مثل Altar, Santa Scriptura Dumnuzeu أي Dominus Deus مع العديد من العبارات اللاتينية الأخرى) . فعلى من يعتقدون بأن الأرثوذكسية « شرقية » ذات طابع يوناني أو سلافي قبل كل شيء ألاّ ينسوا قط بأن كنيسة رومانيا، ثانية كبريات الكنائس الأرثوذكسية في عدد مؤمنيها اليوم ، يغلب عليها الطابع اللاتيني.

قدمت بيزنطية للسلافيين هبة مزدوجة : عقيدة مسيحية متماسكة

وحضارة مسيحية متكاملة . وحين بدأ اهتداء السلافيين إلى المسيحية في القرن التاسع ، كانت حقبة النزاعات العقائدية الكبيرة التي رافقت المجامع المسكونية قد انتهت . وكانت قد حُدّدت العقائد الأساسية وخاصة المتعلقة منها بالثالوث والتجسّد ، فنُقلت إلى السلافيين بالصيغة النهائية . ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل الكنائس السلافية لم تفرز آنذاك العديد من اللاهوتيين اللامعين ، علماً بأن الخلافات الدينية التي قامت في البلدان السلافية لم تتخذ على العموم طابعاً عقائدياً . لكن الإيمان بالثالوث والتجسّد لم يُنقل بطريقة تجريدية ، إذ رافقته ثقافة وحضارة المسيحيين ، أتى بهما المبشّرون من بيزنطية . وهكذا يكون السلافيّون تنصّروا وتحضّروا في نفس الوقت .

أتى اليونانيون بالعقيدة والحضارة بلغة وعقلية جعلتهما سهلة المنال من السلافيين الذين تبنوهما كلياً. (وبذلك تكمن الأهمية البالغة لترجمات كيرلّس وميتوديوس). وعلى الرغم من أن الثقافة البيزنطية والعقيدة الأرثوذكسية اقتصرتا في البداية على الطبقات الحاكمة ، فسرعان ما أصبحتا بصورة تدريجية جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية لجميع أفراد الشعوب السلافية. وزاد من توطيد العلاقات بين الكنيسة والشعب إنشاء كنائس وطنية مستقلة.

لكن ملاءمة الأرثوذكسية العميقة هذه لحياة الشعب وبصورة خاصة نظام الكنائس الوطنية أدّت أحياناً لنتائج غير مرضية إذ كثيراً ما مزج السلافيّون بين الكنيسة والوطن . وتولّد لديهم من جرّاء ذلك في بعض الأحيان ميل لاستخدام الكنيسة لأغراض سياسية ولاعتبار مسيحيّتهم أمراً صربياً أو روسياً أو بلغارياً بشكل أساسي مغفلين أنها قبل كل شيء شأن الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة . وخلال هذه القرون العشرة الأخيرة أدّت النزعة القومية لتسمّم جسم الأرثوذكسية . لكنّ الشركة الوطيدة بين الكنيسة والشعب أدّت من ناحية أخرى إلى نتائج

غاية في الإيجابية ، حيث أصبحت المسيحية عند السلافيين ديانة كل الشعب ، وديانة شعبية ، بالمعنى العميق للكلمة . وقد أصدرت الحكومة الشيوعية في بلغاريا العام الـ ١٩٤٩ قانوناً يتضمن التأكيد التالي : « الكنيسة الأرثوذكسية البلغارية هي في الشكل والجوهر والروح كنيسة ديمقراطية شعبية». إذا جرّدنا هذه العبارات من دلالتها السياسية ، فستبقى منها حقيقة كبرى .

معموديّة روسيا :
فترة كييف (٩٨٨ - ١٢٣٧)

لم يبقَ فوتيوس من جهته مكتوف الأيدي تجاه تنصير السلافيين في روسيا . ففي نحو ٨٦٤ أرسل أسقفاً إلى كييف أهم المدن الروسية آنذاك ، لكن أوّل جماعة مسيحية أفنيت العام الـ ٨٧٨ على يد أوليغ الذي كان يتولىّ السلطة في كييف . وظلّت روسيا رغم ذلك تتعرض لتأثير مسيحي شديد ، قادم من بيزنطية وبلغاريا واسكندينافيا ، ومن المؤكد أنه كان يوجد كنيسة في كييف منذ العام الـ ٩٤٥ . واعتنقت الأميرة أولغا الدين المسيحي السنة الـ ٩٥٥ ، لكن ابنها سفياتوسلاف رفض النسج على غرارها، مخافة التعرّض لسخرية رجال البلاط إن هو اقتبل المعمودية . ونحو السنة الـ ٩٨٨ تنصّر فلاديمير (حكم بين ٩٨٠ و١٠١٥) حفيد أولغا واقترن بأنّا شقيقة إمبراطور بيزنطية . وأصبحت الأرثوذكسية حينئذ دين الدولة في روسيا ، وظلّت على هذه الحال حتى السنة الـ ١٩١٧ . وقد عمل فلاديمير بجهد كبير لتنصير مملكته ، فجاء من الخارج بالكهنة والذخائر والآنية المقدّسة والأيقونات . وتلقى الناس المعمودية جماعات في الأنهر . وأُنشئت المحاكم الإكليريكية كما أُقرّ مبدأ العشر لصالح الكنيسة . ودُحرج الصنم الكبير الممثل للإله بيرون (Perun) برأسه الفضّي وشاربيه الذهبيين إلى قعر التلّة التي كان يشرف منها على كييف. «وراحت أبواق الملائكة وأصداء الإنجيل تتعالى في

جميع المدن . وأصبح الهواء يتقدس بالبخور المتصاعد نحو الله . وقامت الأديرة فوق الجبال . وكان جميع الناس ، رجالا ونساء ، صغاراً وكباراً يملأون الكنائس المقدسة».[1] هكذا وصف المتروبوليت هيلاريون الحدث بعد ذلك بستين سنة . ولا بد أن يكون قد بالغ بالوصف بعض الشيء إذ لم تعتنق روسيا الكييفية كلها الديانة المسيحية بمثل هذه السهولة ، واقتصر في البدء انتشار الكنيسة في معظمه على المدن في حين ظل جزء كبير من الأرياف وثنياً حتى القرن الخامس عشر.

وعلى غرار يوحنا الرحيم من قبله ، شدّد فلاديمير على الأبعاد الاجتماعية للمسيحية . فلا يحتفل في القصر بأي عيد دون أن ينال الفقراء والمرضى نصيبهم ، وما من مكان في أوروبا القرون الوسطى عرف « الخدمة الاجتماعية » المنظمة كما كانت الحال في كييف في القرن العاشر . وسلك أمراء آخرون من أمراء روسيا الكييفية هذا الطريق كما تشهد الوصيّة التي تركها الأمير فلاديمير مونوماخوس (حكم من ١١١٣ إلى ١١٢٥) لأبنائه : «قبل كل شيء، لا تنسوا الفقراء، ساعدوهم بأقصى ما تسمح لكم إمكانياتكم . أعطوا اليتيم والأرملة ولا تتركوا القوي يقضي على أي إنسان»[2] . كان فلاديمير أيضاً واعياً كل الوعي لوصيّة الرحمة المسيحية ، فلماّ أدخل القانون المدني البيزنطي إلى كييف ، أصرّ على تلطيف الكثير من صيغه المتّسمة بالوحشية والعنف . فلم تكن عقوبة الاعدام موجودة في روسيا الكييفية ، وكذلك أنواع البتر والتعذيب . وقلّما كان يتم اللجوء الى العقوبات الجسدية .[3]

---

١ ـ مذكورة في كتاب ج . فيدوتوف : «العقلية الدينية عند الروس»، ص ٤١٠ .
٢ ـ مذكورة في كتاب فيرنادسكي : «روسيا الكييفية»، نيو هافن ١٩٤٨ ، ص ١٩٥ .
٣ ـ كانت عقوبة الاعدام معتمدة في بيزنطية ولكن نادرا ما كانت تطبق . أما عقوبة البتر فكانت شائعة على نحو مخيف .

ونعثر على الرقة نفسها لدى بوريس وغليب نجلي فلاديمير . السنة الـ ١٠١٥ عند وفاة فلاديمير ، أراد ولده البكر سفياتوبولك الاستيلاء على ولايات شقيقيه. ولم يُبد بوريس وغليب أية مقاومة متمسكين حرفياً بوصايا الإنجيل ، مع العلم أنهما كانا قادرين عليها، ومكّنا رسل سفياتو بولك من قتلهما : فإذا كان لا بدّ من اراقة دم ، فليكن دمهما . وعلى الرغم من أنهما لم يموتا شهيدين للإيمان ، بل ذهبا ضحية الصراع السياسي ، فقد أعلنت الكنيسة قداستهما وأعطتهما لقب «متحملي آلام المسيح»، ذاك أنهما بما عانياه من ألم بريء بملء إرادتهما ، شاركا المسيح في آلامه . ولطالما شدّد الروس على مكانة الآلام في الحياة المسيحية.

وسواء في روسيا الكييفية أو في بيزنطية أو في الغرب اثناء القرون الوسطى ، لعبت الأديرة دوراً كبيراً. أشهر هذه الأديرة في روسيا وأوسعها تأثيراً «البتشرسكي لافرا»[1] أي دير الكهوف في كييف . تأسس هذا الدير حوالي السنة الـ ١٠٥١ على يد القديس أنطونيوس ، وهو راهب روسي عاش في جبل آثوس . وأُعيد تنظيم الدير على يد خليفة أنطونيوس القديس ثيودوسيوس (المتوفي السنة الـ ١٠٧٤) الذي أدخل عليه النظام المتَّبع في دير الستوديوم في القسطنطينية. وثيودوسيوس ، على غرار فلاديمير ، كان حساساً للأبعاد الاجتماعية للمسيحية وطبّقها بصورة جذريّة ، مقتدياً بالفقراء ـ كما فعل القديس فرنسيس الأسيزي في الغرب . بوريس وغليب تبعا المسيح في بذل ذاته حتى الموت وتبعه ثيودوسيوس في حياة الفقر ونكران الذات والتخلي عن الذات (Kénose) . فمع أصله النبيل ، كان يؤثر منذ نعومة أظفاره ارتداء الألبسة الخشنة المرقّعة ، والعمل في الحقول مع الفلاّحين . كان يقول :

١ ـ كلمة لافرا تعني ديرا كبيرا يضم ضمن حرمه عدة كنائس .

«ربنا يسوع المسيح جعل نفسه فقيراً وتواضع مقدِّماً نفسه كمثال كي نصبح نحن متواضعين باسمه . لقد تحمّل الإهانات والبصاق والضرب لأجل خلاصنا ، فمن العدل إذاً أن نعاني الألم بدورنا لكي نربح المسيح» .[1] حتى بعدما أصبح رئيساً للدير ، ظل ثيودوسيوس يرتدي الألبسة البسيطة التي تبرز الفقر ويرفض كل المظاهر الخارجية للسلطة . ولم يمنعه ذلك من أن يكون صديقاً مكرَّماً للنبلاء والأمراء ومستشاراً لهم .

روح التواضع هذه اتصف بها العديد من رجال الدين الروس ، منهم لوقا أسقف فلاديمير (المتوفي ١١٨٥) الذي، وفقاً «لسيرة فلاديمير»، أراد أن يتحمل الازدراء كالمسيح ، رافضاً أن تكون له مملكة على الأرض ، ساعياً إلى «الملك الآتي» . ذلك المثال الأعلى غالباً ما نجده في الفن الشعبي الروسي ولدى أدباء كبار كتولستوي ودوستويفسكي .

كان فلاديمير وبوريس وغليب وثيودوسيوس يعنون عناية فائقة بالمضامين العملية للإنجيل : فلاديمير في ما يتعلق بالعدالة الاجتماعية ثم الأسلوب الرحيم في معاملة المجرمين ، بوريس وغليب في قرارهما بالسير على خطى المسيح في تحمل الآلام والموت، وثيودوسيوس في تمثله بالفقراء . يمثل هؤلاء القديسون الأربعة أروع أنواع القداسة في العالم المسيحي الكييفي .

طيلة فترة ازدهار كييف ظلّت الكنيسة الروسية خاضعة للقسطنطينية، وحتى العام الـ ١٢٣٧ كان المتروبوليت على العموم من أصل يوناني . ومن أجل إحياء ذكرى الأيام التي كان رؤساء الأساقفة يأتون فيها من بيزنطية ، لا تزال الكنيسة الروسية ترتل باليونانية البوليخرونيون (الدعاء) .أما باقي الأساقفة الذين عاشوا في تلك الفترة فكان ما يقارب نصف عددهم من مواليد روسيا . وإلى جانب

(١) - «سيرة القديس ثيودوسيوس» لنستور ، مذكورة في كتاب فيدوتوف : «كنز الروحانية الروسية»، ص ٢٧ .

اليونانيين، نجد بين الأجانب، سورياً واحداً.

ولم يكن لكييف علاقات مع بيزنطية وحدها، بل مع أوروبا الغربية أيضاً. لذلك فإن بعض خصائص التنظيم الكنسي الروسي الأول، كالعشر مثلاً، ليس من أصل بيزنطي بل من أصل غربي. وكثيرون من القديسين الغربيين كانوا يقابَلون بالتكريم مع أن أسماءهم لم تكن واردة في التقويم البيزنطي. وتذكر صلاة إلى الثالوث القدوس وُضعت في روسيا في القرن الحادي عشر، عددا من القديسين الإنكليز، مثل ألبان وبوتولف وقديساً فرنسياً هو مارتان أسقف تور. ويدّعي بعض المؤلفين أنه حتى العام ١٠٥٤، كانت المسيحية الروسية لاتينية بقدر ما هي يونانية، لكنْ في هذا الادعاء أكثر من مبالغة. صحيح أن روسيا خلال فترة ازدهار كييف كانت أقرب للغرب من أي وقت آخر من تاريخها حتى عهد بطرس الأكبر، لكنها كانت مدينة للثقافة البيزنطية أكثر بكثير منها للثقافة اللاتينية. لقد كان نابوليون محقّاً من الوجهة التاريخية حين لقّب إمبراطور روسيا اسكندر الأول بـ «يوناني من الإمبراطورية الواطئة» (Bas — Empire).

وقيل أن من سوء حظ روسيا أنها لم تُعطَ الوقت الكافي لهضم كل التراث الروحي البيزنطي، والواقع أن غزو المغول السنة الـ ١٢٣٧ قد قضى على روسيا الكييفية. ولقد سُلبت مدينة كييف ونُهبت واجتاح المغول جميع المناطق الروسية باستثناء الشمال البعيد في نواحي نوفغورود. ويروي أحد زوار البلاط المغولي السنة الـ ١٢٤٦ أنه لم يشاهد في جميع الأراضي الروسية مدينة أو قرية، وكلّ ما شاهده لم يتعد الخرائب والجماجم التي لا تحصى. ولكن إذا كانت كييف قد تعرّضت للدمار فإن ذكرى مسيحية كييف ظلّت حية: «روسيا الكييفية، لم تمّح أبداً من ذاكرة الأمة الروسية، تماماً كذكريات الطفولة الذهبية وبوسع كل واحد أن يروي غليله الديني من منهل آثارها الأدبية النقي، وأن

يجد لدى كتّابها الموقرين مرشداً أميناً للتقدم عبر تعقيدات العالم المعاصر . لقد أضفت المسيحية الكييفية على الروح الدينية في روسيا ما أضفاه بوشكين على الحس الفني الروسي فأضحت مرجعاً ومقياساً ذهبياً ودرباً ملوكياً »[1] .

الكنيسة الروسية في ظلّ المغول (١٢٣٧ - ١٤٤٨)

استمرت سيطرة التتار المغوليين على روسيا من العام ١٢٣٧ حتى العام ١٤٨٠ . ولكن إثر معركة كوليكوفو الكبرى (١٣٨٠) حين تجرّأ الروس في النهاية على مهاجمة غاصبيهم في معركة صريحة وانتصروا عليهم، غدت سيطرة المغول ضعيفة إلى حدّ كبير. ومنذ السنة الـ ١٤٥٠ لم يبق لهم، تقريباً، سوى سلطة اسمية .

وأكثر من أي شيء آخر ساهمت الكنيسة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر في إيقاظ الوعي القومي في روسيا ، كما أنها فيما بعد حافظت أيضاً لليونانيين على شعورهم بالوحدة تحت الاحتلال التركي . لقد خرجت روسيا من فترة الاحتلال المغولي متغيّرة كلّ التغيير في مظاهرها الخارجية ولم يعد من السهل ان تقوم لكييف قائمة بعد عملية السلب والنهب التي تعرضت لها السنة الـ ١٢٣٧ . وحلّت محلها في القرن الرابع عشر إمارة موسكو . وكان للدوقة الكبار في موسكو الفضل في الحث على مقاومة المغول ، وهم الذين حملوا روسيا إلى معركة كوليكوفو . وارتبطت هبّة موسكو هذه ارتباطاً عميقاً بالكنيسة . ففي الوقت الذي كانت فيه المدينة لا تزال صغيرة وضئيلة الأهمية نسبياً قرر بطرس، متروبوليت روسيا من ١٣٠٨ حتى ١٣٢٦ ، الإقامة فيها وظلت موسكو منذ ذلك الحين مقرّ أعلى سلطة دينية في روسيا .

ثمة ثلاثة وجوه بارزة في تاريخ الكنيسة الروسية خلال فترة

---

١ - فيدوتوف، العقلية الدينية عند الروس، ص ٤١٢ .

الاحتلال المغولي ، ثلاثة قدّيسين هم : ألكسندر نفسكي ، استيفانوس أسقف برم ، وسرجيوس من دير رادونيج .

* شُبّه ألكسندر نفسكي (المتوفي ١٢٦٣) ، وهو أحد كبار « القديسين المحاربين » الروس ، بمعاصره الغربي القديس لويس ، ملك فرنسا . وكان أميراً على نوفغورود ، الإمارة الكبرى الوحيدة التي نجت من الغزو العام الـ ١٢٣٧ . وبعد قدوم التتار بقليل وجد ألكسندر نفسه مهدداً من قبل أعداء آخرين من الغرب هم الأسوجيون والجرمان والليتوانيون . وكان يتعذر عليه أن يقاتل على جبهتين دفعة واحدة ، فقرر الخضوع لسلطة التتار ودفع الجزية . واتجه بعد ذلك نحو الغرب ، وأنزل هزيمتين قاسيتين بأعدائه ، الأسوجيين السنة الـ ١٢٤٠ والفرسان التوتونيين السنة الـ ١٢٤٢ . وأما السبب الذي دفعه للتفاوض مع التتار وليس مع الغرب فكان في الأساس دينياً : فالتتار ما أن تُدفع الجزية لهم ، حتى يمتنعوا عن التدخل في حياة الكنيسة ، في حين أنه كان للفرسان التوتونيين هدف معلن هو إخضاع «المنشقّين» الروس لسلطة البابا . جرى ذلك في الحقبة التي كان فيها أحد البطاركة اللاتين جالساً على كرسي القسطنطينية ، وكان غرض الصليبيين الجرمان قلب السلطة الأرثوذكسية في نوفغورود تماماً مثلما اقتحم زملاؤهم الصليبيون القسطنطينية الأرثوذكسية في الجنوب العام الـ ١٢٠٤ . ولكن ألكسندر رفض ، رغم التهديد المغولي ، أي تهاون في الأمور الدينية . ويُروى أنه قال ذات يوم لرسل البابا : « إن عقائدنا هي التي بشّر بها الرسل . . . نحن نحافظ بدقة على تقليد آباء المجامع السبعة القديسين . أما بالنسبة لأقوالكم فنحن لا نريد سماعها كما أننا نرفض عقيدتكم»[1] . بعد ذلك بقرنين أجرى اليونانيون ، إثر مجمع فلورنسة ،

---

١ ـ من سيرة ألكسندر نفسكي المكتوبة في القرن الثالث عشر . راجع كتاب فيدوتوف المذكور ، ص ٣٨٣ .

الاختبار نفسه : الخضوع السياسي لغير المسيحيين أو الاستسلام الروحي لكنيسة رومية .

* ويبيّن لنا استيفانوس أسقف برم شكلاً آخر من حياة الكنيسة في ظلّ المغول يتعلّق بنشاطها التبشيري . منذ البداية ، كانت الكنيسة الروسية مهتمة بالتبشير والروس استعجلوا السعي لإرسال مبشرين إلى غالبيهم الوثنيين . السنة الـ ١٢٦١ قصد الأسقف ميتروفان إلى ساراي عاصمة التتار على الفولغا . وذهب آخرون لتبشير القبائل الوثنية في الشمال الشرقي وفي أقصى شمال القارة الروسية . وترجم كل هؤلاء المبشرين على منوال كيرلّس وميتوديوس الكتاب المقدس والكتب الليتورجية إلى اللغات واللهجات المحلية للشعوب التي كانوا يقصدونها .

القديس استيفانوس ، أسقف برم (نحو ١٣٤٠ - ١٣٩٦) عمل بين القبائل الزريانية . أعدّ نفسه في أحد الأديرة لمدة ثلاث عشرة سنة ، فتعلّم اللهجات المحلية إلى جانب اللغة اليونانية بهدف إعطاء ترجمات ممتازة . كان كيرلّس وميتوديوس قد استخدما الأبجدية اليونانية في ترجماتهما إلى السلافونية ، أما استيفانوس فاستخدم الحرف المستعمل محلياً . وبما أنه كان أيضاً يرسم الأيقونات ، سعى أن يظهر الله ليس فقط كإله الحقيقة بل كإله الجمال كذلك . وعلى غرار الكثيرين من مبشري عصره الروس ، لم يسر في ركب الفتوحات السياسية والعسكرية بل سبقها .

* سرجيوس رئيس دير رادونيج (نحو ١٣١٤ - ١٣٩٢) كبير القديسين الروس ، اشترك اشتراكاً وثيقاً في استصلاح الأراضي خلال القرن الرابع عشر . والملامح العامة في سيرته تجعله أشبه بالقديس أنطونيوس الكبير. حين بلغ عمر الرجال اعتكف في الغابات (ما يوازي

الصحراء المصرية) وأنشأ فيها منسكاً على اسم الثالوث القدوس . وبعد عدة سنوات من النسك ، بدأ الناس يشعرون باعتكافه هذا . وراح التلامذة يلتفّون حوله ، فأصبح «مرشداً روحياً وشيخاً» . في النهاية (وهنا تنتهي مقارنته مع القديس أنطونيوس) أسس ديراً جمع فيه تلامذته . وأصبح هذا الدير ، مذ كان سرجيوس على قيد الحياة ، أضخم مركز ديني في البلاد . وكما كان دير الكهوف بالنسبة لروسيا الكييفية ، هكذا صار دير الثالوث القدوس بالنسبة للفترة الموسكوبية .

أظهر سرجيوس روح التواضع نفسها التي أبداها ثيودوسيوس ، حيث عاش (وهو المنتمي لأسرة نبيلة) كفلاح ، وارتدى الألبسة البائسة . « كان ثوبه من نسيج صوفي خشن ، عتيقاً رثّاً وسخاً تفوح منه رائحة العرق ، مرقعاً من كل جانب »[1] . وفي أوج شهرته ، حين أصبح رئيس دير كبير ، ظلّ يعمل في الحديقة التابعة لمطبخ الدير. وكثيراً ما كان زائروه لا يصدّقون أنه هو سرجيوس الشهير حين يقدّم إليهم . حتى أن أحدهم هتف ذات يوم باحتقار : « جئت لمقابلة نبيّ وها إنكم تقدمون إليّ شحّاذاً » .[2] وعلى غرار ثيودوسيوس ، لعب سرجيوس دوراً هاماً في الحياة السياسية . كان صديقاً شخصياً لدوقة موسكو الكبار وقد شجّع على توسيع رقعة المدينة . ومن الأمور ذات الدلالة أن قائد القوات الروسية ، الأمير ديمتري دونسكوي قصد لزيارة سرجيوس طالباً بركته قبيل معركة كوليكوفو .

ولكن بالإضافة لجوانب الشبه بين ثيودوسيوس وسرجيوس ، هناك فارقان مهمّان بين الرجلين . أوّلاً ، في حين أن دير الكهوف ومثله جميع الأديرة الروسية الكييفية ، كانت تقع عند مداخل المدن ،

---

١ ـ القول للقديس ابيفانيوس في « حياة القديس سرجيوس » وهو مذكور في كتاب فيدوتوف : « كنز الروحانية الروسية » ، ص ٦٩ و٧٠ .

٢ ـ القول لابيفانيوس ، المرجع نفسه ، ص ٧٠ .

تأسس دير الثالوث القدوس في الغابة بعيداً جداً عن المناطق المتحضرة . سرجيوس كان على طريقته مستكشفاً ومؤسساً للمستعمرات، يدفع حدود المدنية إلى الأمام باستمرار ، محوّلاً الغابات إلى مناطق محروثة . لم يكن سرجيوس المثال الوحيد على هذا النمط الرهباني في عصره . كثيرون مثله قصدوا الغابات ليعيشوا فيها نساكاً ، ولكن في جميع الحالات، ما بدأ منسكاً صغيراً سرعان ما نما حتى أصبح ديراً نظامياً تأسست وراء أسواره مدينة علمانية . ثم تعود العملية لتتكرر من جديد : جيل آخر من الرهبان ، يفتحون دروب الغابات البعيدة سعياً وراء حياة الوحدة ، يتبعهم تلامذة وتتكوّن جماعات رهبانية جديدة ، ويتمّ استصلاح أراضٍ جديدة تخصص للزراعة . هذا التقدم الحضاري الذي قام على يد الرهبان ميّز روسيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . فمن رادونيج والمراكز الأخرى ، امتدت بسرعة شبكة كبيرة من الأديرة عبر مجمل الشمال الروسي ، بالغة حدود البحر الأبيض والدائرة القطبية. وفي حياة سرجيوس، أسس تلامذته خمسين ديراً كما أنشأ تلامذته من الجيل اللاحق أربعين آخرين . ولم يكن هؤلاء الرهبان « فاتحين » وحسب ، بل مبشرون أيضاً، لأنهم ما ان دخلوا الشمال البعيد ، حتى أخذوا ينشرون التعاليم المسيحية بين القبائل الوثنية التي كانت تعيش في الغابات المجاورة لأديرتهم .

ثانياً ، في حين لم تتسم خبرة ثيودوسيوس الدينية بالطابع الصوفي الصريح نعثر عند سرجيوس بعداً جديداً من الحياة الروحية . كان سرجيوس معاصراً لغريغوريوس بالاماس وليس من المستحيل أن يكون قد عرف شيئاً عن حركة «الهادئين» في بيزنطية . والرؤى التي حظى بها سرجيوس أثناء الصلاة ، والتي تحدث عنها كاتب سيرته ابيفانيوس ، لا يمكن تفسيرها إلاّ بمنظور صوفي .

دُعي سرجيوس « بباني روسيا » وكان ذلك على ثلاثة صُعُد :

سياسياً ، شجع انطلاقة موسكو ومقاومتها للتتار . جغرافياً كان أكثر من أوحى بانطلاق الرهبان عبر الغابات . روحياً ، انتشار خبرته الصوفية جعل الحياة الداخلية للكنيسة الروسية أكثر عمقاً . لعلّه أدرك أكثر من أي قدّيس روسي آخر أن يقيم التوازن بين الصعيدين الاجتماعي والصوفي للحياة الرهبانية . وبفضل أثره وأثر تلاميذه كان القرنان الممتدان من ١٣٥٠ حتى ١٥٥٠ بمثابة العصر الذهبي للروحانية الروسية .

هذان القرنان يشكّلان أيضاً العصر الذهبي للفن الديني الروسي . فتلك كانت الحقبة التي ارتقى الرسّامون الروس خلالها بالتراث الفني للأيقونات الذي أتاهم من بيزنطية إلى مستوى الكمال . لقد ازدهر رسم الأيقونات بصورة خاصة بين الأبناء الروحيين للقديس سرجيوس . وليس من قبيل المصادفة أن تكون أجمل الأيقونات الأرثوذكسية من الناحية الفنية ـ أيقونة الثالوث القدوس للقديس أندريي روبليف (١٣٧٠ ـ ١٤٣٠) ـ قد رُسمت على شرف القديس سرجيوس ووُضعت في ديره برادونيج .

بمرور إحدى وستين سنة على وفاة سرجيوس ، سقطت الإمبراطورية البيزنطية في أيدي الأتراك . ودُعيت روسيا الجديدة التي تكوّنت بعد انتصار كوليكوفو والتي كان القديس سرجيوس قد ساهم مساهمة فعّالة ببنائها ، لتأخذ مكان بيزنطية كحامية للعالم الأرثوذكسي . وقد أثبت التاريخ كونها في آن جديرة وغير جديرة بهذه الدعوة .

الفصل الخامس
الكنيسة في ظلّ الإسلام

« إن العزيمة الصلبة التي تمتاز بها الكنيسة اليونانية في أيّامنا هذه. . . رغم أنواع الاضطهاد والاحتقار التي يبديها الأتراك تجاهها، ورغم مزالق هذا العالم وملذاته، إنما هو إثبات لا يقلّ رسوخاً عن العجائب والقوّة التي رافقت مراحل نشوئها الأولى . وإنه لمن المثير للاعجاب حقاً أن نرى ونقدر مدى المثابرة والاصرار والبساطة التي يحافظ بها أناس فقراء جاهلون على إيمانهم» .

الوضع الراهن للكنائس اليونانية والأرمنية (١٦٧٩)

سير بول ريكو

امبراطورية ضمن الامبراطورية

(Imperium in Imperio)

من الطبيعي أن يكون اليونانيون في السنة الـ ١٤٥٣ قد تطلعوا على مضض إلى وضع مدينتهم الجديدة . فبعد أن كانوا يعتبرون ، طيلة أكثر من ألف سنة ، بيزنطية هبة دائمة من هبات الله صَعُب عليهم أن تسقط المدينة «المحمية من الله» وأن يرزحوا تحت نير المؤمنين بمعتقد غير معتقدهم .

الفترة الانتقالية كانت قاسية ، على الرغم من أن الأتراك قد

سهّلوا الأمور حيث عاملوا المسيحيين الخاضعين لسلطتهم معاملة شبه حسنة . كان مسلمو القرن الخامس عشر أكثر تسامحاً تجاه المسيحية مما كان المسيحيون الغربيون فيما بينهم في عصر الإصلاح وفي القرن السابع عشر . بالنسبة للإسلام يُعتبر « الكتاب المقدس » كتاباً مقدساً ، ويسوع المسيح نبياً . الدين المسيحي في نظر المسلمين دين غير مكتمل ، لكنه ليس على خطأ كليّ ، وبالتالي لا يجب وضع المسيحيين الذين هم من «أهل الكتاب» في مصاف الوثنيين. ولا يجوز إذاً وفق التعاليم الإسلامية ، اضطهاد المسيحيين، ويسوغ لهم ممارسة شعائر دينهم بحرية شريطة أن يخضعوا لسلطة الإسلام السياسية .

تلك كانت مبادىء فاتح القسطنطينية السلطان محمد الثاني . قبل سقوط القسطنطينية كان اليونانيون يسمّونه « السابق للمسيح الدجال وسنحاريب آخر» ، لكنهم أدركوا عند التجربة أن حكمه لم يتسم بتلك الصفات . ولمّا علم محمد الثاني بأن الكرسي البطريركي شاغر ، استدعى الراهب جيناديوس وأجلسه في السدة البطريركية . وجيناديوس (نحو ١٤٠٥ ـ ١٤٧٢) الذي عُرف باسم جورج سكولاريوس قبل أن يصبح راهباً ، كان كاتباً غزير الانتاج ومرجعاً بين اللاهوتيين اليونانيين خصماً لدوداً لكنيسة رومية ، فجاء تعيينه بطريركاً مؤشراً على التخلّي نهائياً عن اتحاد فلورنسة . بالطبع وقع اختيار السلطان على مثل هذا الرجل المعادي للاتينية لأسباب سياسية ، إذ أنه مع جيناديوس لا يعود ثمة مجال عند اليونانيين لتلمّس المساعدة السرية لدى السلطات الكاثوليكية الرومانية .

السلطان نفسه نصّب البطريرك الجديد ، مسلّماً إيّاه عصا الرعاية ، تماماً كما كان يفعل الحكام البيزنطيون حتى ذلك الحين . العمل كان رمزياً : محمد الفاتح بطل الإسلام ، أخذ على عاتقه الدور

الذي كان يحتله الإمبراطور المسيحي أي أصبح أيضاً حامي الارثوذكسية. والمسيحيون الذين اطمأنوا لاحتلالهم مركزاً معيّناً في المجتمع التركي، سرعان ما اكتشفوا بأنه مركز من درجة دنيا. فالمسيحية في ظل الإسلام كانت ديانة من الدرجة الثانية، ومعتنقوها مواطنون من الدرجة الثانية أيضاً. فعليهم أن يدفعوا جزية باهظة، ويرتدوا ألبسة مميّزة، ولا يحق لهم الانخراط في الجيش أو الاقتران بمسلمة. كما لا يُسمح للكنيسة القيام بأي نشاط تبشيري، إذ يعتبر تنصير المسلم جرماً. من ناحية اخرى كانت تكثر الاغراءات لحمل المسيحيين لاعتناق الدين الاسلامي. إن الاضطهاد العلني يسهم في معظم الأحيان في تقوية الكنيسة، لكن إمكانية الشهادة البطولية هذه لم تتوفر لليونانيين في ظل الحكم العثماني. بل على العكس من ذلك تعرّضوا لتأثيرات الضغط الاحتلالي المستمر والبطيء الذي من شأنه تهبيط الهمم.

وليس هذا كل شيء على كل حال. فبعد سقوط القسطنطينية لم يُسمح للكنيسة بالعودة إلى الوضع الذي كانت فيه قبل اهتداء قسطنطين، بل على العكس من ذلك أضحى ما هو لقيصر أكثر امتزاجاً من ذي قبل بما هو للّه. والمسلمون لا يميّزون بين الدين والسياسة: ففي رأيهم أن الاعتراف بالديانة المسيحية كديانة مستقلة يقتضي تنظيم المسيحيين في جماعة سياسية مستقلة، فيشكلون إمبراطورية داخل الإمبراطورية. وأصبحت بالتالي الكنيسة الأرثوذكسية مؤسسة مدنية ودينية في نفس الوقت، وأضحت «ملّة الروم». واعتُبرت البنية الإكليريكية أداة للإدارة الزمنية، واكتسب الأساقفة صفة كبار موظفي الدولة. ولم يعد البطريرك رئيس الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية فحسب، بل الرئيس المدني للأمة اليونانية أو «رئيس الملّة» (Ethnarque, Millet-Bashi). استمرت هذه الحالة في تركيا حتى العام

١٩٢٣ . وفي قبرص بقيت مطبّقة حتى يوم وفاة المطران مكاريوس في ١٩٧٧ .

أدّى هذا النظام خدمة جلىّ إذ مكّن الأمة اليونانية من الاستمرار كوحدة مميّزة استطاعت المحافظة على بقائها طيلة أربعة قرون من الحكم الأجنبي . ولكن نتائج هذا النظام بالنسبة إلى حياة الكنيسة كانت سيئة على صعيدين اثنين . أوّلاً ، نلاحظ أنها أدّت لتداخل محزن بين العقيدة الأرثوذكسية والنزعة القومية . بما أن حياتهم المدنية والسياسية كانت متمركزة حول الكنيسة تمركزاً تاماً ، أصبح من الصعب جداً على اليونانيين التمييز بين الكنيسة والأمة . والأرثوذكسية ، لكونها جامعة ، لا يمكن حدّها بشعب من الشعوب ، أو ثقافة من الثقافات أو لغة من اللغات . لكن الأمر اختلط تماماً على الرعايا اليونانيين، في الإمبراطورية التركية، بين الهيلينية والأرثوذكسية وذلك أكثر مما كانت عليه الحال زمن الامبراطورية البيزنطية . ولا تزال آثار هذا الاختلاط ملموسة حتى أيامنا هذه .[١]

ثانياً، إن الادارة الكنسية العليا تميّزت، من جرّاء ذلك، بجو يسوده الفساد والسيمونية . والأساقفة الذين باتوا معنيين بشؤون العالم وبالقضايا السياسية ، أضحوا فريسة مطامحهم ومطامعهم المالية . فعلى كل بطريرك جديد أن ينال براءة من السلطان قبل تسلّم مهامه ، وهي وثيقة عليه أن يدفع ثمنها غالياً . وكان يسترجع المبلغ من الأساقفة ، فارضاً نوعاً من الجزية على كل أسقف قبل تنصيبه على أبرشيته . والأساقفة بدورهم يفرضون الضرائب على كهنة الرعايا والكهنة على عموم المؤمنين . وما قيل في وقت ما في البابوية بات صحيحاً كل الصحة

١ ـ كما ولا نزال نعاني في الكرسي الإنطاكي وللأسباب عينها من آثار عدم التمييز الكافي بين «الكنيسة» و «الطائفة» أو «الملة». راجع «الأرثوذكسية في الكراسي الشرقية (١٨٦٠ ـ ١٩٦٠)»، جورج خضر، منشورات النور (الناشر).

بالنسبة للبطريركية المسكونية تحت الحكم التركي : إن كل شيء صار معروضاً للبيع .

فإذا صادف وجود عدّة مرشحين للسدة البطريركية ، تصرف الأتراك كأنهم يبيعون المنصب لمن يدفع أكثر . وسرعان ما لاحظوا أن من مصلحتهم المالية تغيير البطاركة باستمرار لزيادة فرص بيع البراءات . فأصبح البطاركة معرّضين للعزل وإعادة التنصيب في كل لحظة . « من بين البطاركة البالغ عددهم ١٥٩ ممّن اعتلوا السدة بين القرن الخامس عشر والقرن العشرين ، خلع الأتراك منهم ١٠٥ ، وحصلت ٢٧ حالة تنازل أغلبها قسري ، ومات منهم ستة قتلاً . . . وبقي ٢١ فقط قضوا بشكل طبيعي خلال تولّيهم مهامّهم ! »[١] . وكانت السدّة البطريركية تعود أحياناً أربع مرات أو خمساً للبطريرك ذاته ، وكثيراً ما كان بطاركة سابقون ينتظرون بفارغ الصبر في منفاهم فرصة لعودتهم إلى الكرسي . هذا الوضع من عدم الاستقرار خلق الجو الملائم للدسائس بين مطارنة المجمع المقدس الذين كانوا يأملون خلافة البطريرك ، كما أدّى إلى انقسام رؤساء الكنيسة إلى أحزاب متنافرة كلّ التنافر ..

ولكن في حين كانت بطريركية القسطنطينية تشكو من تقهقر داخلي ، اتسعت رقعة انتشار سلطتها الخارجية أكثر من أي وقت مضى . فكون الأتراك ينظرون لبطريرك القسطنطينية على أنه رئيس جميع المسيحيين الأرثوذكسيين الخاضعين لسلطتهم ، جعل من البطريركيات الأخرى الموجودة أيضاً في إطار الإمبراطورية العثمانية ـ أي الإسكندرية وإنطاكية وأورشليم ـ خاضعة فعلياً للقسطنطينية وإن حافظت على استقلالها من الناحية النظرية . كذلك بلغاريا وبلاد الصرب التي كانت ايضاً تحت سلطة الأتراك فقدت كل من كنيستيهما استقلالها تدريجياً ، إلى ان أصبحت في منتصف القرن الثامن عشر

١ ـ ب . ج . كيّد : كنائس المسيحية الشرقية ، لندن ، ١٩٢٧ ، ص ٣٠٤ .

contic-books.blogspot.com

خاضعة لإشراف البطريرك المسكوني المباشر. ولكن في القرن التاسع عشر، فترة انحسار السلطة التركية ، مالت حدود البطريركية نحو التقلّص ولم تعد البلدان التي تحرّرت من النير التركي تقوى على الاستمرار في خضوعها كنسياً لسلطة بطريرك مقيم في العاصمة التركية وملتزم بالنظام السياسي التركي . وقاوم البطريرك هذا الاتجاه ما استطاع ، لكنّه اضطر في كلّ مرّة للإقرار بالواقع . وجرى تأسيس عدّة كنائس وطنية من ضمن الكنائس التي كانت تابعة للبطريركية المسكونية : كنيسة اليونان تأسست العام الـ ١٨٣٣ وتمّ الاعتراف بها من قبل بطريركية القسطنطينية العام الـ ١٨٥٠ ؛ كنيسة رومانيا تأسست سنة ١٨٦٤ واعترفت بها القسطنطينية العام الـ ١٨٨٥ ؛ كنيسة بلغاريا اعيد تنظيمها العام الـ ١٨٧١ ولم تعترف بها القسطنطينية قبل العام الـ ١٩٤٥ ؛ كنيسة بلاد الصرب أعيد تنظيمها وجرى الاعتراف بها السنة الـ ١٨٧٩ . عقب حروب هذا العصر استمرّت البقعة الجغرافية التابعة لبطريركية القسطنطينية في التقلص وها هي اليوم تقتصر على جزء صغير جداً مما كانت عليه في عهد الازدهار زمن السيادة العثمانية .

وللاحتلال التركي أثران متعارضان على الحياة الفكرية للكنيسة . فمن جهة كان الاحتلال سبباً من أسباب التمسّك العميق بالماضي ، وكان من جهة ثانية مشجعاً لانطلاقة بعض الاتجاهات الغربية . إبّان الحكم التركي ، شعرت الأرثوذكسية أنها في حالة الدفاع عن النفس وكان همها الأوحد المحافظة على الاستمرار والبقاء بانتظار قدوم أيام أفضل . وتشبث اليونانيون بصلابة عجيبة بالحضارة المسيحية التي أخذوها عن بيزنطية ، لكن لم يستطيعوا تطويرها على نحو خلاّق . ومن الواضح لهذا السبب أنهم اقتصروا على ترداد الصيغ المعروفة والانزواء وراء المواقف الموروثة من الماضي . ولا يسعنا إلا الأسف على الطريقة التي تجمد فيها الفكر اليوناني وتحجّر . على أنهم بفضل تلك

الذهنية المحافظة استطاعوا حفظ التراث الأرثوذكسي نقياً من أي تعديل . والأرثوذكسيون في ظل الإسلام ساروا على هدي أقوال القديس بولس لتيموثاوس : « يا تيموثاوس احفظ الوديعة ، وتجنب الكلام الفارغ والجدل الباطل الذي يحسبه الناس معرفة » (١ تيموثاوس ٦ : ٢٠). فهل كان بوسعهم في الواقع اختيار شعار آخر ؟ ولكن إلى جانب هذا التعلق بالتقليد ، وُجد في اللاهوت الأرثوذكسي ، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تيار آخر معاكس للأول ألا وهو التيار الناجم عن التسلل الغربي . كان من الصعب على الأرثوذكسيين أن يحافظوا على درجة عالية من العلم في ظل السيطرة العثمانية . وكان على اليونانيين الراغبين في التحصيل العالي أن يقصدوا بلداناً غير أرثوذكسية ، كإيطاليا وألمانيا وباريس وحتى أوكسفورد . ومن بين كبار اللاهوتيين اليونان خلال فترة الحكم التركي من درسوا على أنفسهم ، بيد ان معظمهم تلقوا علومهم في الغرب على يد أساتذة كاثوليك أو بروتستانت.

وكان لثقافتهم هذه انعكاساتها المحتّمة على الطريقة التي فسّروا بها اللاهوت الأرثوذكسي. الطلاب اليونانيون في الخارج اطّلعوا ولا شك على آثار آباء الكنيسة ، لكنهم تعرّفوا عن كثب على أولئك الذين كان أساتذتهم من غير الأرثوذكسيين يعطونهم الأفضلية . هكذا في حين كانت آثار غريغوريوس بالاماس لا تزال تُقرأ لأهمية تعاليمها الروحية بين رهبان جبل آثوس ،أضحت مجهولة تماماً من قبل معظم اللاهوتيين البارزين في فترة الحكم التركي . ولا نعثر في كتابات أوستراتيوس أرجانيتي (متوفي نحو ١٧٥٨) وهو أقدر لاهوتيي عصره ، أي ذكر لإسم بالاماس ، وهذا مثال كبير الدلالة . وكون واحد من أهم آثار بالاماس ،« الثلاثيات في الدفاع عن القديسين الهادئين »،لم يُنشر في القسم الأوفر منه قبل العام الـ ١٩٥٩ ، رمز لوضع الثقافة الأرثوذكسية

اليونانية طيلة القرون الأربعة الأخيرة .

كان الخطر حقيقياً أن يفقد اليونانيون الذين درسوا في الغرب ، الذهنية الأرثوذكسية وينفصلوا عن الأرثوذكسية كتقليد حي مع بقائهم مخلصين كل الإخلاص في النية لكنيستهم . كما أضحى من الصعب عليهم النظر للاّهوت بغير النظرة الغربية . وقد استخدموا ـ شعورياً أو لا شعورياً ـ مفردات وصيغاً لبراهينهم غريبة عن واقع كنيستهم ، فأصاب اللاهوت الأرثوذكسي اليوناني ما أسماه اللاهوتي الروسي الكبير الأب جورج فلوروفسكي (١٨٩٣ - ١٩٧٩) «تحوّل ممسوخ» (Pseudomorphosis). ويمكن أن يُقسم المفكرون الدينيون خلال فترة الحكم التركي إلى فئتين : الفئة التي تعرّضت للتأثير اللاتيني والفئة التي خضعت للتأثير البروتستانتي . ولكن ينبغي ألاّ نبالغ في مدى أهمية هذا التأثير الغربي : فإذا كان اليونانيون قد استخدموا صيغاً تعلّموها في الغرب ، فإن جلّ تفكيرهم حافظ في معظم الحالات على أرثوذكسيته محافظة عميقة . وتعرّض التقليد أحياناً لبعض التشويه ، لأنه عُبّر عنه في قوالب غريبة ، لكنه لم يُنقد كلياً .

والآن لننظر إلى التحدّي الذي حملته حركتا الإصلاح والإصلاح المضاد إلى عالم الأرثوذكسية ، آخذين بعين الاعتبار النزعات المحافظة من جهة ، والتأثيرات الغربية من جهة ثانية .

الإصلاح والإصلاح المضاد في ثقلهما المزدوج

على الرغم من أن حركتي الإصلاح والإصلاح المضاد لم تتجاوزا حدود روسيا والامبراطورية العثمانية ، وعلى الرغم من أن الكنيسة الأرثوذكسية لم تتعرض مباشرة لأية حركة من هذا النوع ، فلا يجب

لاعتقاد بأن هذه الكنيسة لم تتأثر بهما. فقد حصلت فرص عديدة للتبادل الفكري. وكما رأينا سابقاً قصد الأرثوذكسيون الغرب بهدف الدراسة، وتم إرسال آباء يسوعيين وفرنسيسكان الى مناطق المتوسط الشرقي حيث قاموا بنشاط تبشيري بين الأرثوذكسيين. كما قصد بعض الآباء اليسوعيين أيضاً إلى أوكرانيا. وفي القسطنطينية لعبت سفارات الدول الكبرى الكاثوليكية والبروتستانتية دوراً دينياً إلى جانب دورها السياسي. وأدّت هذه الاتصالات خلال القرن السابع عشر الى إحداث تطوير هام في اللاهوت الأرثوذكسي.

أول تبادل في الآراء بين الأرثوذكسيين والبروتستانتيين يرجع للسنة الـ ١٧٥٣ ، إذ قدم إلى القسطنطينية وفد من العلماء اللوثريين من توبنج بقيادة جاكوب أندريا ومارتان كروزيوس وسلّم البطريرك إرميا الثاني نسخة من « إعلان أوغسبورغ » مترجمة إلى اليونانية . وبالطبع كان القصد إدخال بداية روح الاصلاح للأوساط اليونانية، كما أشار كروزيوس بسذاجة: «إذا رغبوا التفكير في خلاصهم الأبدي فإن عليهم القبول بتعاليمنا أو مآلهم الزوال إلى الأبد» . لكن إرميا ظلّ في «ردوده» الثلاثة على لاهوتيي توبنج (١٥٧٦، ١٥٧٩، ١٥٨١) محافظاً بدقة على الموقف الأرثوذكسي التقليدي، ولم يبد أي ميل نحو البروتستانتية . وردّ اللوثريون على الرسالتين الأوليين. لكن إرميا حين أدرك أنهم وصلوا لمأزق، أنهى المراسلات بخطاب ثالث بعث به إليهم قائلاً: «هيّا، من جهتكم لا تكتبوا إلينا بعد اليوم في المواضيع العقائدية وإذا شئتم مواصلة الكتابة فليكن ذلك بدافع الصداقة فقط». هذا الحدث يشير إلى اهتمام الإصلاحيين بالأرثوذكسية؛ و«ردود» البطريرك هذه على جانب من الأهمية لأنها تتضمن أوّل نقد واضح صادر عن مصدر مأذون يوجّه من الأرثوذكسية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي. وكانت النقاط الأساسية التي أثارها إرميا تدور حول حرية الإنسان والنعمة، والكتاب المقدس

والتقليد، والاسرار المقدسة، والصلاة من أجل الموتى وشفاعة القديسين.

وخلال الجدال، أبدى اللوثريون والأرثوذكسيون روحاً من اللياقات المتبادلة. ولكن لم تسود هذه الروح اللقاء الاول بين الأرثوذكسية وحركة الإصلاح المضاد، الذي تمّ في أوكرانيا خارج حدود الإمبراطورية التركية. عقب القضاء على الحكم الكييفي على يد التتار، جرى ضمّ قسم كبير من جنوب غربي روسيا فضلاً عن كييف نفسها إلى ليتوانيا وبولونيا. ويُعرف هذا الجزء من البلاد الروسية على العموم باسم روسيا الصغرى أو أوكرانيا. وابتداء من السنة الـ ١٣٨٦ كان يجلس على عرش ليتوانيا وبولونيا ملك واحد. وفي حين كان الملك ومعظم أفراد الشعب ينتمون للكنيسة الكاثوليكية فإن قلة لا بأس بها منهم كانت مكوّنة من الأرثوذكسيين الروس. وكان هؤلاء في وضع لا يحسدون عليه: فلم يكن بطريرك القسطنطينية - وهم تابعون لإدارته - ليستطيع التدخل عملياً في بولونيا، وكان ملك بولونيا الكاثوليكي وليس الكنيسة من يعين أساقفتهم الذين كانوا في معظمهم من رجال البلاط، لا يتمتعون بمزايا روحية وعاجزون عن قيادة شعبهم بجدارة. لكن العلمانيين بقيادة بعض الأرثوذكسيين القادرين من الأرستقراطيين، كانوا قد شكّلوا تنظيمات قوية، عُرفت باسم الأخويات(Bratstva).

وسعت السلطات الكاثوليكية في بولونيا أكثر من مرّة لإكراه الأرثوذكسيين على الخضوع للبابا. وتزايد الضغط السنة الـ ١٥٦٤ بوصول بعثات الآباء اليسوعيين. فقد بدأوا القيام بمفاوضة سرية مع الأساقفة الأرثوذكسيين، الذين كانوا في معظمهم ميّالين للتعاون (كانوا كما رأينا، مرشحين من قبل الملك الكاثوليكي). وقد تأمل الآباء اليسوعيون أنه في الوقت المناسب سيعمد كل الأساقفة الأرثوذكسيين في بولونيا لاعتناق «الكثلكة» دفعة واحدة، ويُصار بالتالي إلى اعلان

« الاتحاد » على أنه أمر واقع قبل التعرّض لأي احتجاج من أي صوب أتى . لذلك كان لا بد في البدء من اعتماد السرّية في المفاوضات . ولكن لم تجرِ الأمور بموجب هذا التخطيط . فعندما دُعي مجمع إلى الانعقاد في مدينة برست ليتوفسك السنة الـ ١٥٩٦ لم يكن الأساقفة الأرثوذكسيون على رأي واحد . وكان ستة من بين الأساقفة الثمانية بمن فيهم ميخائيل راغوزا متروبوليت كييف يؤيدون الاتحاد، لكن الأسقفين الباقيين ، المدعومين من قبل عدد كبير من المندوبين الرهبان وكهنة الرعايا ظلا مصرّين إصراراً تاماً على أرثوذكسيتهم . وانتهى الطرفان لحرم وابسال بعضهما بعضاً .

هكذا وُجدت في بولونيا كنيسة منضمة إلى رومية عُرف أعضاؤها باسم « كاثوليك الطقس الشرقي » . واعتبرت مراسيم مجمع فلورنسة أساساً لهذا الاتحاد. فاعترف «المنضمّون» بأوّلية البابا، لكنه سُمح لهم بالمحافظة على بعض تقاليدهم مثل زواج الكهنة . كذلك استمرّوا في إقامة الليتورجيا بالسلافونية علماً أنه تسرب إلى خدمتهم مع الوقت بعض العناصر الغربية. بما يخص المظاهر الخارجية كان إذاً ، الفارق ضئيلاً بين « المنضمّين » والأرثوذكسيين . وبوسعنا التساؤل إلى أي حدّ استطاع الفلاحون الأوكرانيون الأميّون فهم موضوع الخلاف . فكثيرون منهم فسّروا الأمر بقولهم إن البابا انضمّ في النهاية إلى الكنيسة الأرثوذكسية .

ولم تعترف الحكومة في مجمع برست ليتوفسك إلاّ بقرارات الطرف الكاثوليكي ، وهكذا فإن الكنيسة الأرثوذكسية في بولونيا لم تعد في نظرها موجودة على الصعيد الرسمي . وبدأت ملاحقة أولئك الذين آثروا البقاء على أرثوذكسيتهم بقساوة . وعلى الرغم من احتجاجات الرهبان وأبناء الرعايا ، تمّت مصادرة الأديرة والكنائس

لتُسلّم إلى «المنضمين». حتى أن بعض الملاّكين الكاثوليك البولونيين وهبوا كنائس فلاحيهم الأرثوذكسيين للمرابين اليهود، مخوّلين إيّاهم بذلك حق المطالبة بالنقود مقابل السماح بإقامة معمودية أو دفن.[1]

إن تاريخ الحركة «الانضمامية» في بولونيا مؤسف من أوّله حتى آخره: بدأ الآباء اليسوعيون باللجوء للمكر وانتهوا إلى استخدام وسائل العنف. من الأكيد أنهم كانوا مخلصين، راغبين فعلاً في تحقيق وحدة العالم المسيحي بأسره، لكن الوسائل التي لجأوا إليها أقرب لتوسيع الفجوة من رأب الصدع. لقد سمّم «اتحاد برست ليتوفسك» جوّ العلاقات بين الأرثوذكسية ورومية، منذ ١٥٩٦ وحتى أيّامنا هذه.

وليس من المستغرب بعد الذي جرى في بولونيا أن يكون الأرثوذكسيون قد آثروا حكم المسلمين على حكم رومية، وحذوا حذو ألكسندر نفسكي الذي سبق أن فضّل التتار على الفرسان التيتونيين. وقد دوّن الشماس بولس الحلبي، وكان من أقرباء بطريرك إنطاكية، في مفكرته اليومية السنة الـ ١٦٥٠ خلال سفره عبر أوكرانيا ردّ الفعل النموذجي لدى الأرثوذكسيين: «ليحفظ الله إمبراطورية الأتراك لأنهم يحصّلون الضرائب ولا يعنون بأمور الدين، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أو ناصريين أو يهوداً أو سامريين. في حين أن هؤلاء البولونيين الملاعين لا يكتفون باقتطاع الأعشار والضرائب من رعاياهم المسيحيين، بل إنهم يُخضعونهم لليهود، الذين لا يسمحون لهم ببناء الكنائس ويحرمونهم من الاستعانة بكهنة متعلّمين». ويصف البولونيين بأنهم «أسوأ وأكثر فساداً من عبدة الأصنام في وحشيتهم تجاه المسيحيين»[2].

---

(١) راجع:

Bernard Pares , A History of Russia, London, p. 167.

(٢) «رحلات مكاريوس»، لندن، ١٩٣٦، ص ١٥.

وشدّ الاضطهاد من أزر الكنيسة الأرثوذكسية الأوكرانية . وعلى الرغم من أن العديد من النبلاء الأرثوذكسيين أصبحوا من « المنضمّين » فإن الأخويات حافظت على استمراريتها بصلابة وزادت من نشاطاتها. ومن أجل الردّ على الدعاية اليسوعية ، أنشأت المطابع ونشرت الكتب دفاعاً عن الأرثوذكسية . وكذلك من أجل مجابهة تأثير المدارس اليسوعية ، أسست المدارس الأرثوذكسية . وفي نحو السنة الـ ١٦٥٠ كانت درجة الثقافة في روسيا الصغرى أرفع منها في أي مكان آخر من العالم الأرثوذكسي ، وراح مثقفو كييف يرتادون موسكو ويحدثون أثراً في الثقافة العامة لدى مواطني روسيا الكبرى. أما بطرس مُغيله الذي سنتكلّم عنه في ما بعد، وكان متروبوليت كييف من السنة الـ ١٦٣٣ حتى ١٦٤٧ ، فقد لعب دوراً هاماً في تلك اليقظة الثقافية.

وأما كيرلّس لوكاريس (١٥٧٢ ـ ١٦٣٨) الكاهن اليوناني الشاب وأحد ممثلي بطريرك القسطنطينية في مجمع برست ليتوفسك السنة الـ ١٥٩٦ ، فقد أصيب لما شاهده في روسيا الصغرى بكراهية دائمة لكنيسة رومية. لذلك كرّس ، بعد أن أصبح بطريركاً على القسطنطينية ، كلّ طاقته لمحاربة الأثر الكاثوليكي في الإمبراطورية التركية . ومع الأسف اضطر كيرلّس في حربه ضد الكنيسة البابوية للانغماس في الأمور السياسية . وطلب مساعدة السفارات البروتستانتية في القسطنطينية ، بينما اعتمد خصومه اليسوعيون على الممثلين الدبلوماسيين للسلطات الكاثوليكية. وفي نفس الوقت الذي طلب فيه مساعدة سياسية من الدبلوماسيين البروتستانتيين وقع كيرلّس تحت تأثير بروتستانتي في ميدان اللاهوت ، و«اعترافه» الذي نشر في جنيف العام الـ ١٦٢٩ ذو طابع كالفيني واضح.

كان عهد كيرلّس البطريركي سلسلة طويلة من الدسائس

العاصفة غير اللائقة . وهو مثال مؤسف عن وضع الكرسي المسكوني في ظل السيطرة العثمانية . لقد عُزل كيرلّس من منصبه وأُعيد إليه مرّات إلى أن أقدم على خنقه في النهاية الجنود الأتراك وألقوا بجثته في البوسفور . وثمة في حالته شيء مؤثر للغاية : فلعلّه كان أصلح رجل اعتلى السدّة البطريركية منذ عهد القديس فوتيوس ، ولو أنه عاش في ظروف أفضل ، بعيداً عن الدسائس السياسية ، فلا بد أنه كان قد استخدم بطريقة أفضل مواهبه الممتازة .

وسارع الأرثوذكسيون لرفض نزعة كيرلّس الكالفينية بقساوة . وأدين « اعترافه » في ما لا يقل عن ستة مجامع محلية عُقدت بين ١٦٣٨ و١٦٩١ . وقد عمد بطرس متروبوليت مُغيله ودوسيتيوس الأورشليمي إلى إصدار اعترافاتهما الخاصة لدحض تلك النزعة . و«الاعتراف الأرثوذكسي» لبطرس ، الذي وضعه السنة الـ ١٦٤٠ ، كان مرتكزاً بكلّيته تقريباً على الحجج الكاثوليكية . وتمّت الموافقة عليه في مجمع ياسّي برومانيا (١٦٤٢) ولكن ليس قبل مراجعته من قبل ملاتيوس سيريغوس اليوناني الذي عدّل بنوع خاص المقاطع المتعلّقة بتكريس الافخارستيا (التي نسبها بطرس بكليتها للكلام الجوهري) والمطهر . وحتى في صيغته المعدّلة يبقى اعتراف مُغيله أقرب الوثائق للاّتينية من بين الوثائق التي أقرّها مجمع أرثوذكسي رسمي . أما دوسيتيوس بطريرك أورشليم من ١٦٦٩ حتى ١٧٠٧ ، فقد نهل بدوره بغزارة من الينابيع اللاتينية . واعترافه المصدق في السنة الـ ١٦٧٣ من قبل مجمع أورشليم (المعروف أيضاً باسم مجمع بيت لحم) يجيب نقطة بعد نقطة وبطريقة موجزة واضحة على اعتراف كيرلّس . ونقاط الإختلاف بين كيرلّس ودوسيتيوس تشمل بنوع خاص النواحي الأربع التالية : مسائل حرية المصير والنعمة الإلهية وسابق التعيين (القدر Prédestination)، ثم عقيدة الكنيسة ، ثم عدد الأسرار المقدسة وطبيعتها ، وأخيراً تكريم الأيقونات .

في حديثه عن الافخارستيا لا يكتفي دوسيتيوس بتبني تعبير transubtantiato (استحالة الجوهر) بل كذلك التمييز بين الجوهر والعَرَض . وفي دفاعه عن الصلاة من أجل الموتى نراه يدنو كثيراً من الفكرة الكاثوليكية عن المطهر ولكن دون أن يلجأ لاستخدام العبارة بالذات . على أن اعترافه أقل تأثراً باللاتينية من اعتراف مُغيله وبالامكان اعتباره وثيقة بالغة الأهمية في تاريخ اللاهوت الأرثوذكسي الحديث. تجاه كالفينية لوكاريس، أخذ دوسيتيوس بالطبع السلاح الذي صادفه ، أي الأسلحة اللاتينية (لعلّه الأمر الوحيد الذي كان يستطيعه في مثل تلك الظروف) سوى أن الإيمان الذي دافع عنه بهذا السلاح لم يكن كاثوليكياً بل أرثوذكسي .

خلال القرن السابع عشر وفي خارج أوكرانيا ، كثيراً ما كانت العلاقات ودّية بين الأرثوذكسيين والكاثوليك . وفي منطقة المتوسط الشرقي ، لا سيّما في الجزر اليونانية في ظل سيطرة البندقية ، كان اليونانيون واللاتين يشاركون بعضهم في الخدم الإلهية . ولقد قرأنا عن مناسبات عدة اشترك فيها الكهنة الأرثوذكسيين المرتدون حللهم الكهنوتية والحاملون الشموع والأعلام في زياح القربان المقدس الكاثوليكي . وكان الأساقفة اليونانيون يدعون المبشرين اللاتين للوعظ في كنائسهم وحتى لتقبل الاعترافات. ولكن هذه الاتصالات الوديّة بدأت تتضاءل بعد السنة الـ ١٧٠٠ وانقطع لها تقريباً كل أثر بعد السنة ١٧٥٠ . ففي السنة الـ ١٧٢٤ التحق برومية قسم كبير من شعب البطريركية الإنطاكية الأرثوذكسية ، فخشيت بعد ذلك السلطات الأرثوذكسية أن تعم هذه الحركة كافة أنحاء الإمبراطورية التركية ، وأصبحت أشد حذراً في علاقاتها مع الكاثوليك. أما أشد ما وصل إليه الشعور المعادي لرومية فقد عبّر عنه بطاركة القسطنطينية والاسكندرية وأورشليم حين أعلنوا السنة الـ ١٧٥٥ بطلان المعمودية اللاتينية

واشترطوا إعادة معمودية كل مهتد إلى الارثوذكسية: «معموديات الهراطقة يجب أن تُرفض وتُمقت، فما هي سوى مياه لا تفيد... ولا تقدس من يتقبلها ولا تساهم في مغفرة الخطايا». ظلّ هذا التدبير ساري المفعول في العالم اليوناني حتى نهاية القرن التاسع عشر، لكنه لم يصل للكنيسة الروسية. فقد أعاد الروس معمودية الكاثوليك بين السنة الـ ١٤٤١ والـ ١٦٦٧، ولكن الحال تغيّر مذاك.

ولم يكتفِ الأرثوذكسيون في القرن السابع عشر بإقامة الاتصال مع الكاثوليك واللوثريين والكالفينيين بل اتصلوا كذلك بكنيسة إنكلترا. فتراسل كيرلّس لوكاريس مع رئيس أساقفة كانتربري، وكذلك ميتروفانس كريتوبولس الذي أصبح بطريرك الاسكندرية فيما بعد وكان طالباً في أوكسفورد بين ١٦١٧ و١٦٢٢. وكريتوبولس وضع «اعترافاً» ذا نزعة بروتستانتية نوعا ما، لكنه شائع الاستعمال في الكنيسة الأرثوذكسية. كذلك جرى الحديث حوالي السنة الـ ١٦٩٤عن تأسيس كليّة يونانية بأوكسفورد وأُرسل بالفعل إليها بضع عشر طالباً يونانياً، ولكن بسبب الافتقار للمال لم يتحقق الأمر. بين ١٧١٦ و١٧٢٥ جرى تبادل رسائل هامة بين الأرثوذكسيين و«غير قاسمي اليمين» Non Jurors (وهم جماعة من الأنجليكان انفصلوا عن كنيسة إنكلترا السنة الـ ١٦٨٨ كيلا يقسموا يمين الولاء لغليوم دورانج الذي اعتبروه غاصباً).

حين نفكر في أعمال مُغيله ودوسيتيوس، وبمجمعي ياسّي وأورشليم، وبالرسائل المتبادلة مع «غير قاسمي اليمين»، ندهش لفقر اللاهوت اليوناني في تلك الحقبة، حيث لا نجد فيه ملء التقليد الأرثوذكسي. مع ذلك فإن مجامع القرن السابع عشر ساهمت مساهمة بناءة ودائمة في الفكر الأرثوذكسي. مجادلات عصر الإصلاح أثارت قضايا لم تكن قد واجهت المجامع المسكونية، كما لم تعرفها الكنيسة في

نهاية الفترة البيزنطية . وهذا ما أرغم أرثوذكسيي القرن السابع عشر على التعمق في لاهوت الأسرار المقدسة وطبيعة الكنيسة وسلطتها . وكان من المهم بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية أن تعبّر عن رأيها في هذه المواضيع وأن تحدد موقفها بالنسبة للتعاليم الجديدة التي نشأت في الغرب . وحققت مجامع القرن السابع عشر هذه المهمة. لقد كانت تلك المجامع محلّية ، لكنّ جوهر قراراتها أصبح مقبولاً من مجمل الكنيسة الأرثوذكسية . كذلك بيّنت هذه المجامع ، على غرار مجامع «الهادئين» قبل ثلاثمائة عام ، على أن اللاهوت الخلاّق في الكنيسة الأرثوذكسية لا ينتهي بانتهاء فترة المجامع السبعة المسكونية . فثمة عقائد مهمة لم تحدد في المجامع المسكونية تكوّن جزءاً لا يتجزأ من الإيمان الأرثوذكسي .

غالبية الغربيين الذين يعنون بالأرثوذكسية يدرسون الفترة البيزنطية أو التفكير الديني الروسي خلال الأعوام المئة الأخيرة ، ويغفلون عامة القرن السابع عشر ويقللون من أهمية الأثر الذي أحدثه على تاريخ الأرثوذكسية .

ظلّ التقليد « الازيقي » حياً طيلة فترة الحكم التركي ، وخاصة على جبل آثوس ، كما عرف هذاالتقليد في نهاية القرن الثامن عشر نهضة روحية لا تزال نتائجها محسوسة إلى اليوم . ونجد في وسط هذه النهضة راهباً من جبل آثوس هو القديس نيقوديموس الآثاني («الهجيوريتي» ١٧٤٨ ـ ١٨٠٩) الذي دُعي عن حق « موسوعة المعرفة الأثوسية في عصره » . بمساعدة القديس مكاريوس (نوتاراس) متروبوليت كورنثوس ، جمع نيقوديموس منتخبات من الكتابات الروحية دُعيت الفيلوكاليا ونُشرت في البندقية العام الـ ١٧٨٢ . وهي عبارة عن مصنّف ضخم بلغ عدد صفحاته ١٢٠٧ ، يضمّ مؤلفين من القرن الرابع حتى القرن الخامس عشر ، ويبحث في أمور الصلاة عامة وبنوع خاص صلاة

يسوع . وأضحى هذا الكتاب من أهم المصنفات تأثيراً في التاريخ الأرثوذكسي ، لا يقبل على قراءته الرهبان فحسب ، بل يقرأه كذلك عدد كبير من الذين يعيشون في العالم . وبنقله إلى السلافونية والروسية ، تحوّل إلى أداة التوعية الروحية في روسيا القرن التاسع عشر .

كان نيقوديموس ذا نزعة محافظة ولكن بغير ضيق أفق أو ظلاميّة في التفكير . استعان بمؤلفات كاثوليكية ، وأصدر باليونانية كتباً للورنزو سكبولي وإغناطيوس لويولا . كما كان على غرار محيطه ، داعية متحمساً للمناولة المتكررة ، على الرغم من أن معظم الأرثوذكسيين في عصره لم يألفوا المناولة إلاّ نادراً خلال السنة . وتعرض نيقوديموس لهجوم عنيف بسبب هذه النقطة ، لكن أحد مجامع القسطنطينية (١٨١٩) أكد تعليمه في هذا الصدد .

لقد قيل بحق أنه إذا استحقت الأرثوذكسية الشفقة طيلة فترة الحكم التركي ، فإنها كذلك تستحق الإعجاب . فعلى الرغم من الصعوبات التي لا تحصى التي واجهتها ، لم تفقد الكنيسة شجاعتها في ظل هذا الحكم . وقعت بالطبع حالات ارتداد عديدة باتجاه الإسلام لكنها كانت أقل مما يُخشى . وأرثوذكسية تلك الحقبة لا تفتقر للشهداء الذين سُجّلوا في تقويم الكنيسة تحت لقب « الشهداء الجدد » وكان عدد كبير منهم من اليونانيين الذين ندموا على اعتناقهم الإسلام ، فعادوا مجدداً إلى المسيحية غير مبالين لعقوبة الموت التي كانت تصيب كل من يسلك هذا الطريق . كذلك فإن الفساد المنكر الذي ساد الدوائر العليا في إدارة الكنيسة لم يكن له كبير الأثر على سير الحياة اليومية لدى المسيحي البسيط حيث استطاع دائماً أن يشترك بالخدم الإلهية في كنيسة رعيته . فكان بالتالي القداس الإلهي هو الذي أبقى أكثر من أي شيء آخر الأرثوذكسية حية في تلك الحقبة المظلمة من تاريخها .

الفصل السادس

موسكو وبطرسبورج

«الإحساس بحضور الله وما وراء الطبيعة يبدو
أنه تسرّب إلى حياة الشعب الروسي على نحو
أكمل من أي شعب آخر في الغرب»

هـ . ب . لدّون
كاهن أنجليكاني، بعد زيارته لروسيا العام الـ ١٨٦٧ .

موسكو، رومية الثالثة

لم يبق بعد الاستيلاء على القسطنطينية السنة الـ ١٤٥٣ سوى بلد واحد يستطيع أن يرفع لواء المسيحية الشرقية ألا وهو روسيا. فالأتراك كانوا قد استولوا على القسم الأكبر من بلغاريا وبلاد الصرب ورومانيا، وباقي البلدان الأرثوذكسية راح يرزح تحت الحكم التركي بسرعة. روسيا وحدها، ظلّت حرّة. لم يكن الروس ليعتقدوا أنهم بالصدفة تحرّروا من آخر بقايا سيطرة التتار في نفس الفترة التي سقطت فيها الامبراطورية البيزنطية. فقد بدا لهم أن الله وهبهم الحرية لأنه اختارهم لخلافة بيزنطية.

وفي نفس الوقت الذي حصلت فيه البلاد على استقلالها، استقلّت الكنيسة الروسية أيضاً وذلك بفعل الصدفة أكثر مما هو نتيجة لتصميم سابق . حتى ذلك الحين كان بطريرك القسطنطينية يختار

المتروبوليت الذي يرئس الكنيسة الروسية . وكان ايزيدور الذي شغل منصب المتروبوليت زمن مجمع فلورنسة يونانياً ومناصراً للاتحاد مع رومية . وبعودته إلى موسكو السنة الـ ١٤٤١ ، أراد تطبيق مقررات فلورنسة لكنه لم يلق أية استجابة لدى الروس . بل على العكس من ذلك أدخله الدوق الأكبر الى السجن ، لكنه سمح له بالهرب بعد فترة وعاد إلى إيطاليا . الكرسي كان إذاً شاغراً لكنّ الروس لم يرغبوا في طلب متروبوليت جديد من القسطنطينية لأن الكنيسة الرسمية في القسطنطينية كانت لا تزال موافقة حتى السنة ١٤٥٣ على اتحاد فلورنسة . ولأنهم لم يكونوا على كامل الاستعداد للتصرّف بمبادرتهم الذاتية، آثر الروس التريّث عدّة سنوات. في النهاية ، السنة الـ ١٤٤٨، قرر مجمع عقده الأساقفة الروس انتخاب المتروبوليت بمعزل عن رأي القسطنطينية وبعد السنة الـ ١٤٥٣، حين نددت القسطنطينية باتحاد فلورنسة أعيدت الشركة بين البطريركية وروسيا، لكن هذه الأخيرة ظلّت محافظة على حق تعيين رؤسائها ومذ ذاك أصبحت الكنيسة الروسية مستقلة.

وقد عزّز الفكرة الداعية أن تكون موسكو خليفة بيزنطية زواج ايفان الثالث « الكبير » (فترة حكمه من ١٤٦٢ إلى ١٥٠٥) من صوفيا ابنة شقيق آخر إمبراطور بيزنطي . وعلى الرغم من أن لصوفيا إخوة ذكوراً ، وأنها لم تكن بالتالي وريثة العرش الشرعية ، كان من شأن هذا الزواج أن أقام صلة وراثية ملكية مع بيزنطية . وبدأ دوق موسكو الأكبر باعطاء نفسه ألقاباً بيزنطية كأوتوقراطي و « قيصر » وباستخدام النسر البيزنطي ذي الرأسين شعاراً لدولته. كذلك بدأ الناس ينظرون إلى موسكو على أنها « رومية الثالثة». رومية الأولى ، كما كانوا يقولون ، سقطت في أيدي البربر وبعد ذلك انحدرت الى الهرطقة . رومية الثانية أي

القسطنطينية سقطت هي الأخرى في الهرطقة بعد مجمع فلورنسة ، وعقاباً استولى عليها الأتراك . موسكو إذاً خلفت القسطنطينية كرومية الثالثة والأخيرة، وأصبحت محوراً للمسيحية الأرثوذكسية . لقد سلك الراهب فيلوثيوس من بسكوف هذا النمط من التفكير حين كتب للقيصر باسيليوس الثالث السنة الـ ١٥١٠ يقول : « بودّي ان أضيف بعض الكلمات بشأن الامبراطورية الأرثوذكسية التابعة لمليكنا : فهو الامبراطور (القيصر) الوحيد الخاص بالمسيحيين وزعيم الكنيسة الرسولية التي لم يعد مقرّها في رومية ولا في القسطنطينية وانما في مدينة موسكو المباركة . وحدها تبهر العالم بأسره ، انها أشد توهجاً من الشمس . . . إن جميع الامبراطوريات المسيحية قد سقطت ولم يبق في مكانها سوى امبراطورية مليكنا كما تقول كتب النبوءات . رومية الأولى والثانية سقطتا ، لكنّ الثالثة أُقيمت بشكل راسخ ، ولم يعد ثمة من رومية رابعة » [١] .

كان هذا المفهوم القائل بأن موسكو رومية الثالثة، ينطبق بشكل خاص بما يتعلق بالقيصر : كما كان امبراطور بيزنطية في السابق بطل الأرثوذكسية وحاميها، فها هو الأوتوقراطي الروسي يُدعى الآن لتحمل القَدَرِ نفسه. أما القول بأنه إذا كانت موسكو رومية الثالثة ينبغي لرئيس الكنيسة الروسية أن يكون أرفع مقاماً من بطريرك القسطنطينية فلا يوجد له أي تبرير في الواقع، اذا لم تُمنَح روسيا أبداً هذه الأوّلية، ولم تحتلّ قط سوى المرتبة الخامسة بين الكنائس الأرثوذكسية، أي بعد بطريركية أورشليم. وقد شجع مبدأ اعتبار

١ ـ النص مذكور في كتاب بينز و موس : بيزنطية : مدخل، ص ٣٨٥.

موسكو رومية الثالثة على نوع من النزعة الماسيانية المسكوبية وحمل الروس على اعتبار أنفسهم أحياناً شعباً مختاراً لا يمكن ان يخطأ. إن هذا المبدأ إذا ما طُبق ليس في الميدان الديني فحسب بل في الميدان السياسي من شأنه ان يُستخدم بسهولة في سبيل أهداف امبريالية روسية زمنية.

وبعدما تحقق الحلم الذي من أجله عمل القديس سرجيوس - أي التحرر من التتار - حصل انقسام محزن بين خلفائه الروحيين. كان سرجيوس قد وازن بين وجه الرهبنة الاجتماعي ووجهها العبادي، لكن هذا التوازن راح يميل نحو الخلل عند تلاميذه. وظهر هذا الخلل للملأ السنة الـ ١٥٠٣ بمناسبة انعقاد أحد المجامع الكنسية. في نهاية المجمع، نهض القديس نيل من دير السورا (نيل سورسكي ١٤٣٣ - ١٥٠٨) وكان راهباً ينتمي لمنسك بعيد في الغابات وراء الفولغا، ليتكلم ووجّه هجوماً ضد الملكية العقارية للأديرة. (كانت الأديرة تملك آنذاك حوالي ثلثي أراضي روسيا). وأخذ القديس يوسف، رئيس دير فولوكالامسك (١٤٣٩ - ١٥١٥) على عاتقه الدفاع عن حق الرهبنة بالملكية. ووقفت غالبية المجمع إلى جانب يوسف، على الرغم من أن فئة لا بأس بها من الكنيسة الروسية كانت تشعر بمشاعر نيل، ولا سيما النسّاك الذين كانوا يسكنون مثله في ما وراء الفولغا. وعُرف حزب يوسف باسم « الملاّكين »، أما حزب نيل ونسّاك ما وراء الفولغا فعُرف باسم « غير الملاّكين ». بعد هذا توالى عشرون عاماً من التوتر الشديد بين الحزبين. فعندما هاجمت فئة « غير الملاّكين » القيصر باسيليوس الثالث لأنه أقدم على الطلاق بدون سبب مقنع (لا تسمح الكنيسة الأرثوذكسية بالطلاق إلاّ في بعض الحالات فقط)، اغتنم الفرصة ليسجن رؤساءهم ويغلق أبواب مناسكهم في ما وراء الفولغا. وعلى الرغم من أن تعليمهم لم يمح كلياً، فإن أثره في الكنيسة الروسية

أصبح محدوداً جداً . وبذلك انتصرت نظرية «الملاّكين» بصورة وقتية .

وراء مسألة الفقر الرهباني كان يكمن مفهومان مختلفان للحياة الرهبانية وبشكل أعمق ، كان ثمة وجهتا نظر مختلفتين حول العلاقة بين الكنيسة والعالم . «الملاّكون» أصرّوا على وجوب الاهتمام بالقضايا الاجتماعية ، العناية بالفقراء والمرضى ، حسن الضيافة والاهتمام بالتعليم مثلاً . ومن أجل تحقيق هذا الهدف ثمة حاجة للمال ، وبالنتيجة فالأراضي ضرورية . وكانوا يقولون أن الرهبان لا يستخدمون أموالهم من أجل أنفسهم ، لكنهم قيّمون عليها من أجل خير الآخرين . وكان تلامذة يوسف يرددون دائماً هذا القول : «إن ثروات الكنيسة هي ثروات الفقراء» .

ويجيب « غير الملاّكين » على ذلك بقولهم إن الصدقة ملقاة على عاتق العلمانيين بينما أول واجبات الراهب يكمن في مساعدة الآخرين عن طريق الصلاة من أجلهم وإعطائهم المثل الحي للحياة المسيحية . من أجل تحقيق هذا الهدف على الراهب أن يفصل نفسه عن العالم ، ولا يحقق الانفصال الحقيقي إلا من ينذر نفسه للفقر . فالرهبان الملاّكون لا يستطيعون تجنّب الانغماس في المشاكل الزمنية ، ولأنهم مأخوذون بشؤ ون العالم فإنهم يتصرّفون ويفكّرون على طريقة العالم . ذلك ما عبّر عنه الراهب فاسيان (الأمير باتريكييف) تلميذ نيل : « أين نعثر في تقليد الأناجيل والرسل والآباء أنه طُلب من الرهبان أن يمتلكوا القرى الآهلة وأن يُخضعوا الفلاّحين لأديرتهم . . . ؟ نتطلّع إلى ما يحمل الأغنياء في أيديهم ، ونكيل لهم المديح كي نحصل على بعض القرى الصغيرة . . . ونلحق الغبن بالمسيحيين إخواننا ونسلبهم ، ونعذّب بعضهم ونضربهم كالسائمة » [1] .

---

١ ـ النص مذكور في ب . بيرس ، «تاريخ روسيا» ، الطبعة الثالثة ، ص ٩٣ .

إن سخط فاسيان الذي أثارته أعمال التعذيب والجلد يضعنا وجهاً لوجه امام قضية اختلف حولها الفريقان أيضاً، ألا وهي معاملة الهراطقة. يوسف كان إلى جانب النظرية التي كان يأخذ بها مجمل العالم المسيحي في تلك الفترة، وتقول بمعاملة الهراطقة المعاندين بالقسوة ولو بمساعدة السلطات المدنية، مستخدمين لذلك السّجن أو الكي بالنار وكل انواع التعذيب الجسدي. أما نيل فكان يرفض جميع أشكال الاكراه والعنف ضد الهراطقة. وإذا ما تذكّرنا الطريقة التي كان يتعامل بها البروتستانت والكاثوليك في أوروبا الغربية إبّان عهد الإصلاح أدركنا مدى التسامح والاحترام للحرية الإنسانية اللذين كان يتحلىّ بهما نيل.

وقضية الهراطقة تطرح أيضاً قضية العلاقات بين الكنيسة والدولة. كان نيل يعتبر الهرطقة قضية روحية يجب أن تُعالج من قبل الكنيسة، بدون تدخل الدولة. أما يوسف فكان يلجأ لطلب المساعدة من السلطات الزمنية. بصورة عامة يمكن القول بأن نيل كان واضحاً أكثر من يوسف في فصله بين ما هو لقيصر وما هو للّه. كان « الملاّكون » أنصاراً متحمسين لفكرة اعتبار موسكو رومية الثالثة. وقد آمنوا بالتحالف بين الدولة والكنيسة. واحتلّوا مكاناً بارزاً في الميدان السياسي، على غرار ما فعله سرجيوس قبلهم، ولكنهم كانوا أقل حذراً منه في منع الكنيسة من أن تُصبح خاضعة للدولة. « غير الملاّكين » كانوا أكثر وعياً للطابع النبوي للشهادة الرهبانية. وبينما كان أنصار يوسف يقعون دائماً في خطر الخلط ما بين ملكوت الله والمملكة الأرضية، كان نيل يدرك أن الكنيسة على الأرض هي دائماً في غربة. وفي حين كان حزب يوسف عميق النزعة الوطنية والقومية، كان « غير الملاّكين » يفكّرون أكثر بشمولية الكنيسة وطابعها الجامع.

لكنّ الخلافات بين الحزبين لم تكن لتتوقف عند ذاك الحدّ، إذ كانا مختلفين أيضاً في مفهوميهما للتقوى والصلاة. يوسف كان

يشدّد على مكانة النظام والانضباط ، بينما كان نيل يشدد على العلاقة الداخلية والشخصية للنفس مع الله . يوسف يشدّد على جمال الخدم الطقسية ونيل يخشى أن يتحوّل حب الجمال إلى عبادة أصنام . كان نيل يقول إن الراهب ينذر نفسه ليس للفقر الخارجي فقط ، بل لتعرية نفسه بشكل تام وعليه أن يكون دائم الانتباه ألاّ تقيم الكنيسة الأيقونات الجميلة والموسيقى حاجزاً بين الله وبينه . (في حذره هذا من الجمال ، يبدو نيل تطهيرياً ، أقرب ليكون مستقبحاً للأيقونات ، وهذا شيء غير شائع في الروحانية الروسية) . أما يوسف فكان يعي أهمية طقوس العبادة الجماعية والصلاة الليتورجية : « بمستطاع الإنسان أن يصلّي في حجرته ، لكنه لن يصلّي فيها أبداً كما في الكنيسة . . . حيث ترتيل أصوات كثيرة يصعد واحداً نحو الله ، وحيث للجميع فكر واحد وصوت واحد في وحدة المحبة . . . في السماء ينادي السيرافيم التريصاجيون وعلى الأرض ترتل الجماعات البشرية النشيد نفسه . والسماء والأرض تحتفلان معاً ، متحدتين في جوّ ملؤه الشكر والغبطة والفرح»[1] . ولم تكن الصلاة الليتورجية هي التي استحوذت على اهتمام نيل بل الصلاة الصوفية بنوع خاص . وقبل أن يستقر في سورا ، سبق له أن كان راهباً في جبل آثوس حيث درس التقليد « الازيقي » البيزنطي .

واعترفت الكنيسة الروسية بالغنى الذي درّه عليها هذا وذاك فأعلنت قداسة كل منهما . لقد ورث كلاهما جزءاً من تقليد القديس سرجيوس ، لكنّ أيّاً منهما لم يفهمه فهماً كاملاً . كانت روسيا إذاً في حاجة إلى هذين النمطين من الرهبنة حيث واحدها يكمل الآخر ، ومن

---

١ ـ مذكورة في ج . مايندورف : « جدال حول دور الكنيسة الاجتماعي . الخلاف حول الملكية الكنسية في روسيا في القرن السادس عشر » في مجلة ايرينيكون ، مجلد ٢٩ ، ص ٢٩ ، سنة ١٩٥٦ .

المؤسف أنهما دخلا في نزاع وان يكن هذا النزاع قد جاء في النهاية على حساب تقليد نيل. ذلك أنه بدون « غير الملاّكين » أخذت الحياة الروحية للكنيسة الروسية طريقاً من طرف واحد ووجدت نفسها مختلّة التوازن. وهذا التداخل بين الكنيسة والدولة، وكذلك النزعة القومية الحادة عند اليوسفيين وتعلقهم بالأشكال الخارجية للعبادة كل ذلك أدّى إلى نشوء صعوبات ما لبثت أن ظهرت في القرن التالي.

ومن أبرز الوجوه في النزاع بين « الملاّكين » و « غير الملاّكين » وجه القديس مكسيموس اليوناني (١٤٧٠ - ١٥٥٦)، « وجه صلة الوصل » الذي امتدت حياته الطويلة عبر عالم النهضة الإيطالية وجبل آثوس مسكوبيا. هو يوناني المولد، لكنه أمضى في البندقية وفلورنسة سنوات شبابه الأولى حيث أقام صداقات مع إنسانوّيين علامة من أمثال بيكو دي لا ميرندولا. وتأثر أيضاً بسافونارولا ولبس لمدة سنتين ثوب الرهبان الدومينيكان. بعودته إلى اليونان السنة الـ ١٥٠٤، أصبح راهباً في جبل آثوس. وفي السنة الـ ١٥١٧ استدعاه القيصر إلى روسيا لنقل بعض المؤلفات اليونانية إلى اللغة السلافونية ولتصحيح الكتب الطقسية الروسية التي شوّهتها أخطاء عديدة. وكان على غرار نيل شديد التعلق بالمبادىء الازيقية. وبوصوله إلى روسيا تبنى قضية « غير الملاّكين »، فتألّم معهم وسُجن لمدة ٢٦ عاماً من ١٥٢٥ إلى ١٥٥١. اما التغييرات التي شاء القيام بها في الكتب الطقسية فسبّبت له معارضة قوية وتوقّف عمله في المراجعة وتُرك قبل الفراغ منه. أما الفترات الطويلة التي أمضاها في السجن فمنعت الروس من الانتفاع الكامل من معارفه الواسعة. إن إصراره على الفقر ونكران الذات كانا بالشدة نفسها التي كانت عند نيل. وقد كتب يقول: «إذا كُنتم حقاً تحبّون المسيح المصلوب... كونوا غرباء، كونوا مجهولين، بلا وطن ولا إسم، صامتين تجاه ذوي قرباكم وعلاقاتكم وأصدقائكم، اعطوا كلّ ما

لديكم للفقراء، وتخلّوا عن جميع عاداتكم السابقة وعن إرادتكم الخاصة»[1].

وعلى الرغم من أن انتصار «الملاّكين» أدّى الى قيام تحالف وثيق جداً بين الكنيسة والدولة، فأن الكنيسة لم تفقد كل استقلاليتها. ففي أوج فترة حكم إيفان الرهيب، تجرّأ القديس فيليب (المتوفي العام الـ ١٥٦٩) متروبوليت موسكو على الاحتجاج علناً ضد الاستبداد الدموي وانعدام روح العدالة عند القيصر. وأنحى عليه باللائمة علناً خلال الاحتفال بالقداس الإلهي. ولكن ايفان أمر بسجنه، وبخنقه فيما بعد. القديس باسيليوس الطوباوي (المتوفي في العام الـ ١٥٥٢) وجّه بدوره نقداً قاسياً للقيصر إيفان. والقديس باسيليوس كان « مجنوناً بالمسيح »، وهو شكل من أشكال القداسة عرفته قبل ذلك بيزنطية لكنه وُجد خاصة في روسيا في القرون الوسطى. «فالمجانين» يتشبّثون بفكرة نكران الذات والتواضع إلى درجة قصوى، متخلّين عن مواهبهم الفكرية وعن كل شكل من أشكال حكمة هذا العالم، وحاملين فوق كواهلهم بصورة إرادية صليب الجنون. وكثيراً ما لعب هؤلاء دوراً اجتماعياً هاماً، إذ كان بمستطاعهم، لأنهم مجانين، أن ينتقدوا أصحاب السلطة بدرجة من الصراحة ما كان غيرهم ليجرؤ عليها. ذلك كان حال باسيليوس «الضمير الحي» للقيصر إيفان: فكان القيصر يصغي لاتهاماته القاسية الحاذقة ويعامله بكل إجلال دون أن يفكّر في معاقبته.

السنة الـ ١٥٨٩ وبرضى بطريرك القسطنطينية، رقّي رئيس الكنيسة الروسية من رتبة متروبوليت لرتبة بطريرك. ذلك كان انتصاراً لفكرة موسكو كرومية الثالثة، لكنه انتصار محدود، لأن البطريرك

---

١ ـ القول مذكور في كتاب ا. دينيسوف: « مكسيموس اليوناني والغرب »، باريس، ١٩٤٣، ص ٢٧٥ و٢٧٦.

الجديد لم يحتلّ سوى المرتبة الخامسة في العالم الأرثوذكسي ، بعد القسطنطينية والاسكندرية وإنطاكية وأورشليم ، ولكن قبل بطريركية صربيا على الرغم من أنها أقدم من بطريركية موسكو .

انشقاق المؤمنين القدامى

بدأ القرن السابع عشر في روسيا بفترة من الاضطرابات والكوارث عُرفت باسم « زمن الاضطرابات » حيث سقطت البلاد ضحية العدوان الخارجي وانقسمت داخلياً على نفسها . ولكن بعد السنة الـ ١٦١٣ نهضت روسيا فجأة وتحوّلت السنون الأربعون التالية لفترة من إعادة التعمير والنهضة في مجالات عدة من حياة الوطن وحياة الكنيسة. وقد تزعم في البدء الحركة الإصلاحية داخل الكنيسة رئيس دير الثالوث ـ سرجيوس» ، ديونيسيوس وفيلاريت بطريرك موسكو من ١٦١٩ إلى ١٦٣٣ ، وكان والد القيصر. بعد ١٦٣٣ استمرت الحركة الإصلاحية على يد جماعة من الكهنة المتزوجين أشهرهم رئيس الكهنة يوحنا نيرونوف وأفّاكوم بتروفيتش. وعاد من جديد العمل في تصحيح الكتب الليتورجية الذي كان قد بدأه في القرن السابق مكسيموس اليونانيّ ، ولكن في شيء من الاحتراس. وأنشئت في موسكو مطبعة بطريركية أصدرت كتباً طقسية أكثر رسوخاً .وبدون أن تغامر السلطات المختصة بإجراء تغييرات بالغة التأثير على مستوى الرعايا، بذل الإصلاحيون قصارى جهدهم لرفع المستوى الأخلاقي سواء بين الكهنة أو بين العلمانيين. فهاجموا السكر، وشددوا على ممارسة الصوم في فتراته المعينة، وأصرّوا على ترتيل القداس الإلهي والخدم الأخرى باحترام كليّ وبدون إغفال أي شي، كما شجعوا الوعظ.

وقد مثّلت هذه الجماعة من المصلحين جزءاً وافراً من أفضل ما في التقليد العائد للقديس يوسف رئيس دير فولوكالامسك . على غرار

يوسف ، كانوا يؤمنون بالسلطة والانضباط ويحصرون الحياة المسيحية في عدد من قواعد التقشف والصلوات الليتورجية . كما كانوا يعتقدون بأنه ليس على الرهبان وحدهم بل على الكهنة المتزوجين والعلمانيين أيضاً رجالاً ونساءً وأولاداً بل على جميع الناس واجب الصوم وقضاء الساعات الطوال في الصلاة يومياً، وذلك إما في الكنيسة أو في البيت أمام الأيقونات. وبوسع الراغبين في تكوين فكرة عن مدى تشدّد دائرة المصلحين هذه وانضباطيتهم الشخصية قراءة السيرة الذاتية العجيبة لرئيس الكهنة آفاكوم. ويذكر افاكوم في احدى رسائله كيف أنه في كل أمسية وبعد تلاوة صلاة المساء بين أفراد العائلة، كانت تطفأ الأنوار ويصلي هو ٦٠٠ صلاة يسوع و١٠٠ صلاة لوالدة الله مصحوبة بـ ٣٠٠ سجدة كبرى. أما زوجته فكانت أثناء حملها (وغالباً ما كانت كذلك) تتلو فقط ٤٠٠ صلاة مع ٢٠٠ سجدة.

ولم يعط برنامج الإصلاحيين سوى مراعاة قليلة للضعف البشري كما كان من الطموح الكبير بحيث يصعب تحقيقه بكليته . على الرغم من ذلك عملت مسكوبيا الكثير في نحو السنة الـ ١٦٥٠ لتبرّر تسميتها بـ « روسيا المقدسة » . أمّا أرثوذكسيو الإمبراطورية التركية ، ممّن زاروا موسكو آنذاك ، فقد كانوا يتعجبون كثيراً بسبب التشدد في الصوم وطول الخدم الكنسية وعظمتها . فالبلاد بأسرها بدت كأنها « بيت كبير للعبادة » [1] .رئيس الشمامسة بولس الحلبي الذي عاش في روسيا من ١٦٥٤ حتى ١٦٥٦ لاحظ أن مآدب القصر كانت مصحوبة ، ليس بالموسيقى بل بقراءات من حياة القديسين كما في الأديرة . كذلك كان القيصر وبلاطه بكامله يشتركان في خدم غالباً ما تستغرق سبع ساعات وأكثر . « ما الذي يمكننا أن نقوله عن هذه الفرائض ، التي بقساوتها قد تشيّب شعر الأطفال ، وكانت متبعة بدقة من قبل الإمبراطور والبطريرك والأمراء والأميرات وجميع أهل البلاط، وكلّهم يظلون واقفين من

١ ـ نقولا زرنوف، «موسكو، روما الثالثة»، لندن، ١٩٣٧، ص ٥١.

الصباح حتى المساء ؟ من ذا الذي يصدق أنهم بأعمالهم هذه يتجاوزون أكثر نساك الصحراء تقوى؟»[1] . ولـم يكن الأولاد ليستثنـوا من هذه الفرائض القاسية : « إن ما أثار دهشتنا بشكل خاص أن نرى الصبية والأولاد الصغار . . . يقفون لا حراك بهم وهم حاسري الـرأس ، لا يبدون أدنى إشارة من التذمّر»[2] على أن موقف بولس الحلبي لم يخلُ من التحفظ على تشدّد الروس ، شاكياً من أنهم لا يسمحون بأي « ضحك أو مزح » أو « تعاط للأفيون » كما أنهم يمنعون التدخين : « فقد يتعرض الإنسان لعقوبة الموت لمجرّد تعاطي جريمة التدخين »[3] .إن لوحة كهذه كما رسمها بولس وزوّار آخرون ، لا بدّ وأن تثير المشاعر لكنها تشدّد بنوع خاص على المظاهر الخارجية .

خـلال ١٦٥٢ ـ ١٦٥٣ ، وقـع نزاع مشـؤوم بـين جماعـة الإصلاحيين وبين البطريرك الجديد نيكون (١٦٠٥ ـ ١٦٨١) . ولعلّ نيكون الذي ينتمي لأصـل فلاّحـي ألمع من اعتلى السـدة البطـريركية الروسية وأكثرهم موهبة . لكنه إلى جانب ذلك كان متعاظماً ومستبداً ، يؤخذ بكل ما يمت لليونان بصلة : «أنا روسي، إبن روسي لكنّ عقيدتي وديانتي يونانيتان» . هكذا كان يقول[4] وأصرّ على أن تتماشى الممارسـات الدينية الروسية في كل نقطة وعادات البطريركيات الأربعة القديمة، وأن يعاد النظر بالكتـب الليتـورجية الـروسية حيثما لا تكون منطبقـة على الكتب اليونانية .

لم يكن لموقف كهذا إلاّ أن يثير معارضة قوية في صفوف أولئك

---

١ ـ من « رحلات مكاريوس» مذكورة في كتاب و. بالمر: «البطريرك والقيصر»، المجلد الثاني ، ص ١٠٧ .

٢ ـ « رحلات مكاريوس» ص ٦٨ .

٣ ـ المصدر نفسه ص ٢١ .

٤ ـ المصدر نفسه ص ٣٧ .

الذين ينتمون لتقليد اليوسفيين ، حيث كانوا يعتبرون موسكو بمثابة رومية الثالثة وروسيا كحصن للأرثوذكسية ومرجعاً لها . وها نيكون يقول لهم إن عليهم في كل الأمور أن يجاروا اليونانيين . ولكن أليست روسيا كنيسة مستقلة ، وعضواً بالغاً في الأسرة الأرثوذكسية الكبيرة ، أو لم يكن لها حق المحافظة على عاداتها الوطنية وتقاليدها الخاصة ؟ بالطبع ، كان الروس يكنّون الاحترام لذكرى الكنيسة البيزنطية الأم التي منها استمدوا إيمانهم ، ولكن لم يكن لديهم نفس الدرجة من الاحترام لمعاصريهم اليونانيين . كانوا يتذكرون « جحود » اليونانيين في فلورنسة ، ويعرفون بعض الشيء عن أنواع الفوضى والفساد التي كانت تسود بطريركية القسطنطينية في ظل الحكم التركي .

ولو تصرّف نيكون بلباقة ورقة ، لكان بمستطاعه أن يتجنّب النزاع . وكان قد سبق للبطريرك فيلاريت أن أدخل بعض التصحيحات على الكتب الليتورجية دون إذكاء روح المعارضة . أما نيكون فلم يكن يتمتع باللباقة واللطف . فقد عمد في برنامجه لإحراق المراحل ، بدون أي مراعاة لمشاعر الآخرين . فشدّد بصورة خاصة على أن إشارة الصليب التي كان يقوم بها الروس بإصبعين يجب أن تتم كما هي الحال عند اليونانيين بثلاث أصابع . قد يبدو الأمر تافهاً ، ولكن ينبغي ألا ننسى مدى الأهمية التي يعطيها الأرثوذكسيون عامة والروس بنوع خاص للطقوس وللحركات الرمزية التي تعبِّر عن صميم إيمان المسيحيين . ففي رأي البسطاء أن أي تغيير في الرمز هو تغيير في العقيدة . هذا الخلاف حول إشارة الصليب كان يثير في الوقت نفسه وبشكل ملموس مسألة المقارنة بين الأرثوذكسية اليونانية والأرثوذكسية الروسية . إشارة الصليب بالطريقة اليونانية هي أكثر حداثة من الطريقة الروسية فلماذا يُجبر الروس المحافظون على الأشكال القديمة على اتباع طريقة يونانية « مستحدثة » ؟

دافع نيرونوف وأفاكوم بمساعدة قسم كبير من الإكليروس والرهبان والعلمانيين عن العادات الروسية القديمة ورفضوا القبول بتغييرات نيكون واستخدام الكتب الجديدة التي نشرها . لم يكن نيكون بالرجل الذي يتسامح بأدنى معارضة ، وعمل على نفي أو سجن خصومه ،وقد ذهب الأمر أحياناً إلى حدّ إعدام بعضهم ، إلاّ أنه رغم الاضطهاد ظلّت المعارضة موجودة . ومع أن نيرونوف خضع في آخر الأمر ، فإن أفاكوم رفض المساومة وبعد عشر سنوات من العيش في المنفى واثنتين وعشرين سنة من السجن (أمضى اثنتي عشر منها في حفرة تحت الأرض) جرى إحراقه حياً . ونظر إليه أنصاره كقديس وشهيد . وشكل هؤلاء الذين على غراره أقدموا على تحدّي الكنيسة الروسية ورفضوا كتب نيكون المنقحة ، فئة منفصلة (راسكول) عُرفت باسم «المؤمنين القدامى» (لكنه من الأصح تسميتهم بمتّبعي الطقوس القديمة) .

إن انشقاق « المؤمنين القدامى » لا يزال قائماً . قبل السنة ١٩١٧ قدّر عددهم رسمياً بمليونين ، ولكن قد يبلغ عددهم في الواقع خمسة أضعاف ذلك . وهم بدورهم منقسمون لمجموعتين أساسيتين : جماعة البوبوفتسي (Popovtsy) الذين حافظوا على الكهنوت وصار لهم منذ ١٨٤٦ تسلسل أسقفي خاص بهم ، وجماعة البزبوبوفتسي (Bezpopovtsy) الذين لا كهنة لهم .

ثمة أشياء كثيرة تثير الاعجاب لدى « المؤمنين القدامى » . ففي عدادهم وُجد أفضل عناصر الإكليروس والعلمانيين الروس في القرن السابع عشر . وقد ارتكب المؤرخون في الماضي بحقهم خطأ جسيماً حيث أنهم لم يروا في منازعاتهم سوى مسألة خلاف حول الأصابع ،

وصراع نصوص ومقاطع وتفسيرات للحروف . اما السبب الحقيقي للانشقاق فيتمثل في مكان آخر، ومردّه لأسباب أكثر عمقاً. « المؤمنون القدامى » إنما ناضلوا من أجل رسم إشارة الصليب بإصبعين ، ومن أجل النصوص والعادات القديمة ، ليس لمجرد الدفاع عنها فقط بل بسبب المواقف المبدئية الناتجة عنها ، إذ كانوا يجدون في هذه الإشارات تشخيصاً لتقليد الكنيسة القديم ، ويعتقدون بأن هذا التقليد ظلّ محفوظاً في طهارته الأولى على يد روسيا وروسيا وحدها . فهل يحق لنا أن نقول إنهم كانوا على خطأ تام ؟ إشارة الصليب بإصبعين كانت في الواقع أقدم من الإشارة بثلاث أصابع . والتجديد هنا جاء فعلاً من اليونانيين . أما الروس فقد ظلّوا أوفياء لما كانت عليه الحال في سابق الأيام . فلماذا كان عليهم أن يقبلوا بعادة اليونانيين؟ من البديهي أن « المؤمنين القدامى » في حرارة حججهم ذهبوا بقضيتهم إلى حدّ التطرف وتحوّل إعجابهم المشروع « بروسيا المقدسة » إلى قومية متعصبة . إلا أن نيكون بدوره ذهب بعيداً في إعجابه بلا تمييز بكل ما هو يوناني .

لقد كتب خومياكوف يقول : « ليس لنا أن نحمرّ خجلاً من « الراسكول» .إنه خليق شعب عظيم ، ومن شأنه أن يوحي بالاحترام للغريب. لكنه أبعد من أن يشمل كل غنى الفكر الروسي»[1] لأنه يمثل وجهاً واحداً فقط من أوجه المسيحية الروسية ألا وهو تقليد «الملاّكين» . وأخطاء «المؤمنين القدامى» هي نفس أخطاء اليوسفيين مع دفعها إلى حدّ التطرّف المتزمّت في القومية ومبالغة في التركيز على المظاهر الخارجية

١ ـ القول مذكور في كتاب أ . غراثيو :«خومياكوف والحركة السلافونية »، المجلد الثاني ، ص ١٦٥ .

للعبادة. يبقى أن نيكون أيضاً، على الرغم من نزعته اليونانية، يوسفي في نهاية الأمر: كان يشدّد على التجانس المطلق في مجال الطقوس، وعلى غرار «الملاّكين»، عمد إلى دعوة السلطات المدنية لمساعدته في القضاء على خصومه الدينيين. وأكثر ما دفع الأمور إلى الانشقاق النهائي استعداده للجوء للاضطهاد. ولو أن الكنيسة الروسية بين ١٥٥٠ و١٦٥٠ تطوّرت على نحو أقل تحيّزاً، فلعلّها كانت استطاعت تجنّب هذا الانفصال الدائم. ولو أنها بدل اللجوء إلى الاضطهاد، لجأت، على غرار نيل، إلى التسامح ومشت على مبدأ احترامه الواسع للحرية الفردية، لكانت حققت المصالحة. ولو أن المتنازعين انصرفوا بشكل أقوى للصلاة الداخلية، لأصبحت المجادلات حول الطقوس أقلّ مرارة. فخصومات القرن السادس عشر كانت أساس انشقاق القرن السابع عشر.

وفي نفس الوقت الذي أُدخلت فيه إلى روسيا التقاليد اليونانية، سعى نيكون أن يفرض على الدولة اوّلية الكنيسة. حتى ذلك الحين كانت العلاقات بين الكنيسة والدولة في روسيا كما كانت عليه في بيزنطية: حكم مزدوج أو تناغم سلطتين منسقتين، الكنيسة والدولة كل منهما مطلق الصلاحية في ميدانه الخاص. في كاتدرائية انتقال العذراء، بالكرملين، كان يوجد عرشان متشابهان، واحد للبطريرك وآخر للقيصر. وخلال حقبة كييف وحقبة المغول، تمتعت الكنيسة باستقلال واسع ونفوذ كبير، إلاّ أنه في ظل القيصرية المسكوبية وعلى الرغم من أن السلطتين ظلّتا متساويتين نظرياً، فإن السلطة المدنية هيمنت في الواقع على الكنيسة بشكل متزايد، وكان يشجعها في ذلك بالطبع سياسة اليوسفيين. فحاول نيكون أن يقلب الموقف. ولم

يكتفِ فقط بتشديده على أن تكون سلطة البطريرك مطلقة في المجال الديني ، بل انه طالب بحق التدخل في الشؤ ون المدنية واتخذ لنفسه لقب « السيّد الكبير » الذي كان مخصصاً للقيصر وحده حتى ذلك الحين . كان القيصر ألكسي يكنّ الاحترام العميق لنيكون فخضع لسلطته في الفترة الأولى . وقد كتب أولياريوس عند زيارته لموسكو العام الـ ١٦٥٤ : « إن سلطة البطريرك من الاتساع بحيث يبدو أنه يتقاسم السلطة مع الذوق الأكبر » [١] .

لكنه بعد مضي بعض الوقت ، بدأ ألكسي يتضايق من تدخل نيكون في الشؤ ون الزمنية . وفي السنة الـ١٦٥٨ قرّر نيكون ـ ربما على أمل استعادة نفوذه ـ أن يعتزل دون أن يستقيل. فاصبحت الكنيسة الروسية بلا قائد فعليّ طيلة ثماني سنوات . بعدها وبناء على طلب القيصر عُقد مجمع في موسكو برئاسة بطريركي الاسكندرية وإنطاكية وأصدر هذا المجمع قرارات أيّدت إصلاحات نيكون، ولكن حكمت على شخصه. وتمت الموافقة على التغييرات التي أدخلها نيكون على الكتب الليتورجية وخاصة مرسومه المتعلق بإشارة الصليب، لكن نيكون نفسه أُسقط وأُرسل إلى المنفى، وتمّ تعيين بطريرك جديد. هكذا كان المجمع إذاً انتصاراً لسياسة نيكون بشأن فرض الممارسات اليونانية على الكنيسة الروسية، وهزيمة لهذه السياسة في ما يتعلق بسعيه لتسليط البطريرك على القيصر. وقد أكّد المجمع مرة أخرى النظرية البيزنطية القائلة بالتناغم بين السلطتين.

لكن مقررات مجمع موسكو بشأن العلاقات بين الكنيسة والدولة

---

١ ـ بلمير ، « البطريرك والقيصر » ، الجزء٢ ، ص ٤٠٧ .

لم يُكتب لها الحياة لوقت طويل ، إذ عمد بطرس الأكبر (فترة حكمه من ١٦٨٢ إلى ١٧٢٥) بعد فترة قصيرة إلى إلغاء منصب البطريرك تماماً ، مزيلاً بشكل كليّ هذه السلطة التي عمل نيكون باستمرار على تقويتها.

الفترة المجمعية (١٧٠٠ - ١٩١٧)

قرّر بطرس أنه ما من نيكون بعد الآن ، وحينما توفي البطريرك أدريان السنة الـ ١٧٠٠ لم يحرّك ساكناً بالنسبة لتعيين خلف له. وفي السنة الـ ١٧٢١ ، أصدر « التنظيم الروحي » الشهير الذي أعلن فيه عن إلغاء البطريركية وإحلال لجنة محلّها هي الهيئة الروحية أو المجمع المقدّس . وكان هذا المجمع مكوّناً من إثني عشر عضواً بينهم ثلاثة أساقفة ، على أن يتمّ اختيار الآخرين من بين رؤساء الأديرة أو الكهنة المتزوجين .

ولم يكن نظام تكوين هذا المجمع مرتكزاً على القانون الكنسي الأرثوذكسي ، بل كان منسوخاً عن السنودسات البروتستانتية الألمانية . ولم يكن أعضاؤه يعيّنون من قبل الكنيسة بل من قبل الإمبراطور الذي كان يملك أيضاً حق عزلهم حسب مشيئته. ففي حين كان بمستطاع البطريرك المعتلي السدة مدى الحياة أن يقف عند الاقتضاء في وجه الإمبراطور، لم يعط هذا النظام لأي عضو في «المجمع المقدس» أي مجال للتمادي في الاعتراض إذ كان يجري عزله بكل بساطة من وظيفته. ولم يكن الإمبراطور يُسمّى «رئيس الكنيسة» بل كان يحمل لقب «القاضي الأعلى للهيئة الروحية». ولم يشارك الإمبراطور في الاجتماعات شخصياً بل يوفد إليها أحد الموظفين الحكوميين. وهذا الأخير مع أنه كان يجلس إلى طاولة منفصلة ولا يشترك في المناقشات، كان يتمتع في الواقع بسلطة واسعة في ما يتعلق بشؤون الكنيسة بحيث يمكن اعتباره «وزير

للشؤ ون الدينية».

ولم تكن الكنيسة بموجب « التنظيم الروحي » تُعتبر مؤ سسة ذات حق إلهي بل إدارة من إدارات الدولة. وكان يتركز هذا التنظيم غالباً على أسس زمنية: فالكاهن الذي يصغي للاعتراف عليه إذا سمع شيئاً ضد أمن الدولة أن يبلغ الشرطة فوراً ويعطيها كل التفاصيل التي ذُكرت له منتهكاً بذلك حرمة الأسرار المقدسة. كذلك اعتبر «التنظيم» الرهبنة «مصدراً للفوضى وللعديد من الاضطرابات» وأخضعها لمحظورات عديدة: منع تأسيس أديرة جديدة بدون ترخيص خاص، منع الرهبان من العيش كنساك، منع النساء من الترهب قبل سنّ الخمسين...

كان ثمة خلفيات مقصودة وراء قرارات المنع المتعلقة بالأديرة. فالاديرة كانت حتى ذلك الحين تكوّن المراكز الرئيسية للعمل الاجتماعي في روسيا. وكان إلغاء البطريركية جزءاً من عملية واسعة النطاق إذ لم يكن بطرس الأكبر يسعى فقط الى اخضاع رئاسة الكنيسة، بل كان يريد القضاء على أية مساهمة للكنيسة في العمل الاجتماعي. وقد عامل خلفاء بطرس أيضاً الأديرة بقساوة أشدّ: ألقت اليزابيت (فترة حكمها من ١٧٤١ حتى ١٧٦٢) الحجز على معظم أملاك الأديرة وألغت كاترين الثانية (فترة حكمها من ١٧٦٢ حتى ١٧٩٦) أكثر من نصف الأديرة وفرضت تحديداً قاسياً على عدد الرهبان. ووقع إقفال الأديرة وقع الكارثة على بعض المناطق النائية، حيث كانت الأديرة المراكز الأساسية للثقافة وأعمال الرحمة. ولكن على الرغم من أن العمل الاجتماعي للكنيسة قد تأثر تأثراً بالغاً فإنه لم يتوقف قط بشكل نهائي.

« التنظيم الروحي » والإصلاحات الدينية التي جاء بها بطرس أثارت في روسيا معارضة ساخطة لكنها قُمعت بلا شفقة أو رحمة . وفي الخارج احتج دوسيتيوس المهيب الجانب بعنف . لكن الكنائس الأرثوذكسية كانت آنذاك في ظل الحكم التركي ، لم تستطع التدخل بشكل فعّال. وفي السنة الـ ١٧٢٣ وافقت البطريركيات القديمة الاربع على إلغاء بطريركية موسكو واعترفت بنظام «المجمع المقدس» .

وظلّ هذا النظام الذي أنشأه بطرس الأكبر ساري المفعول حتى السنة الـ ١٩١٧. وتعتبر الفترة المجمعية على العموم من فترات الانحطاط في تاريخ الأرثوذكسية الروسية ، حيث كانت الكنيسة خاضعة خضوعا تاماً للدولة . وإلقاء نظرة سريعة على القرن الثامن عشر يؤكد هذا الحكم . فالفن والموسيقى الكنسية واللاهوت خضعت جميعاً للتأثير الغربي . أما الذين كانوا يشكون من هذا التأثير الغربي على اللاهوت المدرسّ في أكاديميات اللاهوت فلم يتجهوا صوب تعاليم بيزنطية وروسيا القديمة ، بل اتجهوا نحو الحركات الدينية أو شبه الدينية في الغرب مثل التصوّف البروتستانتي والتَقَوية الألمانية والماسونية وغيرها . وكان بين الطبقة العالية من الإكليروس ، أساقفة بلاط مثل أمبروسيوس رئيس أساقفة موسكو وكالوغا الذي ترك بعد وفاته ، السنة الـ ١٧٧١ ٢٥٢ قميصاً من الحرير الناعم و٩ نظارات محلاّة بالذهب بالاضافة إلى ممتلكاته العديدة الأخرى.

ولكن ما ذلك سوى وجه من وجوه القرن الثامن عشر ، ومهما قيل في عدم شرعية تنظيم « المجمع المقدس » فقد قام إجمالاً بإدارة الكنيسة بكثير من الفعالية . ومع خضوعهم لإصلاحات بطرس كان المفكرون من أعضاء الإكليروس يعون كل الوعي جميع انحرافاتها .

وكسب اللاّهوت الروسي طابعاً علمياً عالياً مع تعرّضه بقوّة لأثر الغرب. وخلف مظاهر تقليد الغرب، استمرت الحياة الأرثوذكسية العميقة بدون انقطاع. وإذا كان أمبروسيوس يمثل نموذجاً من نماذج الأسقف الروسي، فهناك نماذج أخرى من نوعية مختلفة جداً وهم من الرهبان والرعاة الحقيقيين أمثال القديس تيخون زادونسكي (١٧٢٤ - ١٧٨٣) مطران فورونيج. كان تيخون واعظاً وكاتباً ذا شأن استعان على غرار معظم معاصريه بالكثير من التراث الغربي، لكنه ظلّ على الدوام شديد الالتصاق بالتقليد الكلاسيكي للروحانية الأرثوذكسية. نهل من كتب العبادة الألمانية والأنكليكانية، وكانت تأملاته حول آلام يسوع الجسدية أقرب إلى كونها نماذج كاثوليكية من انها أرثوذكسية. وفي حياته الصلاتية، خبر تجربة أشبه بليل النفس المعتم كما وصفها متصوفون غربيون أمثال جان دي لاكروا. لكن تيخون كان كذلك قريباً جداً إلى رؤية ثيودوسيوس وسرجيوس ونيل «وغير الملاّكين»، وعلى غرار العديد من القديسين الروس، رهباناً وعلمانيين، كان سروره الكبير يكمن في قدرته على مساعدة الفقراء، وكان يفرح في التحدث إلى البسطاء من الناس، والفلاحين والشحاذين وحتى المجرمين.

لم يكن القسم الثاني من الفترة المجمعية، أي في القرن التاسع عشر، بفترة انحطاط على الاطلاق، بل كانت فترة نهضة بالنسبة للكنيسة الروسية. إذاك تحوّل الروس عن الحركات الدينية أو الشبه الدينية في الغرب المعاصر ليتجهوا مرّة أخرى صوب القوى الروحية الأرثوذكسية الحقة. ورافق هذه النهضة الروحية حماس جديد للعمل التبشيري، بينما تحررت الأرثوذكسية في اللاهوت كما في الروحانية من عقدة تقليد الغرب.

قَدُمت هذه النهضة الدينية من جبل آثوس . أحد الطلبة الروس في أكاديمية اللاهوت بكييف وهو شاب يدعى بيّسي فليشكوفسكي (١٧٢٢ - ١٧٩٤) راعه النمط الدنيوي للتعليم الديني فلجأ إلى جبل آثوس حيث أصبح راهباً . وفي السنة الـ ١٧٦٣ قصد إلى رومانيا وأصبح رئيس دير نيامتز وحوّله إلى مركز روحي كبير يضمّ أكثر من ٥٠٠ راهب .وانصرف الأخوة بإشرافه بنوع خاص الى ترجمة الآباء اليونانيين إلى السلافونية . وفي جبل آثوس، درس بيّسي التقليد «الآزيقي» وعاشه وكان على صلة من الودّ مع معاصره نيقوديموس . وأصدر في بطرسبورج السنة الـ ١٧٩٣ ترجمة لنصوص «الفيلوكاليا» . شدّد بيّسي بنوع خاص على أهمية الصلاة المستمرة - وخاصة صلاة يسوع - وكذلك على ضرورة الطاعة . وتأثر تأثيراً عميقاً بنيل «وغير الملاّكين» ولكن بدون أن يغفل العناصر البنّاءة في النمط الرهباني اليوسفي . وهكذا خصّص للصلاة الليتورجية والعمل الاجتماعي وقتاً أطول مما كان يفعل نيل . وعلى غرار سرجيوس من قبله، سعى أن يحفظ التوازن بين وجوه الرهبنة جميعاً .

ولم يعد بيّسي إلى روسيا ، لكن العديد من تلامذته قصدوا إليها ، وبتأثيرهم حصلت نهضة رهبانية في كل البلاد الروسية . وترسخ وجود الأديرة القائمة ، كما أُنشئت أديرة جديدة كثيرة . وفي السنة ١٨١٠ كان يوجد في روسيا ٤٥٢ ديراً بينما بلغ هذا العدد السنة ١٩١٤ الـ ١٠٢٥ . إن حركة الرهبنة هذه المنفتحة على حاجات العالم الشغوفة بخدمته ، أعادت في نفس الوقت إلى قلب الكنيسة ، تقليد « غير الملاّكين » الذي كاد أن يقضي عليه منذ القرن السادس عشر . وتميّزت تلك الحقبة بالتشديد على الأبوة الروحية . ومع العلم أن « الشيخ » يشكل صورة مميزة للعديد من الفترات في تاريخ

الأرثوذكسية، يمكن القول بأن القرن التاسع عشر في روسيا اتسم بصورة خاصة جداً بسمة «الشيوخ» (startsi). أول هؤلاء «الشيوخ» وأهمهم في القرن التاسع عشر هو القديس سيرافيم ساروفسكي[1] (١٧٥٩ - ١٨٣٣). دخل دير ساروف وكان في التاسعة عشرة، وأمضى خمس عشرة سنة كراهب عادي وانسحب بعدئذ ليمضي ثلاثين سنة في الاعتزال، بعضها قضاه داخل كوخ في قلب الغابة ثم اعتزل في صومعة داخل الدير بعد أن حال التهاب قدميه دون تمكنّه من المشي. تلك كانت فترة إعداد نفسه لعمل «الشيخ». أخيراً السنة الـ ١٨٢٥ فتح باب صومعته وبدأ يستقبل الزوّار الكثر القادمين إليه طلباً للمساعدة. منذ الصباح وحتى المساء، كان يشفي المرضى، ويسدي النصائح، وكثيراً ما كان يجيب عن الأسئلة قبل طرحها عليه. وكان يستقبل أحياناً في يوم واحد عدة آلاف من الزوّار في باحة الدير. حياته في خطوطها العريضة كانت أشبه بحياة القديس أنطونيوس الكبير الذي عاش في القرن الرابع. نجد في حياته نفس الانسحاب من العالم من أجل العودة إليه. ويُعتبر سيرافيم بحق مثالاً نموذجياً للقديس الروسي، كما انه كذلك مثال صارخ لما للأرثوذكسية الروسية من نواح مشتركة مع بيزنطية، ومع التقليد الأرثوذكسي الشامل عبر العصور.

كان سيرافيم شديد القساوة على نفسه (قضى في إحدى فترات حياته ألفين من الليالي المتتالية في صلاة متواصلة واقفاً بثبات فوق حجر كبير)، لكنه كان رقيقاً مع الآخرين بدون أن يقع ضحية نزعة عاطفية أو ممالأة. الزهد لم يجعله قاتماً، وإذا قيّض لقديس أن تشعّ حياته بالغبطة، فقد قيّض ذلك لحياة سيرافيم. كان يمارس صلاة يسوع، وعلى غرار «الهادئين» البيزنطيين، تمتع برؤية النور الإلهي غير المخلوق. وقد

(١) راجع «سرافيم ساروفسكي»، منشورات النور، ١٩٨٢ (الناشر)

اتخذ هذا النور في خبرة سيرافيم شكلاً مرئياً، محوّلاً مظهر جسد القديس. وصف أحد أبنائه الروحيين نيقولا موتوفيلوف ما حصل ذات يوم حين كانا يتحادثان معاً في الغابة. تحدث سيرافيم عن ضرورة اكتساب الروح القدس وسأله موتوفيلوف كيف لإنسان أن يوقن بأنه في روح الله:

« أمسكني الأب سيرافيم حينئذ بكلتا كتفي بحزم وقال لي: «يا بني، كلانا في هذه اللحظة في روح الله. لماذا لا تريد أن تنظر إليّ؟»

فأجبته: « لا أستطيع النظر إليك يا أبت لأن عينيك ترسلان البرق. ووجهك أصبح أسطع نوراً من الشمس، أشعر بألم في عيني إذا نظرت إليك ». فقال: « لا تخشَ شيئاً. في هذه اللحظة أصبحت مضيئاً مثلي. أنت كذلك في ملء روح الله، وإلاّ لما استطعت أن تراني كما تراني الآن».

وانحنى نحوي وهمس في أذني: «أشكر الرب الإله لما أبداه نحوي من طيبة لا متناهية... ولكن لماذا يا صاح لا تتطلّع في وجهي؟ تطلّع بصراحة وبلا وجل. إن الرب معنا».

تشجعت بتلك الأقوال وتطلّعت إلى وجهه، وتملّكني عندئذ خوف ورع. تصوَّر وجه إنسان يحدثك وسط الشمس في سطوع أشعتها الوهاجة عند الظهر. أنت ترى حركة شفتيه وتعبير عينيه كيف يتغيّر، وتسمع صوته، وتشعر بيديه تمسكان بكتفيك. لكنك لا ترى يدي مخاطبك ولا ترى ذاتك أو جسده، لا شيء سوى النور الوهّاج الذي يسطع بعيداً على مسافة أقدام حيث يضيء بأشعته المرج المغطّى بالثلج ورقع الثلج البيضاء التي لا تنفك عن التساقط... وسألني الأب

سيرافيم : « ما الذي تشعر به ؟» فأجبت : «سعادة لامتناهية». « ولكن أي نوع من السعادة ؟ سعادة بماذا بالضبط ؟» وأجبت : « أحسّ بنوع من الهدوء والسلام في نفسي بحيث لا أعثر على الكلمات المعبّرة عن ذلك» .أجاب الأب سيرافيم : « انه السلام الذي ذكر الرب حين قال لتلامذته : سلامي أعطيكم ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا (يوحنا ١٤ : ٢٧) ، وسلام الله الذي يفوق كل عقل (فيليبي ٤١ : ٧) . . . ما الذي تحسّ به أيضاً؟». «سرور في قلبي لا يحدّ» . . . وتابع الأب سيرافيم : حين يحل روح الله على الإنسان ويلفّه في ملء حضوره ، عندها تعمر النفس بفرح يفوق الوصف ، لأن الروح القدس يملأ بالفرح كلّ ما يمسّ . . . »

ويستمر الحديث . . . كل هذا المقطع مهم جداً ، فهو ينير العقيدة الأرثوذكسية المتعلقة بتأليه الإنسان واتحاده مع الله . ويبيّن كيفية اشتراك الجسد في التقديس : فليست نفس سيرافيم وحدها (أو نفس موتو فيلوف) هي التي تجلت بنعمة الله بل كامل جسده أيضاً. وتجدر الإشارة هنا إلى أن لا سيرافيم ولا موتو فيلوف كانا في حالة النشوة ، وكلاهما يستطيع الحديث بشكل متماسك كما ظلّ كلاهما واعياً تمام الوعي للعالم الخارجي ، لكنهما ممتلئان بالروح القدس ويسبحان في نور الملكوت الآتي .

لم يكن لسيرافيم معلّم يرشده ، في فن الأبوة الروحية ، كما أنه لم يحلّ خلفاً له . وبعد وفاته تابعت عمله جماعة رهبانية في منسك أوبتينو . فمن السنة الـ ١٨٢٩ حتى الـ ١٩٢٣ ، تاريخ إقفال الدير على يد البلاشفة ، توالى عدد من « الشيوخ » على القيام بالإرشاد الروحي فيه . وعلى غرار سيرافيم امتدّ نفوذهم ليشمل كلّ روسيا . من أشهر

هؤلاء ليونيد (١٧٦٨ - ١٨٤١) ومكاريوس (١٧٨٨ - ١٨٦٠) وامبروسيوس (١٨١٢ - ١٨٩١) وكلّهم ينتمون لمدرسة بيّسي ومن الممارسين المتشددين لصلاة يسوع ، لكن لكل منهم طبعه الخاص . ليونيد مثلاً كان بسيطاً حيوياً ومباشراً جداً ، محبوباً من الفلاّحين والباعة بشكل خاص. أما مكاريوس فكان إنساناً مثقفاً مختصاً بآباء الكنيسة شديد الاطلاع على الحركات الفكرية في عصره . وأوبتينو أحدث أثراً بالغاً لدى عدد كبير من الكتّاب بينهم غوغول وخومياكوف ودوستويفسكي وسولوفييف وتولستوي [١]. فشخصية زوسيما المميزة في رواية الإخوة كرامازوف لدوستويفسكي مستوحاة جزئياً من الأبوين مكاريوس وأمبروسيوس من أوبتينو ، على أن دوستويفسكي يذكر بأنه تأثر خاصة بحياة القديس تيخون زادونسكي .

لقد كتب إيفان كيرييفسكي يقول: « إن ما يفوق بأهميته جميع الكتب والأفكار الممكنة هو إيجاد « شيخ » أرثوذكسي ، تستطيع أمامه أن تكشف عن كل فكرة من أفكارك ، كما تستطيع أن تسمع منه ليس رأيه الخاص بل حكم الآباء القديسين ليمجد اسم الله . إن « شيوخاً » كهؤلاء لم يختفوا بعد من روسيا»[٢] .

إن النهضة الرهبانية التي حققها هؤلاء « الشيوخ » أحدثت تأثيراً في حياة كافة أبناء الشعب ، وقد جرى التعبير عن المناخ الروحي لتلك

---

١ ـ علاقة تولستوي مع الكنيسة الأرثوذكسية كانت محزنة جداً . ففي آخر حياته هاجم الكنيسة بعنف شديد اضطر المجمع المقدس لحرمه (سنة ١٩٠١) وفي لحظة وفاته في بيت رئيس محطة آستابوفو ، رفضت عائلته السماح بدخول « الشيخ » الذي قدم من أوبتينو ليراه .

وكما أشار أحد فلاحيه أمام قبره : « غالباً ما يضلّ الإنسان طريقه نتيجة الكثير من العلم ».

٢ ـ القول مذكور في كتاب المتروبوليت سيرافيم :الكنيسة الأرثوذكسية، باريس، ١٩٥٢، ص ٢١٩ .

الفترة وبشكل مميّز حيوي في روايات سائح روسي [1] وهو كتاب يصف تجارب فلاح روسي جاب البلاد سيراً على الأقدام وهو يمارس صلاة يسوع . وما من مقدمة أفضل من هذا الكتاب الصغير بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن صلاة يسوع .وروايات السائح الروسي تبيّن كيف أن بإمكان الجميع استخدام صلاة يسوع وأنها ليست مقصورة على استعمالها في الأديرة . يحمل السائح معه نسخة من الفيلوكاليا لعلّها الترجمة السلافونية التي قام بها بيّسي .(وقد نشر تيوفان المعتزل (١٨١٥ - ١٨٩٤) خلال السنوات ١٨٧٦ - ١٨٩٠ ترجمة فريدة للفيلوكاليا وتضمّ خمسة أجزاء وضعت بالروسية وليس بالسلافونية) .

حتى الآن ركّزنا في حديثنا على نشاطات الأديرة . لكن من بين أهم شخصيات الكنيسة الروسية في القرن التاسع عشر ، نجد أيضاً كاهناً متزوجاً هو يوحنا سرغييف (١٨٢٩ - ١٩٠٨) عُرف باسم يوحنا الكرونستادي لأنه في كرونستاد ، القاعدة البحرية وضاحية بطرسبورج ، كان يمارس خدمته الكهنوتية ، وإنه يثير الاهتمام حقاً شمول عمله الرعائي ، كزيارة الفقراء والمرضى ، وتنظيم أعمال الخير ، والتعليم الديني للأولاد ، والوعظ المستمر وقبل كل شيء إقامة الصلاة مع أبناء الرعية ولأجلهم . ويوحنا الكرونستادي كان واعياً وعياً عظيماً لقدرة الصلاة ، وحينما يقيم القداس الإلهي كان يؤخذ بكليته : « لم يكن يستطيع المحافظة على الألحان الليتورجية ، فيخاطب الله ويصيح ويبكي عند رؤية الجلجلة والقيامة ، وكأن الواقعة تقع تحت سمعه وبصره»[2] .حسه الواقعي هذا يمكن تمثله في كل صفحة من صفحات سيرته الذاتية الروحية التي كتبها بعنوان :«حياتي في المسيح »،[3] وعلى غرار

١ - راجع « سائح روسي على دروب الرب » ، منشورات النور، ١٩٨٢ (الناشر).

٢ - فيدوتوف ، « كنز الروحانية الروسية »، ص ٣٤٨ .

٣ - راجع عن هذا الكتاب وعن حياة الأب يوحنا كتاب «يوحنا كرونستادت»، منشورات النور، ١٩٨٢ (الناشر).

القديس سيرافيم، كان يتمتع بموهبة شفاء المرضى والتمييز والأبوة الروحية.

أكّد الأب يوحنا على ضرورة المناولة المتواصلة على الرغم من أن العلمانيين الروس في ذاك الوقت لم يكونوا ليتناولوا أكثر من أربع أو خمس مرات في السنة. وبما أنه لم يكن لديه ما يكفي من الوقت لسماع الاعترافات الفردية فقد أنشأ نوعاً من الاعتراف العام، حيث كان الجميع يذكرون معاً خطاياهم بصوت عال، ثم يتناولون. كذلك خفّض من علو الايقونسطاس بحيث تستطيع جماعة المصلّين مشاهدة المذبح والكاهن أثناء الخدمة. وكان تشديده على المناولات المتكررة، والعودة إلى الشكل القديم للايقونسطاس من الأمور التي استبق فيها النهضة الليتورجية في الأرثوذكسية المعاصرة وقد أعلنت الكنيسة الروسية في المنفى قداسة الأب يوحنا السنة ١٩٦٤.

وعرفت روسيا القرن التاسع عشر تجديداً مدهشاً في العمل التبشيري. فمنذ عهد ميتروفان أسقف ساراي واستيفانوس أسقف برم، كان الروس مبشّرين لا يكلّون. ومع تقدم السلطة المسكوبية باتجاه شرقي البلاد، فتح الباب على مصراعيه أمام تنصير القبائل الأصلية والمسلمين من المغول. وعلى الرغم من أن الكنيسة لم تنقطع قط عن إرسال المبشرين إلى غير المسيحيين فإن نشاط المبشرين تضاءل خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، لا سيما بعد أن أقدمت كاترين على إقفال عدد كبير من الأديرة. لكن التبشير عاد في القرن التاسع عشر بزخم جديد وحماس متجدّد. وخصصت أكاديمية كازان التي افتتحت السنة الـ ١٨٤٢ للدراسات التبشيرية، وكان يجري فيها تعليم إكليروس القبائل الأصلية من أبناء البلاد. وقد ترجم فيها الكتاب المقدس والقداس الإلهي إلى لغات عديدة. ففي ضواحي كازان وحدها

كان يُحتفل بالقداس الإلهي بإثنتين وعشرين لغة ولهجة محلّية.

ومن الأمور ذات الدلالة أن الأرشمندريت مكاريوس (غلوخاريف١٧٩٢ - ١٨٤٧) وهو واحد من كبار روّاد هذا التجديد في العمل التبشيري ، درس الحركة « الازيقية » وعرف تلامذة بيّسي فيليشكوفسكي. لذا فإن نهضة الحياة الروحية هي التي أعطت العمل التبشيري حيوية جديدة. أكبر مبشري القرن التاسع عشر هو إينوكنديوس (يوحنا فنيامينوف، ١٧٩٧ - ١٨٧٩) أسقف كمتشاتكا والجزر الأليوسية الذي أعلنت قداسته السنة الـ ١٩٧٧ . وقد ضمت أبرشيته الواقعة على حدود روسيا الشرقية ، عدداً من أشد المناطق في العالم قساوة ، وهي تمتد عبر مضيق بهرنغ حتى الألاسكا التي كانت تابعة لروسيا حينذاك . ولعب إينوكنديوس دوراً مهماً في تطوير الأرثوذكسية الأميركية، وبوسع الأرثوذكسية والملايين من الأرثوذكسيين الأميركيين اليوم أن يعتبروه بمثابة أحد كبار «رسلهم»[1].

وحرّرت روسيا في القرن التاسع عشر لاهوتها من التبعية الغربية المفرطة. وحركة التحرر هذه مدينة بصورة خاصة لعمل ألكسي خومياكوف (١٨٠٤ - ١٨٦٠) قائد الحركة السلافونية ولعلّه أوّل لاهوتي خلاّق في كل تاريخ الكنيسة الروسية . وخومياكوف ملاّك وضابط خيّال متقاعد، ينتمي الى اولئك الاعلام من اللاهوتيين العلمانيين الذين نجدهم في كل صفحة من تاريخ الأرثوذكسية. يرى خومياكوف ان المسيحية الغربية بمجملها، كاثوليكية كانت أم بروتستانتية، تتقاسم نفس الفرضيات ولها وجهات نظر أساسية واحدة، بينما تختلف الأرثوذكسية عن ذلك كلّ الاختلاف. ويضيف خومياكوف: وبما أن الأمر كذلك فليس من المناسب أن يأخذ الأرثوذكسي لاهوته عن الغرب، كما كانت الحال منذ القرن السابع

١ - راجع «اينوكنديوس كاروز آلاسكا» منشورات النور، ١٩٨٣ (الناشر).

عشر . وبدل أن يستعمل في إدانة رومية حججاً بروتستانتية وحججا كاثوليكية في مجادلة البروتستانتيين ، ينبغي له العودة إلى ينابيعه الأصلية ويكتشف التقليد الأرثوذكسي الحقيقي الذي هو في فرضياته الأساسية ليس كاثوليكيا ولا بروتستانتيا ، بل فريد من نوعه . وكما قال جـ . سامارين، صديق خومياكوف ، قبله « مدرستنا اللاهوتية الأرثوذكسية لم تكن قادرة على تحديد الاتجاه اللاتيني أو البروتستانتي ، لأنها إذ ابتعدت عن وجهة نظرها الأرثوذكسية الخاصة ، انقسمت على نفسها واتخذ كل قسم منها وضعاً « معارضاً » للمعارض اللاتيني أو البروتستانتي دون أن يسمو فوقه . وخومياكوف أوّل من نظر إلى اللاتين والبروتستانت من وجهة نظر الكنيسة ، وبالتالي من وجهة نظر أسمى ،وهذا هو السبب الذي مكّنه من تحديدهم »[1] . عني خومياكوف بنوع خاص بعقيدة الكنيسة ووحدتها وسلطتها ، وأدى في هذا المضمار مساهمة مهمة جداً في اللاهوت الأرثوذكسي .

كان لخومياكوف خلال حياته نفوذ محدود على اللاهوت الذي كان يعطى في المدارس الاكليريكية والأكاديميات ، التي كانت هي أيضا تستقل أكثر فأكثر عن التأثير الغربي . وشهد العام الـ ١٩٠٠ ذروة اللاهوت الروسي الأكاديمي وكان عدد كبير من اللاهوتيين والمؤرخين والليتورجيين مع اطلاعهم الوثيق على المدارس الغربية ، لا يسمحون للتأثيرات الغربية بتشويه أرثوذكسيتهم .كذلك شهدت السنوات التالية نهضة فكرية كبرى خارج مدارس اللاهوت .منذ عهدبطرس الاكبر، كان عدم الإيمان شائعاً بين المثقفين الروس ، أما الآن فقد عاد عدد كبير من المفكرين الى الكنيسة وبطرق مختلفة . بعضهم كان من الماركسيين السابقين ، مثل سرج بولغاكوف (١٨٧١ - ١٩٤٤) (سيم كاهنا فيما

١ ـ مذكورة في كتاب بيركبيك « روسيا والكنيسة الإنكليزية » ص ١٤ .

بعد) ونيقولا برديا ييف (١٨٧٤ - ١٩٤٨) . وقد لعب كلاهما دوراً بارزاً في حياة الهجرة الروسية في باريس .

وحينما نفكر في حياة تيخون وسيرافيم و« شيوخ » أوبتينو ، ويوحنا الكرونستادي ، وكذلك بالنشاط التبشيري واللاهوتي في القرن التاسع عشر، نلاحظ كم هو مجحف اعتبار الفترة المجمعية بانها فقط فترة انحطاط. يقول البروفسور كارتاشيف (١٨٧٥ - ١٩٦٠) وهو واحد من كبار مؤرخي الكنيسة الروسية، بحق: «الخضوع للنير أضحى نبيلاً من الداخل عن طريق التواضع المسيحي. . . فالكنيسة الروسية كانت تعاني من ضغط النظام، لكنها تجاوزت ذلك داخلياً، وكبرت وامتدت وازدهرت بوسائل كثيرة. وبالتالي يمكن اعتبار الفترة المجمعية من ألمع مراحل تاريخ الكنيسة الروسية وأكثرها مجداً»[١].

في ١٥ آب ١٩١٧ ، بعد مرور ستة أشهر على تنازل الإمبراطور نيقولا الثاني عن العرش ، وخلال فترة الحكومة المؤقتة ، عُقد في موسكو مجمع لكل الكنيسة الروسية ، واستمر في الانعقاد حتى شهر أيلول من السنة التالية . وضمّ المجمع ٢٥٠ عضواً من الأساقفة والإكليروس و٣١٤ علمانياً، ولكن بموجب مقتضيات القانون الكنسي كان يعود القرار النهائي حول القضايا الدينية للأساقفة وحدهم. وأعدّ المجمع برنامجاً للإصلاحات واسع النطاق، شمل أولاً إلغاء النظام المجمعي المفروض من قبل بطرس الأكبر وإعادة البطريركية. وتمّ انتخاب البطريرك في تشرين الثاني ١٩١٧ . واختير ثلاثة مرشحين، عن طريق الاقتراع التمهيدي، لكنّ الاختيار النهائي تمّ بالقرعة. في دورة

١ - في مقال في مجلة « الشرق المسيحي » مجلد ١٦ ، سنة ١٩٣٦ ، ص ١١٤و١١٥ .

الاقتراع الأولى حاز أنطوان (خرابوفتسكي) رئيس أساقفة خاركوف (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦) على ١٠١ صوت، تلاه أرسانيوس رئيس أساقفة نوفغورود وحاز على ٢٧ صوتاً وجاء أخيراً تيخون (بليافن) متروبوليت موسكو (١٨٦٦ ـ ١٩٢٥) الذي أحرز ٢٣ صوتاً. وعن طريق القرعة فاز المرشح الأخير تيخون الذي أصبح بطريركاً.

وضغطت الأحداث الخارجية على المناقشات والمداولات، إذ كان يُسمع خلال الدورات الأولى دويّ مدافع البلاشفة تدك جدران الكرملين. يومين قبل انتخاب البطريرك الجديد أصبح لينين وأعوانه وأسياداً على موسكو. ولم يتح للكنيسة الوقت الكافي لتمتين إصلاحاتها. وقبل إنهاء أعمال المجمع في صيف ١٩١٨ ابلغ أعضاؤه عن قتل فلاديمير متروبوليت كييف على يد البلاشفة. وكان الاضطهاد قد بدأ.

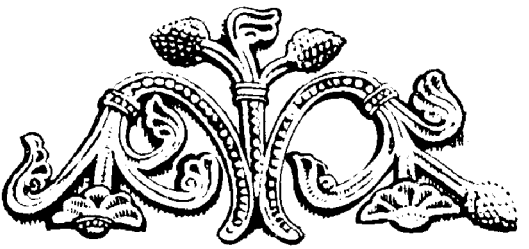

الفصل السابع

القرن العشرون : اليونان والعرب

لقد سبب انتشار الشيوعية تقسيم الكنيسة الأرثوذكسية الى قسمين متمايزين: فمن جهة نجد البطريركيات القديمة الأربع مع بلاد اليونان، ومن جهة أخرى نجد الكنائس السلافية ورومانيا. وفي حين لم تتخطَ الشيوعية كثيراً حدود العالم الكاثوليكي والبروتستانتي، فإن معظم أعضاء الكنيسة الأرثوذكسية يعيشون اليوم في بلدان خاضعة لهذا النظام.

يوجد في العالم اليوم عدد يتراوح ما بين الستين والتسعين مليوناً من الأرثوذكسيين الممارسين ـ علماً أن عدد الأرثوذكسيين المعمّدين يتجاوز هذا الرقم بكثير ـ يعيش حوالي الخمسة والثمانين بالمئة منهم في بلدان شيوعية.

وسنعمد في هذا الفصل وفقاً لهذا التقسيم الواضح إلى دراسة الكنيسة الأرثوذكسية خارج نطاق الكتلة الشيوعية، ثم ندرس في الفصل اللاحق وضع الأرثوذكسية داخل البلدان الشيوعية. وسنخصص فصلاً ثالثاً للشتات الأرثوذكسي في أجزاء أخرى من العالم فضلاً عن النشاطات التبشيرية التي تقوم بها الكنيسة الأرثوذكسية في عصرنا هذا.

هنالك سبع كنائس أرثوذكسية خارج البلدان الشيوعية اربع منها هي كنائس القسطنطينية واليونان وقبرص وسيناء يغلب عليها الطابع اليوناني أو هي يونانية بحتة، ثم كنيسة الاسكندرية وهي يونانية وعربية وإفريقية معاً، أما الكنيستان الباقيتان أي إنطاكية وأورشليم فهما عربيتان بالدرجة الأولى، مع أن الإدارة العليا للكنيسة في أورشليم هي في أيدي اليونانيين.

بطريركية القسطنطينية

كانت تعدّ في القرن العاشر ٦٢٤ أبرشية، ولم تعد تشمل اليوم إلاّ البلاد التالية:

١ ـ تركيا

٢ ـ جزيرة كريت وبعض جزر بحر إيجه

٣ ـ جميع اليونانيين في « الشتات » ، وبعض أبرشيات الروس ، والأوكرانيين والبولونيين والألبانيين في المهجر (أنظر الفصل التاسع)

٤ ـ جبل آثوس

٥ ـ فنلندا

ويبلغ عدد المؤمنين التابعين لهذه البطريركية الثلاثة ملايين ، أكثر من نصفهم يونانيون يقطنون أميركا الشمالية .

في نهاية الحرب العالمية الأولى ، كان يقطن تركيا نحو ١,٥٠٠,٠٠٠ من الشعب اليوناني إلا أن معظمهم قتل أو نفي في نهاية الحرب الكارثة بين اليونان وتركيا السنة الـ ١٩٢٢ . واليوم (في ما عدا جزيرة أمبروس) تعتبر اسطمبول (أي مدينة القسطنطينية) المدينة التركية الوحيدة التي يحق لليونانيين الإقامة فيها . وباستثناء البطريرك لا

يحق لأعضاء الإكليروس الأرثوذكس التجوّل في المدينة بألبستهم الإكليريكية . وتضاءل عدد أفراد الطائفة اليونانية كثيراً منذ فترة الاضطرابات المعادية لليونان وللمسيحية في الوقت نفسه التي وقعت في ٦ أيلول ١٩٥٥ . فخلال ليلة واحدة تمّ سلب وانتهاك ستين كنيسة من الكنائس الأرثوذكسية الثمانين الموجودة في القسطنطينية . وقدّرت قيمة الخسائر التي لحقت بممتلكات المسيحيين بخمسين مليون جنيه استرليني . مذ ذاك آثر عدد كبير من اليونانيين بالطبع العيش في مكان آخر ، إلى جانب أولئك الذين طردتهم السلطات التركية . وبدلاً عن كثافة السكان اليونانيين في السابق ، لم يبقَ في أحياء القسطنطينية سوى أقلية مرتاعة ، تنتمي في كليتها تقريباً لأشد الطبقات فقراً . وفي السنوات الأخيرة هُدد البطريرك نفسه بالطرد عدة مرات. وهذا الخطر لا يزال محدقاً. وقد أنهى البطريرك أثيناغورس مدة ولايته (١٩٤٨ - ١٩٧٢) وخلفه البطريرك ديمتريوس الذي يعمل بكثير من الصبر والكرامة في هذه الأوضاع المأسوية .

معهد خالكي

وكانت تملك البطريركية في جزيرة خالكي بجوار القسطنطينية مدرسة لاهوتية شهيرة . وفي ظل البطريرك أثيناغوراس أصبح للمدرسة طابع دولي ، إذ كانت تضمّ إضافة إلى اليونانيين طلاباً من جميع بلدان الشرق الأدنى ومن البلدان البعيدة مثل فنلندا وأثيوبيا . ولكن على أثر الضغوط المستمرة التي مارستها الحكومة التركية ، تضاءل عدد الطلاب بشكل ملموس وانتهى الأمر إلى أن أقفلت المدرسة فعلاً السنة ١٩٧١ .

جبل اثوس

وجبل آثوس ، على غرار خالكي ، ليس ذا طابع يوناني

بحت ، بل دولي . فمن بين الأديرة العشرين الرئيسية هناك سبعة عشر ديراً يونانياً ، أما الثلاثة الباقية فروسي وصربي وبلغاري . في الحقبة البيزنطية كان أحد هذه الأديرة جيورجياً كما وُجدت أيضاً أديرة لاتينية .
إلى جانب هذه الأديرة الرئيسية ، هناك عدّة أديرة مهمة وعدد لا يحصى من المناسك الصغيرة . يوجد أيضاً حتى الآن عدد من النساك ، ويعيش معظمهم في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة على ضفاف هوّات مخيفة ، داخل أكواخ أو مغاور ، لا يمكن بلوغها أحياناً ، إلاّ بواسطة سلالم قديمة مهتزة . نعثر إذاً فوق الجبل المقدس على أشكال الحياة الرهبانية الثلاثة التي سبق أن وُجدت في مصر خلال القرن الرابع وهي الحياة الجماعية والحياة شبه الجماعية والنسّاك . وهذا برهان واضح على استمرارية الأرثوذكسية .

ويواجه جبل آثوس اليوم مشاكل عديدة ، أهمها تضاؤل عدد الرهبان بشكل مثير . يكفي أن نقارن بين الأرقام سنة ١٩٠٣ والأرقام سنة ١٩٦٥ :

	١٩٠٣	١٩٦٥
يونانيون	٣٢٧٦	١٢٩٠
روس	٣٤٩٦	٦٢
بلغار	٣٠٧	١٧
صربيون	١٦	٢٨
رومانيون	٢٨٦	٩٤
جيورجيون	٥١	صفر
المجموع	٧٤٣٢	١٤٩١

هذا الانحدار سيزداد على الأرجح لأن غالبية الرهبان الموجودين حالياً متقدّمون في السن . وصحيح أنه في بعض الفترات ، كما في بداية

القرن التاسع عشر على سبيل المثال ، كان عدد الرهبان أدنى مما هو عليه اليوم ، إلاّ أن الهبوط المفاجىء الذي شهدناه في السنوات الخمسين الأخيرة مثير للقلق .

ويُنظر إلى الحياة الرهبانية نظرة لا مبالاة أو احتقار في جزء كبير من العالم الأرثوذكسي المعاصر ولا سيما في بعض الأوساط اليونانية ، الأمر الذي يفسرّ جزئياً غياب الدعوة الرهبانية التي يعاني منها جبل آثوس .سبب آخر يكمن في الوضع السياسي . ففي السنة الـ ١٩٠٣ ، كان أكثر من نصف الرهبان من السلافيين أو الرومانيين ، إلا أن عدد هؤلاء قد تضاءل جداً لتعذّر مجيء رهبان جدد . فإن دير بندلايمون الروسي الذي كان يعد ١٩٧٨ عضواً السنة الـ ١٩٠٤ ، بقي فيه أقل من ٦٠ السنة الـ ١٩٥٩ . والأبنية الضخمة التابعة لدير زوغرافو البلغاري أضحت عملياً فارغة . أحد الزوّار الذين عرّجوا منذ فترة قصيرة على منسك يوحنّا المعمدان الروماني وجد بعض الرهبان القلائل الباقين على قيد الحياة يلتحفون الخرق البالية وأكياس القنّب ، والبناء في طريقه الى الخراب بسبب الحاجة للمال .

في العام الـ ١٩٦٦ ، وبعد مفاوضات طويلة ، سمحت الحكومة اليونانية لخمسة رهبان روس من الاتحاد السوفياتي أن يأتوا إلى دير القديس بندلايمون ، كما قبلت أن يدخل دير زوغرافو أربعة رهبان من بلغاريا . ولكن هذ لا يكفي إذ الوضع يحتاج إلى قبول أعداد أكبر من الرهبان .

ومن بين الجماعات غير اليونانية يُعتبر الدير الصربي في وضع أفضل ، إذ سمح منذ بعض الوقت لعدد كبير من الشباب من يوغسلافيا الالتحاق به .

في الحقبة البيزنطية كان الجبل المقدس مركزاً للانتاج اللاهوتي ، لكنه خسر هذا الدور الآن على أنه توجد بوادر للنهضة . ولقد أُعيد فتح

المدرسة الآثانية اللاهوتية السنة الـ ١٩٥٣ على أمل استقطاب نوع جديد من المبتدئين لإعدادهم. والأب ثيوكليتوس من دير ديونيزيو يقصد بانتظام إلى أثينا وسالونيك ويتكلم في اجتماعات عامة. وقد وضع كتاباً مهماً بعنوان «بين السماء والأرض» عن الحياة الرهبانية، كما كتب دراسة عن القديس نيقوديموس الآثاني. والأب جبرائيل الذي رأس دير ديونيزيو لسنوات عديدة معروف بدوره وهو شديد الاعتبار في كل بلاد اليونان.

على أنه من الخطأ أن نحكم على جبل آثوس أو أي مركز رهباني آخر انطلاقاً من عدد أفراده أو نوعية إنتاجهم الأدبي. فالعبرة ليست في الحجم أو مدى التفقه بل في نوعية الحياة الروحية. وإذا ما صادفنا في جبل آثوس اليوم بعض الدلائل المقلقة على التدهور، فإننا نعثر أيضاً فوق هذا الجبل المقدس على رجال صلاة، وعلى نسّاك وقديسين حسب التقليد الأرثوذكسي في أشد أشكاله طهارة. أحد هؤلاء الرهبان، الأب سلوان (١٨٦٦ - ١٩٣٨) الذي عاش في دير القديس بندلايمون الروسي. كان من أصل فلاح بسيط متواضع وبدت حياته في ظاهرها هادئة لا تعرف المشاكل، إلاّ أنه خلّف وراءه تأملات عميقة مؤثرة وقد نقلت إلى لغات عديدة[1]. راهب آخر هو الأب يوسف الذي توفي السنة الـ ١٩٥٩ وهو يوناني عاش حياة نسكية في «المنسك الجديد» في جنوب جبل آثوس، وجمع حوله عدداً من الرهبان الذين كانوا يمارسون تحت إشرافه تلاوة صلاة يسوع باستمرار. وطالما أن جبل آثوس يضمّ رجالاً من أمثال يوسف وسلوان فإنه لن يتوانى قط عن رسالته.[2]

١ - انظر كتاب الأرشمندريت سوفروني The Undistorted Image: Staretz Silouane, London, 1958. أنصح بإلحاح بقراءة هذا الكتاب الممتاز لأولئك الذين يريدون تكوين فكرة عن الروح الرهبانية الأرثوذكسية وعن الحياة فوق جبل آثوس. انظر أيضاً كتاب «الراهب سلوان والحرب اللامنظورة»، لديفو بارسوتي، منشورات النور.

٢ - يصف هذا النص وضع جبل اثوس كما كان في السنوات ١٩٦٠ - ١٩٦٦. ولقد تحسن

كنيسة فنلندا

الكنيسة الأرثوذكسية الفنلندية تعود بأصلها إلى عدد من الرهبان قدموا في القرون الوسطى من دير فالامو الروسي على بحيرة لادوغا وقاموا بتبشير القبائل الفنلندية في كاريليا . وظلّ الأرثوذكسيون الفنلنديون تابعين للكنيسة الروسية حتى الثورة ، إلاّ أنهم أصبحوا ابتداء من السنة الـ ١٩٢٣ تحت الإشراف الروحي لبطريرك القسطنطينية . ولم تذعن الكنيسة الروسية لهذا الأمر حتى السنة ١٩٥٧ . الفنلنديون في معظمهم لوثريون ولا يشكل ما مجموعه ٦٦ ألف أرثوذكسي فنلندي سوى ١,٥ بالمئة من مجمل السكان . ويوجد في كيوبيو مدرسة إكليريكية أرثوذكسية . « لعل الكنيسة الأرثوذكسية الفنلندية مدعوة لتلعب دوراً بارزاً في الشهادة الأرثوذكسية في الغرب ، نظراً لنشاط شبيبتها واهتمامهم بالاتصالات الدولية والمسكونية ، ورغبتهم في الظهور بمظهر الجماعة الغربية الأوروبية مع الحفاظ على التقاليد الأرثوذكسية » [١] .

بطريركية الاسكندرية

كانت بطريركية الاسكندرية تكوّن كنيسة صغيرة منذ انفصال «غير الخلقيدونيين»، أي حين أقدمت غالبية المسيحيين المصريين في القرن الخامس على رفض مجمع خلقيدونيا. ويوجد في مصر اليوم حوالي ١٠ آلاف أرثوذكسي[٢]، ولعلّ هناك بين ١٥٠ و٢٥٠ ألف موزعين في

= الحال منذ ذلك الوقت بشكل ملحوظ. على الرغم من ان الاديرة غير اليونانية لم تستطع ان تستقبل العديد من الرهبان الجدد، فقد شهدت الاديرة اليونانية ازدياداً مثيراً في عدد ونوعية رهبانها. وتجدر الملاحظة ان العديد من هؤلاء الرهبان موهوب وعلى مستوى من الثقافة عال وتلاحظ هذه النهضة بصورة خاصة في اديرة سيمونوس بيترا وفيلوثيو وغريغوريو وستافرونيكيتا. ويرأس كل هذه الأديرة اباء روحيون من الدرجة الأولى.

١ ـ الأب جان ميندورف في كتابه « الكنيسة الأرثوذكسية أمس واليوم »، باريس، ١٩٦٠ .

٢ ـ غالبيتهم عرب متحدرون من أصل لبناني أو سوري .

كل أفريقيا. رأس كنيسة الاسكندرية يحمل رسمياً لقب «بابا وبطريرك»، فالعرف الأرثوذكسي لا يحصر لقب البابا بأسقف رومية .

والبطريرك وغالبية أفراد الإكليروس يونانيون . والقارة الإفريقية بمجملها تابعة للبطريرك ، وبما أن الأرثوذكسيين باشروا بنشاط تبشيري في أفريقيا الوسطى، فمن الممكن أن تعرف كنيسة الاسكندرية انتشاراً جديداً غير منتظر في غضون مستقبل قريب . (عن أعمال التبشير في أفريقيا، انظر الفصل التاسع).

بطريرك إنطاكية

تعدّ بطريركية إنطاكية ما يقارب ٥٥٠ ألف أرثوذكسي في سوريا ولبنان ، وحوالي ١٥٠ ألف في العراق وأميركا . والبطريرك مقرّه دمشق وهو عربي الجنسية منذ السنة الـ ١٨٩٩ . قبل هذا التاريخ كان يونانياً وكذلك كان الإكليروس العالي ، لكنّ غالبية الإكليروس الرعائي كانت على الدوام عربية وكذلك رعايا البطريركية .

الأب جورج خضر[1] وهو أرثوذكسي بارز من لبنان أبدى منذ حوالي أربعين سنة هذه الملاحظة : «سوريا ولبنان هما بمثابة بقعة قائمة بين البلدان الأرثوذكسية»، وفي الواقع أنه إلى وقت قريب جداً كانت بطريركية إنطاكية تعتبر نموذجاً «للكنيسة النائمة». لكنها تبدي اليوم إشارات النهضة وذلك بنوع خاص نتيجة عمل «حركة الشبيبة الأرثوذكسية»، وهي عبارة عن تنظيم ملهم نشأ على يد جماعة صغيرة من

١ ـ مطران جبيل والبترون (جبل لبنان) حالياً . راجع مؤلفاته الصادرة عن منشورات النور : إنطاكية الجديدة ، فلسطين المستعادة ، حديث الأحد ، الصوم ، تأملات في تجسد الكلمة ، هل الدين أفيون الشعوب، الكنيسة والعالم ، كلمات إنجيلية ، ثماني كلمات في الرعاية، الأرثوذكسية في الكراس الشرقية، آراء ارثوذكسية في الكنيسة، الكنيسة والدولة، الرؤية الارثوذكسية لله والانسان، الفقر والغنى في الكتاب المقدس وعند الآباء، إلى جانب مقالات عديدة في مجلة النور ومجلات عالمية أخرى (الناشر).

الطلاب في السنة الـ ١٩٤٢ . تنظّم حركة الشبيبة هذه دروساً في التعليم الديني وحلقات كتابية، كما أنها تصدر مجلة دورية ومنشورات عديدة باللغة العربية[١] . تعني الحركة أيضاً بالأعمال الاجتماعية، ومحاربة الفقر وتقدمة المعونة الطبية . وتحث على الوعظ وتسعى لتشجيع المناولة المتكررة. بتأثير هذه الحركة ، نشأت جماعتان رهبانيتان، صغيرتان إنما تتمتعان بأهمية كبيرة ، واحدة قرب طرابلس والثانية في دير الحرف[٢] . وكما في مراكز التبشير الداخلي في اليونان يلعب العلمانيون دوراً بارزاً في حركة الشبيبة الإنطاكية .

بطريركية أورشليم

احتلت على الدوام مركزاً مميزاً في الكنيسة ، إذ لم تكن قط كبيرة من الناحية العددية ، لكن حماية الأماكن المقدسة كانت وظيفتها المنتقاة . وكما في إنطاكية يشكل العرب غالبية أعضائها ، ويبلغ تعدادهم ١٠٠ ألف. قبل حرب السنة الـ ١٩٤٨ كانت البطريركية تضم ٥٠٠٠ يوناني فقط أمّا اليوم فقد تناقص هذا العدد (حوالي ٥٠٠ إلى ١٥٠٠) . إلاّ أن بطريرك القدس لا يزال يونانياً ، وأخوية القبر المقدس التي تسهر على الأماكن المقدسة ، جميعها تحت إشراف يوناني .

قبل الثورة البلشفية ، لعب تدفق الحجاج الروس دوراً مهماً في حياة الكنيسة في فلسطين الأرثوذكسية ، إذ كان حوالي ١٠ آلاف منهم يقيمون في المدينة المقدسة دفعة واحدة في غالب الأحيان . وكان معظمهم فلاّحين متقدّمين في السّن يعتبر الحج الحدث الأسمى في حياتهم . وبعد مسيرة طويلة ، تمتد أحياناً عدّة آلاف من الكيلومترات عبر روسيا ، كانوا يستقلون المركب في بلاد القرم ويعبرون البحر

١ ـ «منشورات النور» و« مجلة النور » ص. ب. ١١٢٩٦٦ ، بيروت ، لبنان (الناشر).

٢ ـ دير مار يعقوب دده ودير مار جرجس الحرف (الناشر).

الأسود في ظروف قد تبدو لنا اليوم فائقة الصعوبة إلى حدّ لا يصدق ، ساعين للوصول إلى القدس أيام الفصح . إن « الجمعية الفلسطينية الإمبراطورية » كانت في نفس الوقت الذي تعنى فيه بالحجاج تقوم بدور رعائي هام بين العرب الأرثوذكسيين وتشرف على عدد كبير من المدارس . هذه البعثة تضاءل دورها بكل أسف منذ السنة الـ ١٩١٧ ، لكنّها لم تختف نهائياً ، ولا يزال يوجد في القدس حتى الآن اثنان من الأديرة الروسية . ويستقبل هذان الديران مبتدئات عربيات .

كنيسة اليونان

كنيسة اليونان تتمتع بمكانة فريدة ، لأن اليونان هي البلد الوحيد الذي يعتنق الأرثوذكسية رسمياً ، وأرثوذكسيته ليست إسمية فقط . يقول أحد الكتّاب المعاصرين : « حينما يذكر كل شيء عن توسع الاهتمامات الزمنية واللامبالاة ، تبقى اليونان البلد المسيحي بالمعنى الذي لا يستطيع الغرب أن يكوّن عنه أي فكرة »[1]. تعدّ اليونان في إحصاء السنة الـ ١٩٥١ ، ٧,٦٣٢,٨٠٦ نسمة بينهم ٧,٤٧٢,٥٥٩ أرثوذكسياً .

الأبرشيات اليونانية اليوم صغيرة على غرار أبرشيات الكنيسة الأولى ويبلغ عددها ٧٨ (قارن مع روسيا قبل ١٩١٧ التي كانت تعدّ ٦٧ أبرشية لمئة مليون مؤمن) . مبدئياً ، وفي الواقع معظم الأحيان ، ليس الأسقف اليوناني مجرّد مدبر بعيد عن الناس ، بل هو شخص يسهل الوصول إليه ، وبمستطاع المؤمنين أن يجروا اتصالاً شخصياً معه . وهو بمتناول الفقراء والناس البسطاء ممّن يقصدونه طلباً للمساعدة المادية والروحية على حدّ سواء . والأسقف اليوناني لا يفوّض الكثير من

---

١ ـ بـ . هامون The waters of Marah ، ونلفت النظر لمقارنته مع شهادة إنكليزية أخرى : « بوصولنا في تشرين الأول من عام ١٩٤٤ إلى أثينا المحرّرة قبل فترة وجيزة ، حمل بعضنا انطباعاً واضحاً بأنه يدخل لأوّل مرة في حياته مدينة مسيحية » (د . ج . شيتي في: (The Christian East, new series, vol. 1 (1950) P .11

صلاحياته لكهنة الرعايا كما هي الحال بالنسبة للأسقف الغربي . ويحتفظ لنفسه بمهمة الوعظ خاصة ، علماً أنه يستعين بفئة من الرهبان أو العلمانيين المثقفين الذين يعملون بإشرافه .

لا يقوم إذاً في اليونان الإكليروس المتزوج على العموم بإلقاء العظات ، والأمر لا يثير التعجب إذا ما علمنا أن القلائل بين هؤلاء حتى الآن قد تلقوا تدريباً لاهوتياً منظماً . في روسيا ما قبل الثورة كان على جميع كهنة الرعايا أن يمروا في المدارس اللاهوتية ، أما في اليونان السنة الـ ١٩٢٠ فمن بين ٤٥٠٠ كاهن متزوج هناك أقل من ١٠٠٠ تلقوا تعليماً أعلى من المستوى الإبتدائي. حتى وقتنا الحاضر لا يزال الكاهن الريفي في اليونان قريباً جداً إلى المجتمع القروي . ويكون عادة من مواليد القرية التي يمارس فيها خدمته الكهنوتية . وبعد سيامته غالباً ما يتابع عمله السابق ، فإما أن يكون نجّاراً مثلاً أو إسكافياً أو مزارعاً في أغلب الأحيان . وهو ليس أرفع ثقافة من سائر المؤمنين من أبناء رعيته . ولم يمر أبداً على المدرسة الإكليريكية ، باستثناء بعض الحالات النادرة . كان لهذا النظام محاسنه الأكيدة ، وبصورة خاصة لم يخلق هوة ثقافية بين الراعي والرعية كما حدث في الغرب لقرون عديدة . أما الآن فالتطور العام للتعليم في اليونان خلال السنوات الأخيرة جعل التغيير ضرورياً . والكهنة اليوم مضطرّون لتلقي تدريب خاص ويبدو من المحتمل من الآن وصاعداً أن يعمد معظم المرشحين اليونانيين للكهنوت إن لم يكن كلّهم لمتابعة دراسات لاهوتية .

وتضمّ الجامعتان اليونانيتان في أثينا وتيسالونيكي كلتاهما معهداً للاهوت مرموقاً . وكثيراً ما يعجب غير الأرثوذكسيين حين يلاحظون أن غالبية الأساتذة في المعهدين من العلمانيين وأن أكثرية الطلاب فيهما ليس في نيتهم أن يصبحوا كهنة . أما بالنسبة للأرثوذكسيين فلا مجال للعجب لأن من الطبيعي عندهم أن يعنى العلمانيون باللاهوت . وكثير من

الطلاب يصبحون أساتذة للدين في المدارس الثانوية ، وهؤلاء المدرّسون هم الذين يختار الأسقف من بينهم وعّاظاً علمانيين . بعض هؤلاء الطلاّب فقط يصبحون كهنة رعية ، والبعض الآخر يصيرون رهباناً ، علماً أنهم لن يعيشوا في الدير بل يعملون عموماً مع مساعدي الأسقف أو يصبحون وعاظاً .

في اليونان ، أنتج أساتذة اللاهوت خلال السنوات الخمسين الماضية مجموعة ضخمة من المؤلفات . وخليق بنا هنا أن نذكر إسم خريستوس أندروتسوس مؤلف كتاب « اللاهوت العقائدي » وهو سفر مهم صدر السنة الـ ١٩٠٧ ، وبعده ترمبلاس ، وبراتسيوتيس ، وكرميريس ، وإيونيدس وايرونيموس كتسونيس الأخصائي في القانون الكنسي ورئيس أساقفة اليونان السابق . ولكن مع الاعتراف بالإنجازات الهامة التي قدّمها اللاهوت اليوناني ، فليس بوسعنا إنكار بعض نواقصه . وبالمقارنة مع أعمال المهاجرين الروس ، ثمة أعمال كثيرة أنتجها اليونانيون تشكو الجفاف والروح الأكاديمية بعض الشيء . إن الوضع الذي أتينا على ذكره في فصل سابق لا يزال قائماً حتى عصرنا الحاضر . ويبدو أن معظم اللاهوتيين اليونانيين ممّن تلقوا دروسهم في جامعة أجنبية (في ألمانيا معظم الأحيان) خضعوا لتأثير الفكر الديني للبلدان الأخرى وذلك على حساب تقليدهم الديني الأرثوذكسي الخاص . ويعاني اللاهوت اليوناني اليوم من حالة الطلاق القائمة بين الأديرة والحياة الفكرية للكنيسة . فهو لاهوت يلقى في قاعات المحاضرات ، لكنه ليس باللاهوت الصوفي كما في الحقبة البيزنطية ، حين كان يُعثر على اللاهوتيين في صوامع الأديرة تماماً كما في الجامعات . على أن اليونان كما يبدو بدأت من جديد تنظر إلى الأمور اللاهوتية بكثير من المرونة وتسعى أن تستعيد بصورة حياتية فكر آباء الكنيسة[1] .

١ ـ مع النهضة الحاصلة حالياً في جبل آثوس ، نلاحظ في ايامنا هذه تغييراً مثيراً في هذا المجال (الناشر) .

أما بالنسبة للحياة الرهبانية ، فإن الشحّ في عدد الرهبان الشباب ظاهرة مثيرة للقلق في القارة اليونانية كما فوق جبل آثوس ، والكثير من الأديرة التاريخية بات مهدّدا بالإقفال . والرهبان المثقفون قلائل جداً في الأديرة القائمة . لكنّ هذه اللوحة المتشائمة تنجلي بفضل بعض الإستثناءات المميزة إذ أن بعض الأديرة مستمرة في حالة إزدهار كبير ، مثال دير لونغوفردا الواقع على جزيرة باروس ودير القديس يوحنا الإنجيلي في باتموس الخاضع لإدارة البطريرك المسكوني . في شمالي اليونان ، بذل المتروبوليت ديونيسيوس مطران تريكالا جهوداً ملحوظة لإحياء الحياة الرهبانية في أديرة المتيورا ، وهي مجموعة من الأديرة المشيّدة على قمم جبال صخرية في أقاصي تساليا . وقد أمّ عدد من الرهبان الشباب معظمهم من خريجي الجامعات ، بعض هذه الأديرة . ولكن كثرة السواح جعل من المستحيل متابعة الحياة الرهبانية واضطر معظم هؤلاء الرهبان في السبعينات للذهاب إلى جبل آثوس .

ولكن في حين نجد أديرة الرجال في وضع متأزم ، نرى على عكس ذلك ازدهاراً في أديرة النساء حيث يتزايد عدد الراهبات . بعض الأديرة التي عرفت ازدهاراً كبيراً تعود بتاريخها لفترة غير بعيدة ، مثل دير الثالوث القدوس في إيجينا ويرجع تاريخ تأسيسه لعام ١٩٠٤ على يد القديس نكتاريوس (كيفالاس) متروبوليت بنتابوليس (١٨٤٦ - ١٩٢٠) . هناك أيضاً دير سيدة المعونة في خيوس الذي تأسس السنة الـ ١٩٢٨ ويعدّ ما يزيد على ثمانين راهبة . أما دير البشارة في باتموس الذي أسسه السنة الـ ١٩٣٦ الأب أمفيلوخيوس (توفي سنة ١٩٧٠ ولعلّه كان أعظم أب روحي شهدته اليونان في هذا العصر)، فيتبع له حتى الآن بيتان آخران، واحد في رودس والآخر في كاليمنوس[١] .

١ ـ جدير بالذكر هنا دير سيدة كيراتيا العظيم في آلاتيكا ، الذي تأسس السنة الـ ١٩٢٥ ، على يد أتباع التقويم القديم . ويعدّ الآن ما بين مئتين وثلاثماية راهبة .

وأعيد طبع عدد كبير جداً من المؤلفات الأساسية حول الروحانية الرهبانية في اليونان خلال السنوات الماضية بما في ذلك طبعة جديدة للفيلوكاليا . ويبدو أننا نشهد اليوم اندفاعاً للاهتمام بالكنوز الصوفية والروحية الأرثوذكسية ، الأمر الذي يبشّر بالخير بالنسبة لمستقبل الأديرة .

الفن الديني في اليونان يجتاز فترة سعيدة من فترات التحوّل . فالطراز الغربي الذي كان شاملاً في بداية القرن ، قد جرى التخلي عن معظمه من أجل العودة للتقليد البيزنطي القديم . وتمّ تزيين عدد كبير من كنائس أثينا وغيرها منذ مدّة وجيزة بالأيقونات والجدرانيات المنفذة بدقة حسب القواعد التقليدية . وكان على رأس هذه النهضة الفنية فوتيوس كونتوغلو ، (١٨٩٦ - ١٩٦٥) المعروف بأنه المحامي العنيد والحاد عن الفنّ البيزنطي . وتعليقه على النهضة الإيطالية أمر مميّز لوجهة نظره : « الذين ينظرون إلى الأشياء من ناحية زمنية ، سيقولون إنها كانت فترة تقدم ، لكن الذين لهم رؤية دينية فسيقولون إنها كانت فترة انحطاط »[١] .

وفي اليونان محجّة تذكّر كثيراً بمحجة لورد، هي جزيرة تينوس ، حيث السنة الـ ١٨٢٣ تم اكتشاف أيقونة عجائبية للعذراء تحمل السيد . وكانت هذه الأيقونة مدفونة في أساسات كنيسة مهدمة . ويقوم في هذا المكان اليوم مزار كبير يقصده الحجاج ويرتاده المرضى بنوع خاص وقد حصل فيه العديد من حالات الشفاء العجائبية . وفي عيد انتقال العذراء من كل سنة (١٥ آب) تغص الجزيرة بجمهور الزائرين .

ويلاحظ في الكنيسة اليونانية خلال السنوات الأخيرة نمو كبير

---

١ ـ ش . كافارنوس : الفن الديني البيزنطي : مختارات من كتابات الرسام اليوناني المعاصر فوتيس كونتوغلو ، نيويورك ، ١٩٥٧ ، ص ٢١ .

لحركات التبشير الداخلية المخصصة للأعمال الإنجيلية والتربوية . فالخدمة الرسولية ، (Apostoliki Diakonia) التي تأسست السنة ١٩٣٠ تشكل التنظيم الرسمي المهتم بالتبشير الداخلي . وتوجد أيضاً حركات مماثلة أسستها جهات خاصة مختلفة ولكنها تتعاون مع الأساقفة وسائر المراجع الدينية . هكذا هي « زويي » (Zoe) و« سوتير » (Sotir) و« اتحادات المسيحيين الأرثوذكسيين » وغيرها . « زويي » (ومعناها الحياة) أقدم هذه الحركات وأوسعها نفوذاً وأكثرها مثاراً للجدل في نفس الوقت . وتعرف أيضاً باسم « أخوية اللاهوتيين » وقد تأسست السنة الـ ١٩٠٧ على يد الأب أوسيبيوس ماتثوبولس . وهيَ في الواقع تنظيم شبه رهباني ، يتوجب على أعضائه أن يكونوا عازبين ، لكنهم لا يؤدّون النذورات وبإمكانهم أن ينسحبوا من الأخوية ساعة يشاؤون . ويشكل الرهبان ربع هذه الأخوية (وهم لا يعيشون عادة حياة الجماعة) والباقي علمانيون. وبوسعنا التساؤل عما إذا كانت بنية «زويي» الرهبانية تكوّن منطلقاً جديداً لتطور الكنيسة الأرثوذكسية في المستقبل. في الماضي كانت المهمة الرئيسية للراهب الشرقي هي الصلاة، ولكن ألا يمكن أن يظهر في الأرثوذكسية إلى جانب الرهبنة التقليدية طراز جديد من النظام الديني شبيه بطراز الدومينيكان والفرنسيسكان في الغرب، من شأنه أن يكرّس للنشاط التبشيري في العالم؟

إن حركات التبشير الداخلية هذه ، وخاصة « زويي » تشدّد على دراسة الكتاب المقدس والمناولة المتكررة ، كما أصدرت عدداً كبيراً من الكتب والمنشورات الدورية التي يجري توزيعها على نطاق واسع . ويمكن أن نحصي اليوم ٩٥٠٠ مدرسة تعليم ديني تحت إشرافها (في السنة الـ ١٩٠٠ لم يكن هناك سوى القليل منها)، ويقدّر أن ٥٥ بالمئة من الأطفال اليونانيين (وتتزايد النسبة في بعض الرعايا) يتابعون دروس

التعليم الديني بانتظام كما أن هذه الحركات ناشطة جداً في أوساط الشباب. ولكن، مع الاسف، تجدر الإشارة أن تأثير هذه الحركات قد خف كثيراً في السبعينات.

كنيسة قبرص

كنيسة قبرص القديمة مستقلة منذ مجمع أفسس (٤٣١) وتضم حالياً ٧٠٠ كاهن وأكثر من ٤٠٠ ألف مؤمن. والنظام التركي الذي جعل من رأس الكنيسة زعيماً مدنياً استمر البريطانيون باتباعه عندما احتلوا الجزيرة السنة الـ ١٨٧٨. وهذا ما يفسر النشاطات السياسية والدينية التي قام بها المطران مكاريوس رئيس أساقفة الكنيسة القبرصية السابق الذي كان في نفس الوقت رئيس جمهورية قبرص و رئيس الأمة» (Ethnarque).

كنيسة سيناء

هي مثار الانتباه في العالم الأرثوذكسي، إذ هي مكوّنة من دير واحد هو دير القديسة كاترينا الواقع على سفح جبل موسى.

ينتخب الرهبان رئيسهم ويرسمه البطريرك الاورشليمي اسقفاً عليهم.

ومن المحزن أن نلاحظ انه لا يوجد في الدير الآن سوى اقل من عشرين راهباً.

الفصل الثامن

القرن العشرون

الأرثوذكسية والإلحاد الثوري

«من يريد أن يراني سيمرّ بشتى الشدائد والضيقات»
(رسالة برنابا ٧، ٢)

« الهجمة على السماء »

حين استولى البلاشفة على السلطة في تشرين أول ١٩١٧ ، وجدت الكنيسة الروسية نفسها في وضع لم يسبق له مثيل في تاريخ الأرثوذكسية . على الرغم من اضطهادها للمسيحيين ، لم تكن الإمبراطورية الرومانية دولة ملحدة تحارب كل دين . كذلك كان الأتراك يعبدون الإله الواحد ، وكما رأينا عاملوا الكنيسة بشيء من التساهل. لكن الحكومة الشيوعية لا تكتفي بمجرّد فصل الكنيسة عن الدولة ، بل هي تعمل بصورة مباشرة أو غير مباشرة على تهديم حياة الكنيسة وانتزاع كل إيمان ديني . وقد كتب ستالين يقول : « لا يمكن للحزب أن يكون محايداً تجاه الدين ، بل يتابع حملته ضد كل المزاعم الدينية»[1]. هكذا كان يفكر السوفيات العام الـ ١٩١٧، وهكذا يفكرون

١ - المؤلفات ، موسكو ، ١٩٥٣ ، الجزء العاشر ، ص ١٣٢ .

اليوم . لكن في حين لم يتغير اعتقادهم هذا ، تغيّرت طرق تعاملهم مع الدين . فقد لجأوا أحياناً إلى الاضطهاد المباشر وفضّلوا أحياناً أخرى محاربة الدين بأساليب غير مباشرة .

والشروط التي نصّ عليها الدستور السوفياتي أصبحت أكثر فأكثر تشدداً. فدستور الـ١٩١٨منح « حرية الدعاية الدينية والدعاية المضادة للدين » (مادة ١٣) وعُدّلت هذه المادة السنة الـ ١٩٢٩ كالتالي : « حرية الإيمان الديني والدعاية المضادة للدين ». أما دستور السنة ١٩٣٦ (الساري المفعول) فيبيح « حرية العبادة الدينية والدعاية المضادة للدين » (مادة ١٢٤). وهكذا يعطي الدستور الكنيسة حرية العبادة ولكنه لا يعطيها حرية الدعاية والتعليم ، إذ أنها كما تعرّفها «الموسوعة السوفياتية الكبرى » « جمعية مؤمنين أنشئت بهدف العبادة الدينية فقط » .

ويشدد السوفيات على أمر العبادة عن وعي تام وقد سمحت الحكومة ابتداء من السنة ١٩٤٣ بنوع خاص ، باستمرار فتح عدد من الكنائس لإقامة الخدم الدينية ، علماً أنها أخضعت الكنيسة قبل وبعد السنة الـ ١٩٤٣ لسياسة مستمرة من الخنق الثقافي . فالكنيسة تستطيع أن تقيم الخدم لكنها لا تستطيع ممارسة الإحسان ولا يحق لها القيام بأي عمل اجتماعي . كما وبوسعها إعداد عدد من الطلاب للكهنوت لكنه من المحظّر عليها من ناحية أخرى القيام بأي نشاط تربوي . لنلقِ نظرة سريعة على نتائج هذا الوضع بالنسبة للمسيحيين الذين يعيشون في روسيا اليوم :

يجري تعليم الإلحاد مبدئياً في كل مدرسة ومع كل أستاذ :

« على كل معلّم سوفياتي أن يسير على هدي مبدأ الروح العلمية للحزب . وعليه ألاّ يكون غير مؤمن بالدين وحسب ، بل أن يكون

داعية نشيطاً لفكرة عدم وجود الله وعليه أن يكون رسول الأفكار الإلحادية الثورية البروليتارية . وبلباقة وهدوء ، بلباقة وإصرار ، على كل معلم سوفياتي - يوماً بعد يوم ومن خلال نشاطه في المدرسة وخارجها - أن يكشف الإدعاءات الدينية ويقضي عليها » [1] .

فكيف يمكن لكاهن الرعية أن يجابه هذه الدعاية المعادية للدين ؟ بوسعه أن يعظ أثناء الخدم في الكنيسة (والكهنة الروس اليوم ، على مثال الأب يوحنا الكرونستادي ، يثابرون على الوعظ باستمرار) ولكنه لا يستطيع القيام بأي تعليم ديني في أي وقت آخر أو بأية طريقة أخرى . ومن المحظر عليه إعداد حلقات للنقاش أو الدراسة ، سواء أكان ذلك موجهاً للشباب أو الكبار . وليس بإمكانه تجهيز رعيته بمكتبة ، لأن الكتب الوحيدة التي يُسمح بها في الكنيسة هي الكتب الطقسية . ولا يوجد لديه أية منشورات دينية يمكن له توزيعها على أفراد رعيته، لأن طبع مثل هذه المنشورات محظر جداً في روسيا اليوم. وليس بإمكانه حتى أن يعطي شعبه نسخاً من الكتاب المقدس، إذ أنه ليس متوفراً على نطاق واسع . في السنة الـ ١٩٥٦ ، أعطي للكنيسة الروسية الأذن، ولأول مرة منذ ١٩١٧ ، لطبع الكتاب المقدس، لكن عدد النسخ حدّد بخمسين ألفاً، بيع جزء كبير منها خارج روسيا. ونفدت الطبعة خلال أسابيع قلائل ولم تطبع من ثم مرّة أخرى. ولا يسمح للكاهن بتنظيم دروس للتعليم الديني، أو إقامة مدارس أحد، لأن القانون يمنع تعليم الأولاد في حلقات تضم أكثر من ثلاث. هناك أيضاً مادة في القانون الجزائي تعاقب بالسجن لمدة إثني عشر شهراً كل من يحاول ممارسة التعليم الديني في المدارس (المادة ٤، نقطة ١٢٢). وذلك لا يمكن بالطبع اعتباره حرية دينية.

١ - ف . ن . أوليشوك (وكان سابقاً أمين سر رابطة الملحدين الثوريين) في جريدة أوتشيتلسكايا ، ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٩ .

وتعليم الإلحاد في المدارس ليس الطريقة الدعائية الوحيدة التي يستخدمها الشيوعيون . فبعض الكنائس القديمة جرى تحويلها إلى «متاحف للدين والإلحاد» أقفل الكثير منها اليوم، لكن لا يزال بعضها مفتوحاً، لا سيما في كاتدرائية سيدة كازان في لينينغراد. وقد تمّ توزيع عدد هائل من المناشير الإلحادية ، بين السنة الـ ١٩٢٠ والـ ١٩٤٠ ، كما جاب عدد من المحاضرين أنحاء الاتحاد السوفياتي . أما «رابطة الملحدين الثوريين » التي قامت على أساس تنظيمي وطني ، فقد ألغيت السنة ١٩٤٢ ، ثم عادت لمزاولة عملها بعد الحرب الأخيرة باسم جمعية أخرى ، هي « الجمعية العامة لنشر المعارف العلمية والسياسية » التي تأسست السنة الـ ١٩٤٧ . والمنشورات الدورية والكراريس والمحاضرات لا تزال موجودة وإن بنسبة أقل مما كانت عليه في سنوات ما قبل الحرب . في السنة الـ ١٩٥٤ مثلاً ، ألقيت في الاتحاد السوفياتي ١٢٠،٦٧٩ محاضرة ضد الدين ، وفي السنة الـ ١٩٥٨ ارتفع هذا العدد إلى ٣٠٠,٠٠٠ . لكن الصحافة السوفياتية تبرز باستمرار احتجاجات على عدم الاهتمام الكافي بالدعاية المضادة للدين ، خاصة في جانب الشباب .

قبل الحرب الأخيرة ، كانت تشاهد في الشوارع مسيرات معادية للدين خاصة أثناء عيدي الفصح والميلاد . وقد كتب رجل شاهد إحدى هذه المسيرات ما يلي : « لم يعترض أحد . . . ولكن ابتعد الكل عن الطريق التي تمر بها المسيرة المثيرة . ويمكنني أن أؤكد . . إنه لم تثر تلك المسيرات أي اغتباط لدى الجماهير فكانت تسير في شوارع فارغة من المارة . وكل سعي تقوم به لإثارة الضحك أو الغضب كان يواجه بسكوت مملّ من قبل المشاهدين ».

يمكن اعتبار كل هذه الأساليب التي ذكرنا كطرق « غير مباشرة » لمحاربة الدين . ولكن الشيوعيين لجأوا إلى الاضطهاد المباشر أيضاً ،

وحتى « حرية العبادة الدينية » إذا ما نظرنا إلى تطبيقها من قرب ، تبدو ضعيفة جداً . عندما صدر المرسوم المتعلق بفصل الكنيسة عن الدولة الصادر في ٥ شباط ١٩١٨ ، لم يعد للكنيسة أي حق قانوني وقد انتزع منها المرسوم حق الملكية الخاصة وقد أمر بإقفال جميع المدارس الدينية ومعاهد اللاهوت (بعضها أعيد فتحه بعد السنة الـ ١٩٤٥) . كما أن جميع الكنائس والأراضي والرساميل الكنسية اعتبرت ملكا للدولة وبالتالي أعطي للسلطات المحلية حق السماح للرعايا باستعمال أماكن عبادتها السابقة . ولكن إذا شاءت هذه السلطات بناء لطلب العمال أن تقفل كنيسة ما ، فلا يمكن للمؤمنين أن يفعلوا أي شيء للاعتراض. وفي الفترة الممتدة من ١٩١٨ حتى ١٩٣٩ تمّ تحويل الكنائس إلى استعمال آخر على نحو منهجي وأقفل بعضها وهدم البعض الآخر ، في معظم الأحيان ضد رأي غالبية الشعب وفي بعض الأحيان بالرغم من معارضتهم الفعلية .

ويتعرض الشيوعيون للأشخاص أيضاً ولقد عانى مسيحيو روسيا بين الحربين العالميتين الكثير من المشقات . فبما أن ثورة ١٩١٧ كانت تحديداً ضد الدين ، اعتبر كل المسيحيين الممارسين في روسيا حكماً « معادين للثورة » وعوملوا كذلك . فقد حدث أن اعتقل ١٥٠ أسقفاً دفعة واحدة (قبل ١٩١٧ كان العدد الإجمالي لرؤساء الأبرشيات والأساقفة المعاونين أقل من ١٣٠ في كل أنحاء الإمبراطورية الروسية) . خلال العامي الـ ١٩١٨ والـ ١٩١٩ لاقى ٢٨ أسقفاً مصرعهم ، وبين ١٩٢٣ و١٩٢٦ قتل البلاشفة خمسين آخرين . كهنة الرعايا والرهبان عانوا بدورهم ويقول أحد الأساقفة الروس الذي كان في روسيا في ذلك الحين أنه حتى السنة الـ ١٩٢٦ ، هناك ٢٧٠٠ كاهن و٢٠٠٠ راهب و٣٤٠٠ راهبة والعديد من أفراد الإكليروس الآخرين ماتوا قتلاً . ويقدر الكتّاب الروس المهاجرون اليوم أنه منذ ١٩١٧ على الأقل ١٢ ألف من

الكهنة قد ماتوا قتلاً أو بسبب سوء المعاملة . ليس بإمكاننا بالطبع التأكد من صحة هذه الأرقام تفصيلياً ، لكنها على كل حال تشير إلى عدد كبير من الشهداء . كما ليس بالإمكان معرفة عدد العلمانيين الذين سجنوا وانتزعت ملكيتهم وماتوا من أجل إيمانهم .

ولكن ما الذي أحدثه كل ذلك في وضع الكنيسة ؟ ذلك أدّى في كثير من الأمكنة إلى إذكاء الحياة الروحية. فالمؤمنون الحقيقيون تجمعوا وقاوموا ببطولة وتواضع بعد أن تحرّروا من العناصر المعنية بهذا العالم فقط والأعضاء ذوي النوايا السيئة الذين لم يرتبطوا بالكنيسة إلا لأسباب سطحية أو اجتماعية . وقد كتب أحد المهاجرين الروس يقول : « في كل مكان تعرّض فيه الإيمان للتجربة ، فاضت النعمة بسخاء وتحققت عجائب مدهشة : الأيقونات راحت تتجدد أمام أعين المشاهدين المبهورة ، كما تلألأت قبب الكنائس بنور ليس من هذا العالم » ويضيف الكاتب نفسه :«إلا أن الأمر كاد يمر دون ملاحظة . . . فالجانب المجيد لما جرى في روسيا لم يجتذب اهتمام عامة الناس . . . والمسيح لو صُلب ودُفن مرّة أخرى لما جرت له محاكمة مختلفة عن تلك التي أجراها أناس عميت أبصارهم عن رؤية نور القيامة»[1] وليس من العجب أن نشهد التخلي عن الدين على نطاق واسع خوف الاضطهاد . ذلك أمر كان منتظراً كما يمكن انتظاره اليوم أيضاً . لكن من المدهش حقاً أن نرى كم بقي في الكنيسة رغم كل شيء .

---

١ ـ لوسكي، «اللاهوت الصوفي للكنيسة الشرقية» ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ . ولوسكي يتحدث هنا عن الأيقونات القديمة الباهتة التي استعادت لمعانها وألوانها السابقة فجأة في العديد من الاماكن التابعة للحكم الشيوعي وذلك دونما تدخل من جانب البشر .

العلاقات الرسمية بين الكنيسة والدولة في روسيا
موقف الرئاسة الكنسية

ليس بالإمكان التشكيك في إيمان الشهداء والمعترفين الروس الجدد . لكن سياسة الرئاسة الكنسية التي اتخذت بصورة تدريجية مواقف أكثر فأكثر مهادنة تجاه الحكومة الملحدة ، هي معرضة أكثر للنقد . هذه التحفّظات التي يمكن إبداؤها تجاه هذه الرئاسة ينبغي ألاّ تشم على كاهل مجمل الشعب الروسي الأرثوذكسي .

بلغ التقارب الرسمي بين الكنيسة والشيوعية شكله شبه النهائي بين ١٩٤٣ و١٩٤٥ . مذّاك لم يطرأ على العلاقات بينهما أي تغيير في أي شأن . وهذه لوحة عامة توضح الوضع الحالي :

١ ـ الكنيسة « موالية » للحكومة السوفياتية . ذلك لا يعني فقط أنها تمتنع عن توجيه أي انتقاد للسلطات ، بل تتعهد أيضاً بتقديم الدعم العملي للسياسة الشيوعية ودعايتها داخل البلاد وخارجها خاصة في مجال السياسة الخارجية . (الحرب الأهلية اليونانية ، كوريا ، هنغاريا الخ . . .) [1]

٢ ـ مقابل ذلك حدّت الحكومة من اضطهادها المباشر للكنيسة لكن بدون إيقافه تماماً . فإقفال الكنائس مستمر ، كذلك سَجن أفراد الإكليروس . لكن الحدة خفّت ابتداء من السنة الـ ١٩٤٥ ، وقلّت حوادث الاستشهاد الحقيقي .

ـ لطالما أثار دعاة بطريركية موسكو المؤيدة للسوفيات دهشة الأرثوذكسيين في البلدان الأخرى ، وخاصة أثناء الحرب الأهلية في اليونان ، وحين حمَل بطريرك موسكو على الكلام لصالح الأنصار الشيوعيين* الذين يدنسون الكنائس الأرثوذكسية ويصلبون كهنتها .

٣ ـ لم تلغ سياسة التضييق الثقافي ، فلا يزال الاتحاد السوفياتي يعتبر الدين عدواً تنبغي محاربته على الصعيد الايديولوجي ، في حين لا تتمتع الكنيسة بوسائل الدفاع عن نفسها .

٤ ـ للكنيسة نظرياً حرية الحكم الذاتي . وفي الواقع ان لدى الدولة أكثر من سبيل للتدخل في الشؤون الدينية.[١]

ولننظر كيف أصبح عليه الوضع الراهن . في البداية اتخذ البطريرك تيخون موقفاً حازماً تجاه البلشفيك . في أوّل شباط ١٩١٨ حرم أولئك الذين سماهم «أعداء المسيح السافرين منهم والمتسترين» و «الحكام الكافرين في هذه الحقبة المظلمة» وقال: «باسم السلطة التي منحنا إياها الله نحرّم عليكم الاقتراب من الأسرار المقدسة ، وإذا كنتم لا تزالون تعتبرون أنفسكم مسيحيين ، فنحن نحكم عليكم بالحرم . . . أما أنتم ، يا أبناء الكنيسة البررة فندعوكم للذود عن أمكم المقدسة التي تتعرض اليوم للإهانة والضغط . . . وإذا كان عليكم أن تتألموا في سبيل المسيح . . . فنحن ندعوكم للإلتحاق بنا على طريق العذاب . . . وأنتم يا أخواني الأساقفة والكهنة . . . نظموا على الفور الجمعيات الدينية ، وادعوهم كمحاربين روحيين أن يقاوموا القوى المادية بقوة الروح . ونحن نؤمن بإصرار بأن أعداء كنيسة المسيح سيتحطمون ويتشتتون بقوة الصليب ، لأن وعد ذاك الذي صعد على الصليب لن يتغيرّ أبداً : « أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » (متى ١٦ : ١٨) .

---

١ ـ هذا التحليل (مع بعض التعديلات) عن مقال كتبه ن . س . تياشيف بعنوان « الكنيسة الأرثوذكسية الروسية اليوم » في Saint Vladimir's Seminary Quarterly الجزء الثاني (سلسلة جديدة) رقم ٣ ، (١٩٥٨) ص ٤٠ ـ ٥٠ ، نيويورك .

وأقر هذا الحرم مجمع كل روسيا الذي انعقد السنة ١٩١٧ - ١٩١٨ ولم يلغ بعد ذلك أبداً . وفي السنة الـ ١٩١٨ ، أدان تيخون علناً مصرع الإمبراطور نيقولا الثاني ، كما كتب بمناسبة الذكرى الأولى لثورة تشرين : « ليس لنا أن نحكم على السلطات الزمنية . . . ولكن اصغوا إلى تنبيهنا ، أنتم الذين تستخدمون سلطتكم لاضطهاد وتدمير الأبرياء : احتفلوا بذكرى استلامكم السلطة بإطلاق سراح المساجين ، ووقف إراقة الدماء والعنف والجموح ، وإلغاء القيود على الدين . لا تستسلموا للهدم ، بل رسّخوا النظام والقانون . أوقفوا الحرب الأهلية ، امنحوا الشعب الهدنة التي يريدها ويستحقها . وإلا فإن الدم البريء الذي أرقتموه سيصرخ في وجوهكم ، « لأن كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون (متى ٢٦ : ٥٢)» .

وعلى الرغم من عنف تصريحاته ، لم يتخذ تيخون موقفاً حول أي مسألة سياسية بحتة . فقد أدان إراقة الدماء والمظالم ، ووقف في وجه الهجمات التي تعرّضت لها الكنيسة ، لكنه لم يقدم قط على إدانة التدابير الاجتماعية والاقتصادية التي اتخذها الشيوعيون . كما حرم البلاشفة ، ليس لأنه كان على خلاف سياسي معهم ، بل لأنهم أعلنوا إلحادهم . وحضّ المؤمنين على المقاومة ، ولكن ليس بالسلاح بل بالقوى الروحية .

إلا أن موقف تيخون على الرغم من عدم تدخله في الأمور السياسية لم يرق أبداً للشيوعيين . فهم إذا لم يستطيعوا القضاء على الإيمان دفعة واحدة ، فإنهم رغبوا على الأقل بإخضاع الكنيسة قدر المستطاع لسلطتهم . ولعلهم وجدوا أن كنيسة خاضعة لهم أفضل من عدم وجود كنيسة . وفي الوقت الذي كانوا فيه يهاجمون الأرثوذكسية من الخارج - بواسطة الدعاية الإلحادية ، وإغلاق

الكنائس ، وقتل الكهنة أو سجنهم ـ كانوا كذلك يضغطون على حياة الكنيسة الداخلية . فسجن تيخون من أيار ١٩٢٢ حتى حزيران ١٩٢٣ . وفي الوقت الذي دخل فيه السجن أرغم على تفويض صلاحياته لمجموعة من الكهنة المتزوجين الذين كانوا بدون علمه يعملون بإشراف الشيوعيين . هذه الجماعة ، التي عُرفت باسم « الكنيسة المتجددة » أو « الكنيسة الحية » . . . وضعت برنامجاً متكاملاً من الإصلاحات الإكليريكية . وكان البعض منها منافيا تماماً للقانون الكنسي (الأساقفة المتزوجون مثلا) . ولكن على الرغم من أن البعض الآخر من هذه الإصلاحات لم يكن سيئاً بحد ذاته ، فإن مجمل الحركة قد فسدت نتيجة طابعها الشيوعي السرّي . وما أن علم تيخون بالذي يحصل حتى أدان « الكنيسة الحية » ورفض القيام بأي اتصال معها . لكن العديد من الكنائس الأرثوذكسية في الخارج انخدعت. وفي السنة الـ ١٩٢٤ اعترف بطريرك القسطنطينية « بالكنيسة الحية » كالممثل الشرعي للكنيسة في روسيا. ولكن في داخل البلاد، أوضح معظم المؤمنين طبيعة هذه الكنيسة ولم يتعاونوا معها أبداً. من هنا فقدت بسرعة كل اهتمام بها من قبل الحكومة حيث أنها لم تعد تستطيع استخدامها لأغراضها الخاصة . وانقسمت «الكنيسة الحية» تدريجياً لعدة فئات، وفقدت كل أهميتها بعد السنة الـ ١٩٢٦ . وبذلك فشلت أول محاولة قام بها الشيوعيون لإنشاء حزب خاضع لمصالحهم داخل الكنيسة .

إلا أن الشيوعيين تابعوا ضغوطهم على الكنيسة . ولا ندري أي «غسل دماغ » تعرّض له تيخون خلال فترة سجنه ، لكنه حين غادر السجن بات يتكلم على نحو أكثر مهادنة مما كان عليه العام الـ ١٩١٧ و١٩١٨ ، ولا سيما في «اعترافه» (الذي أصدره بعيد خروجه من السجن)

وفي «وصيته» الموقّعة في يوم وفاته، ٧ نيسان ١٩٢٥[١]. وبفحص هذه الوثائق بإمعان، يلاحظ، رغم اختلاف اللهجة، عدم وجود اختلاف مبدئي مع التصريحات السابقة. فقد ظل كما كان في تصريحاته السابقة بعيداً عن السياسة. وهذا ما عبّر عنه في السنة الـ ١٩٢٣:

« إن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ليس لها مواقف سياسية، وبالتالي لا تريد أن تكون كنيسة حمراء ولا كنيسة بيضاء. بل ينبغي لها أن تكون وستكون الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية، وجميع المحاولات المؤدية إلى جرّها نحو الصراع السياسي، يجب رفضها وادانتها من أية جهة أتت».

وعلى الرغم من المحاولات التي بذلتها الشيوعية للتسرب إلى الكنيسة وضربها من الداخل، فإن تيخون ظل مصرّاً على فصل الكنيسة عن الدولة بشكل واضح. كان يريد كنيسة محايدة سياسياً، ولكنها غير خاضعة للدولة. وسعى حتى آخر أيامه الى حفظ الحياة الداخلية للأرثوذكسية الروسية في منأى عن كل تدخل.

كان تيخون يدرك أن من الصعب جدا انعقاد مجمع آخر بمثل الحرية التي عقد فيها مجمع ١٩١٧ لكي يُصار الى انتخاب من يتولى السدة البطريركية بعد وفاته. ومن أجل تأمين الخلافة في البطريركية، أقدم على تعيين ثلاثة قائمقامين للعرش البطريركي هم: المتروبوليت كيرلّس والمتروبوليت أغاثنجل والمتروبوليت بطرس. الأوّلان كانا في السجن عند وفاة تيخون، فأصبح بطرس متروبوليت كروتتسي قائمقاماً بطريركياً في نيسان ١٩٢٥. وفي كانون الأول ١٩٢٥، تم اعتقال

١ ـ يشك العديد من الكتّاب الروس في صحة هذه « الوصية » ويعتبرون أنها تزوير سوفياتي. فقد مات تيخون فجأة وفي ظروف غامضة لعلّه استشهد، لكنه على أي حال معترف للإيمان وعظيم الاحترام من قبل الأرثوذكسيين في داخل البلاد وخارجها (على أنه لم تعلن قداسته رسمياً حتى الآن).

بطرس وأُرسل الى سيبيريا حيث ظل حتى وفاته السنة الـ ١٩٣٦ . بعد اعتقال بطرس تولىّ سرجيوس (ستاروغورودسكي) متروبوليت نجني نوفغورود إدارة البطريركية واتخذ لنفسه لقب «نائب القائمقام». وقد سبق لسرجيوس ان كان عضواً في «الكنيسة الحية» العام الـ ١٩٢٢، لكنه عندما أعرب عن ولائه لتيخون السنة الـ ١٩٢٤ أعيد الى وظيفته السابقة.

سار سرجيوس في البداية على الخط الذي رسمه تيخون في آخر سنوات ولايته . فمع إشارته الى أن الكنيسة تحترم قوانين الاتحاد السوفياتي ، قال في تصريح أدلى به في ١٠ حزيران ١٩٢٦ أنه لا يجوز أن يُنتظر من الأساقفة أن يقدموا على أي عمل لإثبات ولائهم للدولة . قال : « ليس بمستطاعنا القبول بلزوم مراقبة الاتجاهات السياسية لأبناء رعيتنا » . ذلك يعني في الواقع طلبا جديدا للانفصال الفعلي بين الكنيسة والدولة . بهذه الطريقة كان سرجيوس يتطلع الى المحافظة على الكنيسة بعيدا عن السياسية ورفض بالتالي أن يجعل منها عميلة للسياسة السوفياتية . في التصريح نفسه تحدث عن عدم التطابق و«التناقضات» الموجودة بين المسيحية والشيوعية . « سنبقى من الناحية الدينية كما نحن عليه أعضاء في الكنيسة التقليدية ولن نعد بتوفيق ماهو غير قابل للتوفق، ولن نعمد الى طلاء عقيدتنا ببعض المساحيق من أجل التوفيق بينها وبين الشيوعية».

لكن سرجيوس غيّر موقفه العام الـ ١٩٢٧ وهو العام الحاسم في العلاقات بين الكنيسة والدولة في روسيا . فقد سجن ابتداء من كانون الأول ١٩٢٦ حتى أيار ١٩٢٧[1] ، وبعد اطلاق سراحه طلب الى

١ ـ لعلّه خضع لعملية «غسل دماغ» كما جرى لتيخون . ينبغي لنا التنبّه لهذا الاحتمال قبل الحكم على سلوك سرجيوس اللاحق .

السلطات السوفياتية الاعتراف بشرعية السينودس البطريركي الذي يرئسه والسماح له بالاقامة في موسكو وبسرعة كان له ما أراد (ايار ١٩٢٧) . ذلك كان تطورا مقلقا في الموقف لأن هذا الاعتراف فتح في الواقع الباب لتدخّل السلطات السوفياتية في شؤ ون الكنيسة . وفي ٢٩ تموز ١٩٢٧ أدلى سرجيوس بتصريح جديد ، عظيم الدلالة بما تضمنه من فارق في اللهجة بالمقارنة مع تصريح العام الفائت. لم يتحدث عن « التناقضات » بين المسيحية والشيوعية ، ولم يعد يطالب بفصل الكنيسة عن الدولة ، بل إنه على العكس من ذلك دعا لمشاركتها قدر الامكان :

« نريد أن نكون أرثوذكسيين ونعترف في نفس الوقت بالاتحاد السوفياتي وطناً لنا . فتكون أفراحه أفراحنا وانتصاراته انتصاراتنا وفشله فشلنا . . . والضربة التي توجه للاتحاد السوفياتي . . . هي ضربة لنا » .

ففي حين رفض سرجيوس السنة الـ ١٩٢٦ مراقبة الاتجاهات السياسية التي يتخذها رعاياه ، فها هو يطلب اليوم الى الاكليروس الروسي في الخارج توقيع « تعهد خطي يقضي بالولاء التام للحكومة السوفياتية » .

تصريح سنة ١٩٢٧ هذا أقلق العديد من الأرثوذكسيين في روسيا وفي الخارج . وبدا أن سرجيوس اساء الى الكنيسة كما لم يفعل تيخون قط . وفي عدم تفرقته بين الكنيسة وبين حكومة عازمة على قلب كل ديانة ، بدا وكأنه يرضى بما رفضه العام الـ ١٩٢٦ ، أي توفيق ما لا يقبل التوفيق . إن انتصار الالحاد سيكون بلا شك بمثابة فرح وانتصار للدولة السوفياتية ، فهل يكون انتصارا وفرحا أيضاً للكنيسة ؟ وحل رابطة

الملحدين الثوريين سيكون ضربة مسيئة للحكومة الشيوعية ، ولكن لا يمكن اعتباره ضربة مسيئة للكنيسة. . . وكيف يطلب من الاكليروس في المهاجر وعداً بالولاء التام للحكومة السوفياتية في حين أن العديد منهم قد أصبحوا مواطنين في البلدان التي تبنتهم؟ ولم يكن اذن من المستغرب أن يعمد المتروبوليت أنطوان خرابوفتسكي المتقدم بين اساقفة «الكنيسة الروسية في المنفى » للردّ على سرجيوس : « أية شركة للنور مع الظلمة . وأي اتفاق للمسيح مع بليعال . وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمن » (٢ كو٦ : ١٤ ـ ١٥) وتابع قائلا : « لا تستطيع الكنيسة أن تبارك ما هو معاد للمسيحية ، ولا تستطيع مطلقا أن تبارك سياسة إلحادية » . كذلك رفض المتروبوليت افلوجي الذي كان قد اعتبره تيخون ممثلا له في أوروبا الغربية إرسال تصريح خطي قائلاً إنه حرص دائما على تجنيب الكنيسة الأمور السياسية وإنه سوف يستمر على هذا الرأي .

كان ردّ الفعل حاداً أيضاً في داخل روسيا ، فبعضهم وافق سرجيوس ولكن الكثيرين أبدوا معارضتهم له . ولو أنه دعا لعقد مجمع السنة الـ ١٩٢٧ فمن المشكوك فيه أنه كان سيحوز على الأكثرية . والمعارض الرئيسي لتصريح سنة ١٩٢٧ كان القائمقام البطريركي نفسه المتروبوليت بطرس ، وقد نقل عنه هذا القول : « كان لي بك الثقة بالمتروبوليت سرجيوس) ، أما الآن فأرى أنني أخطأت » . ويبدو أنه كتب لسرجيوس يقول : « إذا كنت تفتقر للقدرة اللازمة لصون الكنيسة ، كان عليك أن تنسحب وتوكل مهمتك لمن هو أقوى منك » . ورفض بطرس متروبوليت كروتتسي حتى آخر حياته الموافقة على تصريح عام ١٩٢٧ ، على الرغم من كافة الوعود بالافراج عنه في حال موافقته . وبما أن سرجيوس كان نائبا لبطرس ، فمن الصعب التحديد

بدقة مدى السلطة الواقعية لتصريح سرجيوس من دون موافقة بطرس. وتعرّض هذا التصريح ايضاً للانتقاد من قبل قيادات كنسية اخرى، لا سيّما من جانب كيرلّس متروبوليت كازان وأغاثنجل متروبوليت ياروسلاف (وهما اللذان عيّنهما تيخون قائمقامين، بالمشاركة مع بطرس)، ويوسف متروبوليت بطرسبورج، وسيرافيم رئيس اساقفة كستروما. ومعظم مستنكري تصريح سرجيوس قضى عليهم البوليس السرّي ولم يُكتب لمعارضتهم أن تظهر للعيان لأنها خنقت في المهد.

والمعارضة الحازمة المفعمة بالوقار والتي أبداها الأساقفة سجناء سولوفسكي على البحر الأبيض في الدائرة القطبية، كانت لها أهمية خاصة. لقد ظلّوا أوفياء لمبادىء تيخون ومبادىء سرجيوس قبل ١٩٢٧ وأعربوا عن ولائهم المطلق للدولة في الأمور الزمنية، لكنهم طالبوا بإجراء فصل حقيقي بين الكنيسة والدولة، فصل من شأنه احترام حرمة الكنيسة الداخلية. وشدّدوا على عدم التوافق بين الايديولوجية الشيوعية والعقيدة المسيحية.

وأولئك الذين لم يكن في وسعهم الموافقة على تصريح سرجيوس، الذين آمنوا بأن الكنيسة تضحّي باستقلالها إن هي قدّمت للسوفيات التنازلات المطلوبة، لم يكن أمامهم سوى خيار واحد، ألا وهو العمل السرّي، «الاختفاء في الدياميس»، حيث يتمكنون من ممارسة إيمانهم بعيداً عن أعين سرجيوس وتدخّل السلطات السوفياتية. وأسهم مكسيموس مطران سربوخوف مساهمة فعّالة في تنظيم «كنيسة الدياميس». وقبل أن يصبح راهباً كان يدعى ميخائيل شيشيلنكو ومهنته الطب. وكان طبيب البطريرك تيخون الخاص وصديقه الشخصي. ويقول مكسيموس أن تيخون توقع تزايد التدخل الشيوعي في حياة

الكنيسة فأوصى مكسيموس بتكوين منظمة دينية في الخفاء إذا بلغ ضغط الدولة على الكنيسة حداً لا يطاق . وفي السنة الـ ١٩٢٧ عمل مكسيموس بوصية تيخون وبصورة سرّية رُسم راهباً ومن ثم أسقفاً . وقد أوقف وأُعدم السنة الـ ١٩٣٠ ، ولكن تابع عمله آخرون .العديد من الأساقفة والرهبان والكهنة المتزوجين كانوا يعملون كسائر الناس نهاراً ثم يجتمعون ليلاً أو في الصباح الباكر ليقيموا حيثما استطاعوا الخدم الالهية بشكل سرّي[1] .

ولم يحد سرجيوس عن موقفه أبداً رغم المعارضة التي وقفت في وجهه ،وتابع الطريق الذي بدا له صحيحاً . وحملته الدولة على تقديم تنازلات مهينة ، من بينها إشاعة الأنباء غير الصحيحة عن « الحرية الدينية » . وذهب الى حدّ التصريح الى صحافيين أجانب السنة الـ ١٩٣٠ بأن الاتحاد السوفياتي لم يعرف أنواع الاضطهاد الديني على الإطلاق . ومن المحتمل أن تكون قد نُشرت أشياء كثيرة باسمه بدون موافقته أو بدون علمه . وسعى البعض لتبرير مواقفه قائلين بأنه أخذ على عاتقه هذا النوع من « الاستشهاد » وساير حتى الكذب من أجل انقاذ رعاياه من الدمار . في حين رفض البعض الآخر مثل هذا التفسير مصراً على شعوره بأن سرجيوس أدخل الكنيسة في دوامة سياسة من الخداع المنظّم القاتل لروحها . وعبّر رئيس «الكنيسة الروسية في المنفى» المتروبوليت أنستازي عن رأيه في هذا الموضوع على هذا النحو:

« سيشعر أحفادنا بالخجل حين يقارنون في المستقبل بين لغة

١ ـ «كنيسة الدياميس» دعيت أيضاً« كنيسة تيخون » لأنها تدّعي أنها الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الحقيقية والمكملة لعمل البطريرك تيخون . ودعيت الكنيسة التابعة لسرجيوس على لسان الفلاّحين كنيسة « إركع على قدميك واعبدني » نسبة لكلام الشيطان للسيد المسيح (متى ٤ : ٩) .

رؤسائنا الروحيين الحاليين في توجّههم لأصحاب السلطان ، وبين اللغة التي توجّه بها المسيحيون الأوائل لأباطرة الرومان وممثليهم. . . حتى أعلى الرؤساء الروحيين مقاماً ممّن يتولّون أضخم المسؤوليات لم يتورعوا - من أجل إرضاء السلطة السوفياتية - عن إشاعة اكذوبة فاضحة بقولهم إنه لم يحدث في روسيا أي نوع من الاضطهاد الديني في ظلّ الحكم السوفياتي. وبذلك يرتكبون خطيئة كبرى ، خطيئة الاستهزاء بقافلة الشهداء الروس ، بإطلاق اسم المجرمين السياسيين عليهم بشكل صريح .

فعندما يقدم من هو مدعو أن يكون شاهداً أميناً للمسيح على الكذب، عن عمد ، على ضميره وعلى البشر وعلى الله ، يكون في الحقيقة قد ارتكب الخطيئة ضد الروح القدس . . . وليس من قبيل العبث أن نسمع تعابير « الكنيسة السوفياتية » و« البطريرك السوفياتي » تتردد بشكل مألوف على ألسنة الروس » .

في البداية ، لم تأت طواعية سرجيوس ظاهرياً إلاّ ببعض المنافع القليلة . فعلى الرغم من الاعتراف بشرعية الإدارة الكنسية وتصريح ١٩٢٧ ، فإن اغلاق الكنائس وتصفية الاكليروس استمرا ، حتى أن حملة الاضطهاد تزايدت بين ١٩٢٩ و١٩٣٠ وبين ١٩٣٧ و١٩٣٨ . ولكن الوضع الخارجي تغيرّ في السنة الـ ١٩٤٣ . فالحكومة السوفياتية تحت وطأة الحرب ، كانت بحاجة لمساندة الوطن بأسره ، وبالتالي بدت مستعدة لتقديم بعض التنازلات للمسيحيين الذين كانوا لا يزالون يمثّلون جزءاً مهماً من المواطنين السوفيات . ومنذ بداية الحرب تعهدت الكنيسة الرسمية بقيادة سرجيوس بدعم جهود الدولة ، ومال الشيوعيون من جانبهم - وبشكل مؤقت على الأقل - للظهور بمظهر أكثر

مهادنة . هجوم الألمان أثّر أيضاً على الحكومة ، فحين دخل جنود هتلر الى روسيا ، استقبلهم في البدء جزء كبير من الشعب استقبال « المحررين » . وقد سمح النازيّون في الأراضي الروسية المحتلة بإعادة الحياة الدينية الى سابق عهدها وأقدموا على تشجيعها . ففي أبرشية كييف مثلا التي كانت تعدّ ١٧١٠ رعية قبل الثورة ، لم يبق أكثر من كنيستين عاملتين رسمياً السنة الـ ١٩٣٩ . وبمرور سنة على الاحتلال الألماني جرى افتتاح ٧٠٨ كنيسة[١] . ومخافة من انحياز المزيد من هذه الفئات الى النازيين، رأت الحكومة السوفياتية أن من حسن السياسة معاملة الكنيسة معاملة حسنة كما فعل الألمان .

ولكن إذا كان وضع المسيحية في روسيا قد تحسّن بعض الشيء ، فإنه لم يتمّ إلغاء أي قانون معادٍ للدين . وحتى اليوم ، ومع أن الكنيسة مرخص لها ، فإن بالامكان سحب امتيازاتها بمثل السهولة التي أعطيت . فالمبادىء الشيوعية لا تزال هي هي ، وإذا رأت السلطات السوفياتية أن الأمر يناسبها ، فما من شيء يمنعها من العودة إلى وضع ما قبل الحرب .

من أهم التنازلات التي قدّمها ستالين هي ملء السدة البطريركية التي شغرت منذ وفاة تيخون السنة الـ ١٩٢٥ . وانتخب سرجيوس بطريركاً في ايلول ١٩٤٣ من قبل مجمع صغير مؤلف من تسعة عشر أسقفاً ، بعد أن كان نائباً للقائمقام البطريركي بين ١٩٢٥ و١٩٣٦ ثم قائمقام رسمياً منذ ١٩٣٦ . لكنه كان متقدّماً في السّن وتوفي في العام التالي . وانتخب ألكسي (شيمنسكي) متروبوليت لننغراد وأحد

١ ـ حتى السنة الـ ١٩٥٥ بقي في أبرشية كييف ٥٨٦ كنيسة رعية ، ولكنه تمّ إقفال عدد كبير منها منذ ذلك الحين .

مناصري سرجيوس المتحمّسين منذ السنة الـ ١٩٢٧ ، بطريركاً في شباط السنة الـ ١٩٤٥ . وحضر الانتخاب مندوبون عن الكثير من الكنائس الأرثوذكسية الأخرى . وحافظ ألكسي بإصرار على مبدأ التعايش الذي كان سائداً بين سرجيوس والحكومة .[١] ومات ألكسي السنة الـ ١٩٧٠ و انتُخب البطريرك بيمن خلفاً له السنة ١٩٧١ وهو يحافظ الآن على صيغة التعايش بين الكنيسة والدولة التي وضعها سرجيوس .

إلى جانب اعادة المقام البطريركي ، سمح ستالين ايضاً بإعادة فتح الكثير من الكنائس فضلاً عن بعض الأديرة ومدارس اللاهوت . وتحوّل الشكل الخارجي للكنيسة الروسية كلياً بين ١٩٤١ و١٩٤٧ كما يدل البيان التالي :[٢]

	١٩١٤	١٩٤١	١٩٤٧
كنائس	٥٤,٤٥٧	٤,٢٥٥	٢٢/٢٥,٠٠٠
كهنة عاملون	٥٧,١٠٥	٥,٦٦٥	٣٣,٠٠٠
أديرة	١,٤٩٨	٣٨	٨٠
أكاديميات لاهوت	٤	لا شيء	٢
مدارس اكليريكية	٥٧	لا شيء	٨
مدارس دينية أخرى	٤٠,١٥٠	لا شيء	لا شيء

وبالطبع ليس بالامكان التأكد من صحة الأرقام المتعلقة بعدد الكنائس والكهنة في العامي الـ ١٩٤١ والـ ١٩٤٧ ، ولعلّ الأرقام الأولى متدنّية جداً ، في حين أن الأرقام الثانية مبالغ فيها على الأرجح ، على أن الزيادة المفاجئة التي طرأت على عدد الكهنة تجد ما يفسرّها جزئياً

١ ـ ليس وحده في هذا الوضع ، لأن هذه السياسة المهادنة أخذ بها العديد من المسؤولين المسيحيين في البلدان الشيوعية ، سواء كانوا من البروتستانت أم الكاثوليك الرومانيين.
٢ ـ البيان مقتبس من كتاب الاب جان ماينذورف، «الكنيسة الارثوذكسية امس واليوم»، ص ١٣٥ .

في أن الكثيرين ممن كانوا يعملون بشكل سرّي سنة ١٩٤١، عادوا إلى الظهور مع التغيير الذي حصل في نهاية الحرب .

يستخلص من هذه الاحصاءات وبشكل واضح حقيقة معيّنة : باستثناء عدّة كليّات مخصصة لإعداد الكهنة ، لم يكن لدى الكنيسة مدارس السنة الـ ١٩٤٧ ، وكذلك ليس لها مدارس اليوم . فسياسة الخنق الفكري لا تزال مستمرة كما في السابق ، إذ تعيش الكنيسة في عزلة متزايدة قد تؤدي بها الى مصير أكثر شؤماً من الاضطهاد الصريح ، فهي منقطعة عن كل حركة فكرية أو ثقافية ، كما يتعذر عليها الردّ على الرعاية المضادة للدّين . والأطفال والمراهقون بنوع خاص هم الذين تجد الكنيسة صعوبة في الوصول اليهم . ولكن ، كما استطاعت الليتورجيا ـ تحت النير التركي ـ أن تنقذ الأرثوذكسية اليونانية ، فلنا أمل بأن حرية العبادة ستحفظ الايمان الأرثوذكسي في ظلّ النظام الشيوعي . والزمن وحده الكفيل بإعطاء البرهان .

ولكن حتى من أجل أن تعيش في مثل هذه العزلة تدفع الكنيسة ثمناً باهظاً ، فعلى زعمائها أن يكونوا دعاة للسياسة السوفياتية ، في داخل البلاد كما في خارجها ، وعليهم أن ينالوا قسطاً وافياً من النشاط داخل حركات مثل « حركة أنصار السلم » التي يرعاها الشيوعيون . و«صحيفة بطريركية موسكو » هي المطبوعة الدينية الوحيدة المرخص بها (باستثناء بعض التقاويم ، ومجموعات المواعظ ،ومجلة لاهوتية سنوية) ، وعليها أن تضمّ بانتظام مقالاً عن « النضال من أجل السلم » أو أي موضوع آخر يشبهه . كذلك نجد فيها العديد من المقالات التي تهاجم الكنيسة الكاثوليكية مستخدمة كذلك اللغة الأقرب الى السياسة . والانتقادات الموجّهة ضد روما يكتبها معظم الأحيان مؤلفون يبدون في

مواضيع أخرى معرفة حقيقية وعمقاً في الحس المسيحي . فكيف يفسرّ الصنف البدائي الذي يواجهون به اخوانهم المسيحيين ؟ « ليس بوسعنا استبعاد الضغط الخارجي : فاللاهوت الحر لا ينحط إلى هذا المستوى» .[1]

وليس ذلك كلّ ما يكلّفه هذا التسامح المحدد بدقة . ففي حين تبدو الإدارة الاكليريكية وكأنها تعمل بشكل طبيعي في عهد البطريركية الجديدة ، فإن القوانين السوفياتية تبيح في الواقع تدخّل الدولة في شؤ ون الكنيسة وفي مواطن عديدة . فما من مجمع أو اجتماع ما ، صغيراً كان أم كبيراً ، يمكن عقده ، وما من كنيسة جديدة يمكن أن تنشأ ، إلاّ بموافقة الحكومة .وما من أحد ابتداء من البطريرك وحتى كاهن الرعية يستطيع أن يمارس وظيفته بدون موافقة السلطة المدنية. والكهنة ، كسائر الرعايا من ذوي المهن الحرّة ، يجب أن ينالوا رخصة يمكن سحبها في كلّ لحظة . لدى الشيوعيين اذاً جهاز مدروس للقضاء على الأساقفة والكهنة غير المرغوبين ، من أجل أن يحلّ محلّهم أشخاص «مضمونون» . وليس من المستبعد أن يكون العديد من الشيوعيين قد تسرّبوا الى الاكليروس الروسي . فمن السهل على السلطات السوفياتية إرسال رجالها إلى مدرسة لاهوتية ومن ثم رسامتهم ، لكنه ليس بوسعنا التأكد الى أي حدّ هم يلجأون الى هذه الوسائل .

أجل ، إن الثمن الذي دفعه زعماء الكنيسة الروسية في الاتحاد السوفياتي باهظ جداً . فهل يمكن تبرير الاختيار الذي قامت به

---

١ ـ أ. شميمان : «إحياء الدراسات اللاهوتية في روسيا»، في «الدين في روسيا»، ميونيخ، ١٩٦٠، ص ٤٢ .

. بدأت الهجمات ضد الفاتيكان تتضاءل بعد موت ستالين ، واليوم نراها قد زالت تقريباً .

البطريركية ؟ وهل كان من الأفضل السير على طريق الشهادة كما فعل رجال كنيسة الدياميس ! بقول آخر كيف لمسيحي يعيش في ظلّ السلطة المطلقة للالحاد الثوري أن يشهد لايمانه؟ الأرثوذكسيون غير متفقين على الإجابة . فما من أحد يشك في حقيقة الوضع المقلق الذي يعيشه زعماء الكنيسة الروسية منذ السنة الـ ١٩١٧ ، لكنهم لا يرون جميعاً أن سرجيوس وألكسي وبيمن اختاروا أفضل سبيل. فالبعض يرى في موقفهم السبيل الوحيد لصون الرعية من الاضطهاد المستمر والمحافظة بأي ثمن على تنظيم خارجي يجعل الكنائس تفتح أبوابها للمؤمنين، الى جانب توفّر الأديرة وكليات اللاهوت. لكن هناك أرثوذكس من داخل روسيا وخارجها يعتقدون بأنه ليس المهم هو التنظيم الخارجي بل الحفاظ على الطهارة الداخلية. وينظر هؤلاء بأسى وغضب الى الطريقة التي رضي رعاة القطيع اتباعها في التعاون مع أعداء المسيح.

وضع الكنيسة الراهن في روسيا

ليس بالإمكان طبعاً الحصول على أي احصاء رسمي ، لكنّ العديد من زوّار الاتحاد السوفياتي ، والمتكلمين باسم بطريركية موسكو ، قدّروا بأن حوالي عشرة بالمئة من أبناء الشعب يؤمّون الكنائس كلّ يوم أحد ، أي ما بين عشرين وثلاثين مليون شخص . الأمر الذي يدفع الى القول أنه بالنسبة لمجمل عدد السكان ، يعتبر ارتياد الكنائس في روسيا خلال السنوات الستين من الحكم الشيوعي أكبر منه في العديد من بلدان أوروبا الغربية . ولعلّ المؤمنين في روسيا أكبر عدداً

من الممارسين . ففي الواقع أن كثيرين من الأساتذة والموظفين والطلاب الجامعيين وأصحاب المهن الحرة لا يرغبون ـ لأسباب مشروعة ـ في التظاهر بأنهم مسيحيون ، لذا فإنهم لا يذهبون الى الكنيسة إلاّ في عيدي الميلاد والفصح حين يصبح بإمكانهم المرور في زحمة الجماعة دون لفت النظر .

في المدن الكبرى ، نعرف أن الكنائس ملأى ، أما في الأرياف فالمعلومات عنها منقوصة . والمؤمنون الأرثوذكس يمكثون على العموم وقوفاً في الكنيسة وقلّما توجد فيها الكراسي أو المقاعد أو أنها غير موجودة أبداً . ذلك ما يمكّن عدداً كبيراً جداً من المؤمنين أن يجتمعوا في مساحة محدودة نسبياً . وتقام في كنائس المدن الكبرى على العموم كل أحد خدمتان للقداس بحضور حوالي ألفين أو ثلاثة آلاف شخص في كل قدّاس . مثل هذه الكنيسة يمكن أن تعدّ ما بين خمسين ومئة معمودية في الأسبوع . وتعترف السلطات الكنسية أن حوالي نصف الأطفال المولودين في موسكو يعمَّدون . والنسبة أدنى في سائر المدن ، وأعلى في الأرياف . من البديهي إذن أن الكثيرين ممّن لا يؤمّون الكنائس يأتون بأولادهم اليها للمعمودية . وتشكو الصحافة السوفياتية من وقت لآخر من أن اعضاء بارزين في الحزب أو في منظمة الشبيبة الشيوعية يقصدون الكنائس ليلاً ويعمّدون أولادهم .

لكنّ كنائس المدن ، على الرغم من كونها ملأى ، قليلة ومتباعدة بعضها عن بعض : السنة الـ ١٩٥٥ لم يكن في موسكو سوى خمس وخمسين كنيسة لسبعة ملايين نسمة وأربع عشرة في لينينغراد لثلاثة ملايين شخص . أما كييف فكانت في وضع أفضل بوجود ستّ وعشرين كنيسة السنة الـ ١٩٥٥ لمليون نسمة . وسرت شائعات العام الـ ١٩٦٠

تفيد بأن ثمانٍ منها فقط لا تزال مفتوحة . والوضع أكثر سوءاً في عدد من المدن الكبرى الأخرى : في خاركوف (٩٣٠,٠٠٠ نسمة) ثلاث كنائس فقط، في كازان (٦٤٣,٠٠٠) وبيرم (٦٢٨,٠٠٠) كنيستان فقط لكلّ منهما . وفي بعض المدن السوفياتية الجديدة لا يوجد كنائس على الإطلاق . وإذا صحّت الأرقام التي أعطيت العام الـ ١٩٤٧ ـ أي ٢٢,٠٠٠ كنيسة مفتوحة في كل أنحاء الاتحاد السوفياتي ـ لا بد وأن تكون نسبة الكنائس لعدد السكان أعلى بكثير في المدن الصغرى والأرياف منها في المراكز الكبرى . وثمة كنائس رعايا في المدن لها أهمية كبرى ، تضم الواحدة منها ، بين خمسة الى عشرة كهنة يساعدهم حوالي العشرين موظفاً يتقاضون أجرهم ويعملون طيلة النهار . ويفضل الناس بالطبع الحضور إلى كنيسة تغص بالناس كي لا يلاحَظوا بسهولة . وفي الاحتفالات الدينية يزيد عدد النساء على عدد الرجال كما يزيد عدد العجزة على عدد الشباب. وهذا وضع مقلق ولكنه ليس خاصاً بروسيا وحدها. ولكن، كما قال أحد الكهنة الروس الذي سُئل عمّا سيحصل بعد ثلاثين سنة حين تموت جميع النساء العجائز: «سيكون هناك جيل جديد من النساء العجائز». ويقال أن الكثيرين ممّن أبعدتهم الدعاية الالحادية عن الكنيسة أيام مراهقتهم يعودون اليها في سنّ النضوج، ولكن يصعب الفصل في هذا الموضوع .

في الخمسينات كانت اكاديميتا اللاهوت والمدارس الاكليريكية الثماني الموجودة تضم كلها حوالي ١,٥٠٠ طالب يتخرج منهم سنوياً ما بين ٢٠٠و٣٠٠ كاهن جديد. وفي اوائل الستينات انخفض عدد الكهنة إلى النصف تقريباً غالباً نتيجة لضغط السلطات ومضايقاتها. ولا يبدو أن هناك نقصاً في عدد المرشحين للكهنوت (خاصة في أوساط الفلاحين الشباب أو في أوساط الطبقة العاملة مع عدد من الجامعيين) لكن طلبات

الانتساب للمدارس الاكليريكية تتجاوز الامكانيات المرخص بها من قبل الحكومة. ومن المحتمل أن يقوم الأساقفة برسامة كهنة من بين أولئك الذين لم يدرسوا في معهد اكليركي. وفي بعض الأبرشيات، توجد مدارس صيفية للكهنة المسنين ممن لا يحملون شهادات في اللاهوت. كما تتوفر أيضاً دروس بالمراسلة للكهنة. وتعدّ الأديرة عدداً من الرهبان والمبتدئين الشباب. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، سُمح للرهبان بالعودة الى دير كهوف كييف ودير الثالوث القدوس أو دير القديس سرجيوس رادو نيجسكي (زاغورسك كما يدعى حالياً).

والمؤمنون في روسيا، وإن كانوا في الغالب شديدي الفقر فهم يتبرعون للكنيسة بسخاء. لذلك فإن الكنيسة التي لا يسوغ لها الانفاق في مجال الإحسان أو على المؤسسات التعليمية، بدأت تشعر بالغنى المتزايد. والأبنية الدينية تجري المحافظة عليها لتكون بأحسن حال، والاكليريكيون يتقاضون أجراً محترماً ويؤمّن لهم مسكناً لائقاً. ففي المدينة يتقاضى الكهنة عادة أجراً يساوي أجر الاستاذ الجامعي. ومن الثابت أن شغل الكاهن الروسي كثير الأعباء، ويستحق تقاضي أجر مرتفع، ولكن يحق التساؤل ما إذا كان يطيب للشيوعيين أن ينشأ تفاوت كبير بين مستوى معيشة الشعب ومستوى معيشة الكهنة، مع رجحان كفة هؤلاء من الناحية المادية.

وعلى الرغم من الاستقرار النسبي الذي عرفته العلاقات بين الكنيسة والدولة منذ السنة الـ ١٩٤٣، فإن الهدوء الظاهر لا بدّ وأن يكون خادعاً. في ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٤ أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي قراراً موقعاً من خروتشيف بعنوان: «حول اخطاء

ادارة الدعاية الالحادية العلمية بين صفوف الشعب » . يندّد هذا القرار بأشكال الاضطهاد العنيف والتهجمات التي تعتمد الشتم ضد المعتقدات الدينية ، ويقترح بأن يستمر النضال المضاد للدين على مستوى أيديولوجي أرفع . إلاّ أنه منذ ١٩٥٨ اتسع نطاق الدعاية الالحادية ولم تكن قط مقتصرة على المسائل الايديولوجية العليا. وندّدت الصحافة السوفياتية السنة الـ ١٩٥٩ بعدد من الأساقفة والأديرة . ونُعت الرهبان بأنهم «محتكرون» « وخاملون » و«منحلّون »و« منحرفون جنسيّاً » الخ . . . واستُهدفت المدارس اللاهوتية بنوع خاص . وقد يكون ذلك تمهيداً لتحضير الرأي العام لإغلاقها . ويتساءل أحد الصحافيين : « هل لرجل يحترم نفسه أن يذهب الى مدرسة لاهوت في عصر العلم والتقنية هذا ! . . . عميد المدرسة وناظرها يختاران أي أشخاص تافهين . . . ممّن يميلون للراحة والحياة غير الشريفة . . . يختاران المجرمين الذين على العكس يجب أن يتجدّدوا بالعمل! » . إلاّ أنه في معظم المدارس الاكليريكية يستيقظ الطلاب في الخامسة والنصف صباحاً في الصيف كما في الشتاء . وما من أحد يستطيع اعتبار ذلك نظاماً يختاره أولئك الذين يحبّون الراحة والحياة السهلة .

واستخدمت الحكومة فضلاً عن الدعاية ـ خاصة بعد السنة الـ ١٩٥٩ ـ وسائل أقرب لتكون مباشرة : تظاهرات معيبة أثناء الصلوات، سجن أعضاء بارزين في الاكليروس (أيوب رئيس أساقفة كازان مثلاً) بسبب «مخالفات ضريبية»، إلغاء المدارس الدينية وإقفال الأديرة، الاغلاق القسري للكثير من الكنائس. وفي السنة الـ ١٩٦٣ بلغت حملة الاضطهاد ضد الكنيسة حدّاً لا مثيل له. وفي السنة ١٩٦٦ لم يبق من المدارس الاكليريكية الثمانية التي فتحت ابوابها حوالي ١٩٤٥ سوى ثلاثة فقط تتابع اعمالها. وكذلك لم يبقَ في السنة الـ ١٩٧٠ سوى

١٢ ديراً من أصل الأديرة الثمانين التي كانت ما تزال قائمة في السنة ١٩٤٧ . وقد أعيد غلق أبواب دير الكهوف في كييف .

وفي مركز تاريخي شهير ، وهو دير القديس أيوب في بوتشاييف على الحدود الغربية ، عومل الرهبان بخشونة فائقة . السنة الـ ١٩٦١ كان الدير يضم ١٤٠ راهباً لم يبق منهم سوى ٣٦ العام الـ ١٩٦٣ . وضُرب واحد منهم على الأقل حتى الموت . واقتيد آخرون الى المستشفى (رغم انهم يتمتعون بصحة جيدة) للمعالجة بالحقن . وأدخل عدد كبير من الرهبان من ذوي النفوذ الى المصحّات العقلية . وليس بالإمكان معرفة العدد الصحيح للكنائس المفتوحة اليوم ، لكنّ من المحتمل جداً أنه ـ خلال الفترة ما بين ١٩٦٠ و١٩٦٣ ، جرى اغلاق عدد كبير جداً من الكنائس الرعوية . فأصبح عدد الكنائس « العاملة » في أواخر السبعينات لا يزيد عن ٧٠٠٠ في حين كان هذا العدد في السنة الـ ١٩٤٧ يتراوح بين ٢٢٠٠٠ و٢٥٠٠٠ .

وفي كثير من الأماكن ، يمنع الكهنة حاليا من مناولة الأطفال والتلاميذ علما أن هذا التصرف يشكل مخالفة ملحوظة لقانون «حرية العبادة » الذي نص عليه الدستور .

الى جانب الكنيسة الرسمية ، لا تزال « كنيسة الدياميس » تحافظ على وجودها . ففي روسيا كهنة وحتى أساقفة لا يرغبون التعاطي مع البطريرك ، ويرفضون ذكر اسمه أثناء الخدمة . ولا نعرف شيئا عن عددهم أو عن التفاصيل المتعلقة بتنظيمهم : فأعضاء هذه الكنيسة مرغمون على الالتزام بالسرّية التامة ، لأنهم مرفوضون من الكنيسة الرسمية ومضطهدون من قبل الدولة . ومن الممكن أن الكثيرين من

الكهنة المنتمين واقعيا للكنيسة الرسمية يتعاطفون مع حركة الديناميس كما انهم غير مرتاحين لمواقف المسؤ ولين الكنسيين الرسميين.[1]

الكنيسة في البلدان الشيوعية الأخرى

وفي البلدان التي سيطر عليها الشيوعيون في نهاية الحرب العالمية الثانية ، حاول هؤلاء اعتماد مبدأ للتعايش مع الكنائس الأرثوذكسية شبيه بالمبدأ الذي كان سائدا في روسيا منذ العام الـ ١٩٤٣ . فلم يجر اقفال الكنائس بالجملة . واذا كان رجال الاكليروس المعاندون قد تعرضوا لعقوبة السجن فإنهم لم يتعرضوا لعقوبة الاعدام ، ذاك أن الشيوعيين أدركوا ولا شك من خلال الخبرة في روسيا بأن الشهادة تجعل المؤمنين أكثر صلابة . وأما المنشورات الكنسية فهي مباحة على نطاق أوسع مما هي عليه في الاتحاد السوفياتي ، كما استطاعت الكنيسة ان تحافظ على عدد من المدارس الاكليريكية واكاديميات اللاهوت . لكن الكنيسة لا يسمح لها بممارسة اي عمل اجتماعي او خيري أو أي نشاط تربوي أيضاً. والدعاية الالحادية قائمة فيها على غرار روسيا خاصة في أوساط الشباب ، والكنيسة تواجه الصعوبات نفسها في الاتصال بالأطفال والشباب . وفي الوقت نفسه تستخدم الدولة الكنسية لنشر القضية الشيوعية ، لذلك نشأت في معظم البلدان الاشتراكية «اتحادات للكهنة» ذات طابع شبه سياسي تعمل باشراف الحكومة. ويطلب من أعضاء الاكليروس عادة تقديم تعهد بالولاء للسلطات الشيوعية . ففي تشيكوسلوفاكيا مثلا ، على الكاهن أن يؤدي قَسماً جاء فيه : «العمل

---

١ ـ من الأمور ذات الدلالة أن رهبان بوتشاييف اتهموا في ما اتهموا بالتواطؤ مع حركة الديناميس .

بكل ما في وسعي للمساعدة في الجهود الرامية لاعادة البناء من أجل خير الشعب » . وفي رومانيا يأخذ الكاهن على عاتقه واجب « الدفاع عن جمهورية الشعب الروماني ضد جميع أعدائها في الداخل والخارج » . والكنيسة الرومانية كانت تتلقى الى وقت قريب معونات من الحكومة ، وهذا النظام معمول به في بلغاريا أيضا .

«بقبول هذا الوضع ، قد تبدو الرئاسة الكنسية الأرثوذكسية في أعين المؤمنين في الداخل وفي الخارج وكأنها مجرد هيكل من الموظفين الذين يعملون في خدمة حكومة هدفها الأخير المعلن هو القضاء على «الادعاءات الدينية »[1] .

كنيسة صربيا

ومن بين جميع الكنائس الأرثوذكسية الموجودة في البلدان الشيوعية ، أبدت كنيسة صربيا منذ الحرب استقلالية واسعة النطاق ، لكنها هي الأخرى تتعرض لقدر كبير من الصعوبات الداخلية . وكما يروي الزوّار، ان الكنائس التي تغص بالناس في بلغراد ، خاوية في الأماكن الأخرى . كما لا يتوفر العدد الكافي من المرشحين للكهنوت . وهناك نقص في عدد الرهبان الشباب بينما نشهد ـ كما هي الحال في اليونان ـ نهضة في الحياة الرهبانية لدى النساء . وقد تحسن هذا الوضع بشكل ملحوظ في اواخر الستينات واوائل السبعينات . وقد حاولت الدولة إضعاف الكنيسة من طريق التجزئة . وفي العام الـ ١٩٦٧ انشئت كنيسة مستقلة في مقدونيا رغم معارضة البطريرك الصربي .

---

١ ـ جـ . مايندورف ، الكنيسة الأرثوذكسية أمس واليوم ، ص ١٤٣ .

الكنيسة البلغارية

الكنيسة البلغارية سارت عن كثب على سياسة بطريركية موسكو تجاه الدولة وذلك منذ العام الـ ١٩٤٥ . وفي العام الـ ١٩٤٩ صدرت عن الدولة قوانين تبيح التدخل في شؤ ون الكنيسة على نطاق واسع . يبدو هنا أيضا أن ثمة نقصا في عدد الرهبان الشباب ، لكن الكنائس البلغارية تشهد اقبالا اكبر من الكنائس اليوغسلافية ويوجد في الكثير من الأماكن جمعيات ناشطة أو أخويات تضم العلمانيين .

كنيسة رومانيا

اتبعت كنيسة رومانيا منذ ١٩٤٨ سياسة تعاون وثيق مع السلطات الشيوعية ولكنها في الوقت نفسه عاشت نهضة كبيرة جدا على صعيد حياتها الروحية واللاهوتية . ولم يظهر قط في رومانيا أي قرار رسمي يقضي بالفصل بين الكنيسة والدولة . ولا يخطىء «دليل أوروبا» حين يشير الى أن «الدين في رومانيا منفصل تمام الانفصال عن الدولة ، لكن الكنيسة الأرثوذكسية الرومانية هي الكنيسة الوطنية المعترف بها» .

والكنائس في رومانيا تستقبل العديد من الناس كما أن معظمها ظلت مفتوحة الأبواب . ويقال أن عددها بلغ ٢٢٠ في بوخارست (للمقارنة مع الخمسين الموجودة في موسكو والتسع والثلاثين الموجودة في صوفيا والاثنتي عشرة الموجودة في بلغراد) .

وكان فيها السنة الـ ١٩٥٧ فضلا عن المدارس الاكليريكية الثماني ، مؤسستان للدراسات اللاهوتية العليا تعد الواحدة بين ٣٠٠

و٦٠٠ طالب . في هذه السنة أيضا صدرت ثماني نشرات دورية دينية ، والمستوى اللاهوتي في بعضها يفوق كل ما نشر في روسيا منذ ١٩١٧ . وازدهرت الرهبنة في رومانيا بشكل يفوق جميع البلدان الأرثوذكسية في عصرنا الحاضر . وكان فيها السنة الـ ١٩٥٨ بين سبعة وعشرة آلاف راهب وراهبة معظمهم من الشباب والمثقفين . لقد ظلت روح بيّسي فليشكوفسكي حية ، اذ تقوم حياة الرهبنة الرومانية حاليا على أفضل التقاليد الهزيقية ، وتخصص مكاناً بارزاً لصلاة يسوع . في السنة الـ ١٩٤٦ وما بعدها ، أصدر الأب ستانيلوا الأجزاء الأربعة الأولى من ترجمة رومانية للفيلوكاليا . كان ذلك أكثر من ترجمة ، إذ ضم المؤلف حواشي طويلة متعمقة ، تدل على معرفة كبيرة بالكتّاب الروحيين الغربيين ، وبالبحوث النقدية التي صدرت في الغرب .

وليس من العجب أن تكون هذه الحيوية في الكنيسة الرومانية ، ـ وخاصة تلك النهضة في الروح الرهبانية ـ قد أثارت رد فعل من جانب الحكومة ، فاستخدمت بحقها عدة تدابير قمعية . فقد أوقف مثلا إصدار الفيلوكاليا في اواخر الاربعينات ولم يرفع هذا الحظر إلاّ في السنة ١٩٧٦ (وقد صدر منها حتى الآن تسعة مجلدات) . وفي السنة ١٩٥٨ خُفض عدد الطلاب والمؤسسات اللاهوتية بنسبة الثلثين . وأغلقت مدرستان اكليريكيتان ، وسجن ٢٥٠ راهبا وأكثر من ٤,٠٠٠ أُرغموا على العودة للحياة العلمانية . وتلقّت الأديرة الأوامر بعدم استقبال مبتدئين جدداً ، خاصة من الشباب وانخفض بالتالي عدد الرهبان والراهبات في رومانيا حتى وصل في السنة ١٩٧٩ الى ما يقارب ٣٠٠٠ فقط . وبالرغم من ذلك كله لا تعاني كنيسة رومانيا من قلة المتقدمين للكهنوت ويصار الى انشاء الكنائس الجديدة كل سنة في كل

الأبرشيات . كنيسة رومانيا هي اكثر الكنائس الأرثوذكسية حيوية في مظاهر حياتها الخارجية والتي تحظى بأوسع دعم من قبل مؤمنيها .

كنيسة جيورجيا (بلاد الكرج)

الى جانب الكنائس الكبرى في روسيا وبلاد الصرب وبلغاريا ورومانيا هناك في البلدان الشيوعية أربع كنائس أخرى أصغر حجما . فكنيسة جيورجيا تأسست في القرن الرابع على يد القديسة نينا «مساوية الرسل» وكانت تابعة لبطريركية انطاكية قبل أن تصبح مستقلة في القرن الثامن . وكانت قد ضُمت الى الكنيسة الروسية السنة الـ ١٨١١ ، ثم عادت الى استقلالها بعد ثورة شباط ١٩١٧ . وعوملت المسيحية بعنف في جيورجيا كما في سائر الاتحاد السوفياتي . وكنيسة جيورجيا اليوم ذات حجم ضئيل . قال الكاثوليكوس كاليستراتوس لصحافي اميركي السنة الـ ١٩٥١ : «سأعطيك بعض الاحصاءات تستخلص منها بنفسك بعض الاستنتاجات هناك فقط ١٠٠ كنيسة مفتوحة الأبواب من ضمن ٢,٤٥٥ كنيسة موجودة ، وهناك مثل هذا العدد من الكهنة العاملين»[1] ، أي حوالي مئة كاهن في خدمة شعب يزيد تعداده على المليوني نسمة ! وفي الكثير من الأماكن التي لا يوجد فيها كهنة ، يتجمع أبناء الشعب أمام اطلال كنيسة سابقة ويقيمون خدما بأنفسهم . في الخمسينات سمح بفتح مدرسة اكليريكية صغيرة ثم أقفلت لكنه أعيد فتحها الآن .

١ ـ مقابلة مع هاريسون سالزبوري مندوب النيويورك تايمز ، نشرت في الجيورجيان أوبينيون ، نيويورك ، ١٩٥٦ ، عدد ٨ . اما اليوم ، فعدد الكنائس «العاملة» لا يتعدى الاربعين .

كنيسة ألبانيا

كانت في السابق تابعة لبطريركية القسطنطينية وأصبحت مستقلة ابتداء من السنة الـ ١٩٣٧ . ويزيد مجمل عدد سكان البلاد على ١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ينتمي حوالي عشرين بالمئة منهم للأرثوذكسية (عشرة بالمئة كاثوليك رومانيون ، وغالبية ما تبقى من المسلمين) . والمعلومات ضئيلة جدا عن الوضع الديني في ألبانيا ، ولكن يمكن التأكيد أن الكنيسة تعاني من الاضطهاد منذ ١٩٤٥ . وتقول المصادر الشيوعية أن الكنائس المسيحية كلها أقفلت في ١٩٦٧ .

كنيستا بولونيا وتشيكوسلوفاكيا

كنيسة بولونيا المستقلة منذ ١٩٢٤ وكنيسة تشيكوسلوفاكيا المستقلة منذ ١٩٥١ على الرغم من أنهما تحكمان نفسيهما ، فإنهما في الواقع كثيرتا الاتكال على بطريركية موسكو .

« المنضمّون »

جدير بنا أيضا أن نضيف بعض الكلمات عن مصير « المنضمّين » منذ العام الـ ١٩٤٥ . ففي مناسبات عديدة وحتى قبل هذا التاريخ ، كثيرون منهم عادوا الى الأرثوذكسية ، اذ عادت ثلاث أبرشيات للانضمام السنة الـ ١٨٣٩ وتبعتها مجموعة أخرى السنة الـ ١٨٧٥ . كذلك فإنه بين ١٨٩١ و ١٩١٤ ، أصبحت حوالي ١٢٠ رعية من « المنضمّين » في اميركا الشمالية أرثوذكسية. وفي السنة الـ ١٩٣٠ اعتنق الأرثوذكسية ٢٥,٠٠٠ « منضمّ » من تشيكوسلوفاكيا . وفي السنة الـ ١٨٣٩ وكذلك في السنة الـ ١٨٧٥ ، وقع نوع من الضغط، مارسته

السلطات المدنية الروسية بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، لكن حركة العودة في أميركا وتشيكوسلوفاكيا كانت عفوية وليست بأي حال ناتجة عن تدخل حكومي . ولكن معظم جماهير « المنضمّين » في أوروبا الشرقية ـ كانوا أكثر من ٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة السنة الـ ١٩٤٥ ، ٣,٥٠٠,٠٠٠ على الأقل في أوكرانيا وتشيكوسلوفاكيا و ١,٥٠٠,٠٠٠ في رومانيا ـ كانوا لا يزالون على ولائهم للبابا في نهاية الحرب العالمية الثانية ، حين أصبحت بلادهم تحت الحكم الشيوعي . ومن السنة الـ ١٩٤٦ الى السنة الـ ١٩٥٠ لم يبق لهذه الكنائس « المنضمّة » في البلدان الشيوعية أي وجود رسمي ، حيث انضم افرادها كتلا وجماعات للكنيسة الأرثوذكسية .

فإلى أي حد كانت عودة هؤلاء « المنضمّين » طوعية ؟ يؤكد الناطقون باسم بطريركية موسكو أن غالبية الكهنة والشعب كانوا يرغبون فعليا في الالتحاق بالكنيسة الأرثوذكسية ، لكنهم يسلّمون بوجود أقلية صغيرة من « المنضمّين » المتشددين ، لم تكن لتوافق أبدا على العودة . وتقول المصادر الكاثوليكية أن حركة الاتحاد مع الأرثوذكس عرفت القليل القليل من الدعم من جانب فئات الشعب ، إلا انها كانت نتيجة للضغط الشيوعي وفي حالات كثيرة نتيجة الاكراه والارهاب البوليسي . ومن الصعب جدا في الوقت الحاضر إعطاء حكم على الوضع ، ولعلّ الحقيقة تقع عند منتصف الطريق بين هذه الآراء المتباينة . وكان ثمة تململ في أوساط « منضمّي » أوروبا الشرقية ولعلّ الكثيرين منهم استقبلوا بارتياح احتمال العودة الى الأرثوذكسية . ولا يغربن عن البال سابقة « منضمّي » اميركا الشمالية وغيرها الذين عادوا بملء حريتهم الى الكنيسة الأرثوذكسية . إلا أنه ليس بالامكان تجاهل

العديد من «المنضمّين» الذين رغبوا في المحافظة على اخلاصهم للبابا والذين عانوا بالنتيجة ايما معاناة في معتقداتهم الدينية[1] . لقد وُضع قادة الكنيسة الأرثوذكسية في البلدان الشيوعية ، في ظرف مبهم لا يُحسدون عليه ، ذاك انهم بدوا وكأنهم استفادوا من الاضطهاد الذي تعرّض له مسيحيون آخرون على يد الحكم الإلحادي .ومن بين التهم الموجهة ضد بطريركية موسكو ، لا نجد أكثر من هذه التهمة قرباً الى الجدّية .

إن الصراع بين الدين والمادية في البلدان الشيوعية لم ينته أبدا والموقف الحالي على جانب كبير من الغموض . يبقى واضحا أن أية نظرة شديدة التشاؤم لا نجد لها مبررا ، تماما كأية نظرة شديدة التفاؤل . ويميل البعض للاعتقاد أحيانا بأن الدين قد مات في البلدان الشيوعية وان الكنيسة لم تعد سوى جثة حية . الأمر ليس صحيحا بالتأكيد ، لكن من الخفة الاعتقاد بأنه ليس للكنيسة أن تخشى الشيوعية . وحتى الآن ، أبدى المؤمنون الأرثوذكسيون قدرة مدهشة على المقاومة الروحية بمواجهة أسوأ أنواع الاضطهاد ، لكنه ربما على الأمد الطويل ، سيكون لأشكال الضغط الفعّالة والمواربة التي تخضع لها الكنيسة اليوم ، شأن في اجتياح مواقع الكنيسة على نحو أبعد أثرا من كافة أنواع الهجمات الصريحة الأخرى .

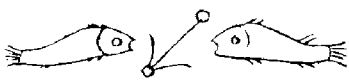

١ ـ وقد عاد بعضهم بالفعل في تشيكوسلوفاكيا إلى الكنيسة الكاثوليكية عندما سنحت لهم الفرصة في السنة ١٩٦٨ .

الفصل التاسع

القرن العشرون : الشتات والتبشير

الادارات الكنسية في الشتات

من الناحية الثقافية والجغرافية ، بدت الكنيسة الأرثوذكسية ولأمد طويل شرقية صرفة . لكن الوضع يتغيّر بسرعة ، اذ يوجد اليوم خارج البلدان الأرثوذكسية التقليدية ، جماعات أرثوذكسية عديدة منتشرة في جميع أنحاء العالم وخاصة في أميركا الشمالية . والغالبية العددية تعود لليونانيين والروس . إلا أن « الشتات » ليس مقصورا عليهم ، فهناك أيضا الصرب والرومانيون والعرب والبلغار والألبان وآخرون عديدون .

ومن أجل رسم صورة لهذا «الشتات » الأرثوذكسي ، ينبغي لنا أن نعود حقبات الى الوراء . ففي السنة ١٧٩٤ أقام المبشرون الروس لأول مرة في القارة الأميركية . وقبل ذلك بقرن واحد أي في السنة ١٦٧٧ أنشئت في لندن أول كنيسة يونانية في حي سوهو الأنيق إذّاك . كانت حياة هذه الكنيسة قصيرة ومضطربة وأغلقت أبوابها السنة الـ ١٦٨٢ ، ثم افتتح اليونانيون كنيسة جديدة في لندن السنة الـ ١٨٣٨ .

ولكن إذا لم يكن الشتات الأرثوذكسي بحد نفسه أمراً جديداً، فإنه لم يبلغ مداه إلا في غضون السنوات السبعين الأخيرة حيث أصبحت الأرثوذكسية عاملا مهماً من عوامل الحياة الدينية في البلدان غير الأرثوذكسية. إلا أنه بنتيجة تعدد القوميات والادارات فإن تأثير «الشتات» لم يتخذ الأهمية التي كان بمقدوره أن يتخذها.

أهم حدث في تاريخ الشتات تجلّى في الثورة البلشفية التي حملت أكثر من مليون روسي الى المنفى، ومن بينهم قسم كبير من النخبة الثقافية والفكرية في البلاد. وقبل السنة ١٩١٤، كانت غالبية الأرثوذكسيين المهاجرين، من يونانيين وروس، فقيرة وضعيفة الثقافة، ويشكلها أناس كانوا يسافرون بقصد التجارة أو على أمل ايجاد عمل في الغرب. إلا أنه كان في عداد الموجة الكبرى للمنفيين الذين أبعدتهم الثورة، أشخاص مؤهلون لإقامة علاقات ثقافية بالغرب على مستوى عال من التعمق، وكذلك لتقديم الأرثوذكسية للعالم غير الأرثوذكسي على نحو لم يكن باستطاعة المغتربين السابقين أن يقدموها به. إن انتاج المهاجرين الروس، خاصة في السنوات الأولى، كان مثاراً للدهشة. وتفيد احدى الاحصاءات انه خلال عقدين مضيا بين الحربين العالميتين، نشر المهاجرون ١٠,٠٠٠ كتاب و٢٠٠ صحيفة، فضلا عن المجلات الأدبية والعلمية. أما اليوم فقد أصبح المهاجرون اليونان أكبر عدداً من الروس، وبدأوا يتولّون جانباً حيوياً من الحياة الفكرية للبلدان التي تبنتهم.

والشتات اليوناني، كما رأينا خاضع لسلطة بطريرك القسطنطينية. أما الشتات الروسي فيتبع اكليريكياً إلى الادارات الكنسية الأربعة التالية:

١ ـ **سينودس الكنيسة الروسية في المنفى**، (يعرف أيضاً باسم «الكنيسة الروسية خارج الحدود» او «سينودس كارلوفتسي» او «السينودس») ويضم أكثر من ٢٠ أسقفا و٣٠٠ رعية .

٢ ـ **بطريركية موسكو** ، وتضم ١٢ أسقفا و٧٠ رعية .

٣ ـ **الأبرشية الروسية في أوروبا الغربية** ، وهي تابعة لادارة البطريرك المسكوني (تُعرف أيضا باسم ادارة باريس) وتضم ٣ أساقفة وما يقارب الـ ٤٠ رعية .

٤ ـ **الكنيسة الأرثوذكسية في أميركا** ، (وكانت تدعى قبل السنة الـ ١٩٧٠ الكنيسة الروسية الأرثوذكسية اليونانية الجامعة الاميركية) وتضم ١٠ أساقفة ٤٥٠ رعية .

إن تاريخ الخلافات بين الادارات الكنسية الروسية تاريخ أليم ومعقّد ، وليس بالامكان أن نعطي عنه سوى لمحة موجزة . ففي ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ ، أصدر البطريرك تيخون ـ بعد أن توقع على الأرجح دخوله السجن ومنعه من ممارسة صلاحياته بحرّية ـ مرسوماً يسمح بموجبه للأساقفة الروس وبصورة مؤقتة ، إنشاء تنظيمات مستقلة في الأحوال التي يتعذر عليهم فيها الاتصال بالبطريركية . إثر هزيمة الجيش الروسي الأبيض قصد أكثر من مليون روسي الى المنفى ومن بينهم كهنة وأساقفة . وبما أنه كان من المستحيل على البطريرك توجيه الحياة الدينية للمنفيين ، طبّق الأساقفة الذين غادروا روسيا مرسوم العام الـ ١٩٢٠ . وفي السنة الـ ١٩٢١ عقدوا مجمعاً في سرمسكي كارلوفتسي بيوغوسلافيا ، بناء على دعوة بطريرك صربيا ، وانشأوا ادارة اكليريكية مؤقتة للأرثوذكسيين الروس في المنفى . وأوكلت السلطة العليا الى سينودس من الأساقفة ، وتقرّر اجتماعهم كلّ عام في كارلوفتسي . كذلك

ألّفوا مجلساً إدارياً ضم بين أعضائه ممثلين عن الكهنة والعلمانيين .

وأصبحت قرارات مجمع كارلوفتسي مقبولة من قبل جميع الأساقفة الروس خارج روسيا . لكن تيخون اتخذ في ٥ أيار ١٩٢٢ قراراً يقضي بإلغاء المجلس الأداري ويأمر المتروبوليت إفلوغي باتخاذ تدابير أخرى بشأن الكنيسة الروسية في الخارج . وإفلوغي (١٨٦٤ - ١٩٤٦) الأسقف الروسي في باريس ، كان في ذلك الحين المولج بشؤ ون اوروبا الغربية . وقد حضر مجمع عام ١٩٢١ ووقّع القرارات التي اخذت فيه . وفي فترة إصدار مرسوم ١٩٢٢ ، كان تيخون بين أيدي الشيوعيين ، الأمر الذي يدفع الى الاعتقاد بأنه تصرّف بتأثير ضغط يمارس عليه ولم يكن في وضع يمكّنه من الاعراب عن حقيقة تفكيره . وفي مجمع انعقد في كارلوفتسي السنة الـ ١٩٢٢ ، أعدّ إفلوغي وأساقفة آخرون صيغة جديدة لإدارة الكنيسة الروسية في المنفى . ولم يرفع تيخون أي احتجاج ضد التدابير المتخذة ، بل على العكس تصرّف أكثر من مرة قبل وفاته على نحو يتضمن اعترافاً بدستور كارلوفتسي الجديد . إلا أن البطريرك سرجيوس وخلفائه أدانوا هذه الادارة اكثر من مرة ، ولا تزال بطريركية موسكو حتى الآن تعتبرها لا شرعية . وبالمقابل لا يعترف السينودس الإدانات التي وجهت اليه من قبل موسكو معتبراً إياها وثائق سياسية مجرّدة عن كل سلطة روحية . في فترة ما بين الحربين كان السينودس يجتمع في كارلوفتسي بصورة منتظمة . وبعد الحرب العالمية الثانية ، انتقل إلى ميونيخ ومنذ السنة الـ ١٩٤٩ اتخذ مقراً له في نيويورك . رئس السينودس أولاً متروبوليت كييف السابق انطوان (خرابوفيتسكي) . وخلفه من ١٩٣٦ الى ١٩٦٤ المتروبوليت أنستازي . اما رئيس السينودس الحالي فهو المتروبوليت فيلاريت . ومن الجدير بالذكر أنه خلال السنوات

الخمس عشرة الأخيرة زادت عزلة هذه المجموعة عن باقي الكنيسة الأرثوذكسية.

وآثر عدد صغير من المهاجرين الروس، بدل الاعتراف بإدارة كارلوفتسي، البقاء على اتصال مباشر مع بطريركية موسكو، مكوّنين بذلك ادارة الكنيسة الثانية التي مرّ ذكرها أعلاه. ولم تكن هذه المجموعة كبيرة جدا (فالقلائل من اعضاء الاكليروس في المنفى كانوا على استعداد للاذعان لطلب سرجيوس السنة الـ ١٩٢٧ الداعي لتوقيع بيان الولاء للنظام السوفياتي). إلاّ أنه ابتداء من السنة الـ ١٩٤٥ أعرب عدد كبير من الأساقفة والرعايا في أوروبا الغربية عن ولائهم لسلطة موسكو الكنسية.

المجموعتان الأخريان مكوّنتان من أساقفة التحقوا في البداية بسينودس كارلوفتسي ثم تخلّوا عنه السنة الـ ١٩٢٦. إدارة باريس أنشأها الأسقف الروسي في باريس المتروبوليت إفلوغي. تعاون في البداية كما رأينا وأساقفة كارلوفتسي لكنه انقطع عن حضور اجتماعات مجمعهم بعد السنة الـ ١٩٢٦. وفي السنة الـ ١٩٣٠ استنكر سرجيوس مواقفه لأنه أقام الصلاة على نية المسيحيين المضطهدين في روسيا (ففي رأي سرجيوس لم يكن ثمة اضطهاد في روسيا). هكذا وضع إفلوغي نفسه في السنة الـ ١٩٣١ مع رعاياه تحت سلطة الادارة الروحية للبطريرك المسكوني. وفي السنة الـ ١٩٣٤ تصالح إفلوغي بصورة شخصية مع المتروبوليت انطوان (خرابوفيتسكي) وشارك في العام التالي في مؤتمر أقيم في كارلوفتسي أقرّ فيه إلغاء الانشقاق بين السينودس وبينه. إلا أنه ندّد بعدئذ بهذا الاتفاق، وما لبث في النهاية وقبيل وفاته السنة الـ ١٩٤٥ أن

خضع لبطريرك موسكو . لكن الغالبية العظمى من رعاياه لم تكن متفقة معه على هذه النقطة ، وظلّت خاضعة لسلطة البطريرك المسكوني . وظلت الأمور على هذه الحال حتى السنة الـ ١٩٦٥ حين أقدم البطريرك المسكوني بصورة مفاجئة على إلغاء معتمديته الروسية في أوروبا الغربية واقترح على المنضمين اليها الالتحاق بالادارة الكنسية التابعة لبطريركية موسكو. لكن معظمهم رفض الأخذ بهذا الاقتراح وآثروا تكوين مجموعة مستقلة لجأت مجددا إلى كنف البطريركية المسكونية في السنة ١٩٧١ .

المجموعة الرابعة تكوّن متروبوليتية اميركا الشمالية . بعد الثورة ، صار وضع الروس في أميركا مختلفاً بعض الاختلاف عن أي مكان آخر ، لأن أميركا وحدها من دون جميع البلدان أصبح لها منذ ما قبل ١٩١٧ أبرشية روسية منظمة مع أسقف مقيم . السنة الـ ١٩٢٦ انفصل المتروبوليت أفلاطون أسقف نيويورك(١٨٦٦ - ١٩٣٤) على غرار إفلوغي عن سينودس كارلوفتسي وكان قبل ذلك في ١٩٢٤ قد قطع كل اتصال مع بطريركية موسكو .وهكذا وجد الروس المقيمون في أميركا أنفسهم يكوّنون مجموعة مستقلة من قبيل الأمر الواقع . في المؤتمر الذي عقد في يوغوسلافيا السنة الـ ١٩٣٥ انضم المتروبوليت ثيوفيلوس خلف أفلاطون الى سلطة كارلوفتسي . إلا أن علاقاته وعلاقات أتباعه مع سينودس «الكنيسة خارج الحدود»، ظلت على الدوام دقيقة بعض الشيء . وفي سينودس كليفلند الذي عقد السنة الـ ١٩٤٦ وقع انقسام في صفوف الروس الاميركيين . وقرر خمسة من الأساقفة التسعة الحاضرين ، فضلا عن قلة من موفدي الرعايا، البقاء على خضوعهم لادارة كارلوفتسي - ميونيخ التي كان يرئسها وقتذاك أنستازي . لكن الأساقفة الأربعة الآخرين ، ومنهم ثيوفلوس وأكثرية كبيرة من

مندوبي الرعايا قرروا الخضوع لبطريركية موسكو ، شريطة أن تمنحهم هذه البطريركة حرية ادارة شؤونهم الذاتية كما كانوا في السابق . لم يكن بوسع البطريرك ألكسي أن يمنح آنذاك مثل هذا الامتياز ، فحافظت هذه الرعايا بقيادة ثيوفيلوس وخلفائه على استقلاليتها بدون أن تعلن هذه الاستقلالية رسمياً . وفي السنة الـ ١٩٧٠ منحت بطريركية موسكو هذه المجموعة الاستقلال الكنسي الكامل ، وأطلقت عليها اسم « الكنيسة الأرثوذكسية المستقلة في أميركا » . لكن لم تعترف البطريركية المسكونية وأغلبية الكنائس الأرثوذكسية الأخرى بهذا القرار .

وتنتقد «الكنيسة الروسية خارج الحدود» بقوة موقف الخضوع الذي تتخذه سلطات الكنيسة الروسية تجاه الحكومة الروسية الملحدة، ويقف الى جانبها العديد من أفراد ادارة باريس واميركا الشمالية. ويُعتقد أحياناً بأن التباين في الآراء بين الادارات الروحية الروسية في المنفى تباين سياسي بالدرجة الأولى ، وأن «الكنيسة الروسية خارج الحدود» «بيضاء» أو «قيصرية»، بالمقابل مع كنيسة موسكو التي تعد «حمراء»، وان سائر الكنائس الأخرى تقف نوعاً ما في منتصف الطريق بين الطرفين. لكن هذا الأسلوب في الرؤيا أسلوب خادع اذ ان الخلاف الأساسي بين كل هذه الادارات يكمن في السؤال التالي : كيف للكنيسة وللمسيحيين معها، في مواجهة حكومة ثورية ملحدة، أن يشهدوا لايمانهم؟ وهذه ليست قضية سياسية بل قضية روحية .

الأرثوذكسية في أوروبا الغربية

لنتفحص بإيجاز وضع الجماعات الأرثوذكسية في أوروبا الغربية

انشأ اليونانيون في أوروبا الغربية أسقفية اتخذت من لندن مقراً لها. أول أسقف مفوّض عليها كان المتروبوليت جرمانس (١٨٧٢ - ١٩٥١) الذي عُرف خاصة بمشاركته في النشاطات المسكونية، كما لعب دوراً مهماً في حركة «الايمان والنظام» خلال فترة ما بين الحربين. وقسّمت هذه الأسقفية سنة ١٩٦٣ الى أربع أبرشيات مختلفة في لندن وباريس وبرن وفيينا وعلى رأس كل أبرشية أسقف. وتبع ذلك تأليف أبرشية في اسكندنافيا وأخرى في بلجكا بالاضافة الى اسقفين في جنيف. وفي أوروبا الغربية حوالي ١٣٠ رعية يونانية، لها كنائس دائمة واكليروس مقيم، هذا فضلا عن وجود عدد من الجماعات اليونانية الصغيرة التي ليس لها كنائس.

وباريس وميونيخ هما المركزان الرئيسيان للأرثوذكسيين الروس في أوروبا الغربية. فيوجد في باريس وضواحيها أكثر من ٤٠ مكاناً للعبادة، معظمها روسي[1]. وكذلك يوجد في باريس معهد القديس سرجيوس اللاهوتي الشهير الذي تأسس السنة الـ ١٩٢٥، وكان على الدوام نقطة التقاء هامة للأرثوذكسيين وغير الأرثوذكسيين. وفي فترة ما بين الحربين خاصة، كان في عداد أساتذة المعهد مجموعة لامعة جداً من كبار اللاهوتيين. ومن بين أولئك الذين شاركوا أو لا يزالون يشاركون في ادارة معهد القديس سرجيوس، نخص بالذكر المتقدم في الكهنة سرجيوس بولغاكوف (١٨٧١ - ١٩٤٤) أول عميد للمعهد، والأسقف كاسيان (١٨٩٢ - ١٩٦٥)، و أ. كرتاشيف (١٨٧٥ - ١٩٦٠)، وجورج فيدوتوف (١٨٨٦ - ١٩٥١)، وبول إفدوكيموف (١٩٠١ -

١ - وهناك في أنحاء فرنسية أخرى حوالي ٨٠ مكاناً توجد فيها مجموعات من الرعايا الأرثوذكسية، ولكن ليس لها جميعاً كهنة مقيمون، كما في باريس. ومعظم هذه الكنائس والمعابد روسي.

١٩٧٠)، والأب بوريس بوبرينسكوي. ثلاثة من أساتذة هذا المعهد وهم الآباء جورج فلوروفسكي والكسندر شميمان وجان مايندورف هم الآن في أميركا يقومون بنشاط بارز في الحياة الفكرية للكنيسة الأرثوذكسية . وتغطي لائحة الكتب والمقالات التي نشرها أساتذة المعهد بين ١٩٢٥ و١٩٤٧ حوالي ٩٢ صفحة وتشمل فيما تشمل ٧٠ كتابا مهماً مما يشكل إنجازاً هاماً جداً قلّما تستطيع أن تجاريه أكاديميات لاهوتية تابعة لأية كنيسة أخرى، مهما كبرت. ومعهد القديس سرجيوس معروف أيضاً بجوقته التي أسهمت إسهاماً كبيراً في احياء التراتيل الكنسية الروسية القديمة. والمعهد الذي كاد أن يكون روسياً صرفاً في فترة ما بين الحربين ، نجد اليوم غالبية طلابه من جنسيات مختلفة. ففي السنة الـ ١٩٥٥ مثلا، كان من بين طلابه الستة والثلاثين، ١٣ روسياً، و١٣ يونانياً، و٧ صربيين، وبلغاري واحد واميركي واحد والماني واحد. وتعطى الدروس ابتداء من السنة الـ ١٩٥٨ بالفرنسية كما بالروسية.

ظهرت أيضاً في باريس، مجموعة نشيطة من اللاهوتيين الأرثوذكسيين التابعين لبطريركية موسكو، نذكر منهم فلاديمير لوسكي (١٩٠٣ - ١٩٥٨)، ورئيس الأساقفة باسيليوس (كريفوشيين)، ورئيس الأساقفة الكسي (فان در منسبروغ)، والاسقف بطرس لويلييه (الموجود حالياً في أميركا) ، والاثنان الأخيران اعتنقا الارثوذكسية حديثاً. ومن المهتدين الى الأرثوذكسية أيضاً الارشمندريت ليف (جيلله)[1] (توفي في ١٩٨٠) وأوليفيه كليمان وهما كاتبان شهيران من أتباع البطريركية المسكونية.

وفي باريس منظمة للشبيبة تقوم بنشاط كبير هي «الحركة المسيحية

(١) راجع بعض مؤلفاته الصادرة عن منشورات النور: «إكليل السنة المبارك» بجزئين، و«ابانا»، و «كن كاهني»، و «زمن الصوم»، و «ملاحظات حول القداس الالهي» (الناشر).

للطلاب الروس»، تأسست السنة الـ ١٩٢٣، ومطبعة روسية أصدرت عدداً كبيراً من الكتب الدينية. وتصدر عدة تجمعات أرثوذكسية منشورات دورية باللغة الفرنسية يسهم بعضها في تعميق الأبحاث اللاهوتية الرصينة. تصدر حركة الطلاب الروس نشرة فصلية، «الرسول الأرثوذكسي»(Le Messager Orthodoxe)، كما تصدر بطريركية موسكو أيضاً مجلة فصلية تدعى أيضاً «رسول المعتمدية» (Le Messager de l'Exharcat).

كذلك تصدر الأخوية الأرثوذكسية في أوروبا الغربية - وهي مجموعة من خيرة الأرثوذكسيين تسعى لتوحيد الادارات الأرثوذكسية المختلفة والى تعميق الحياة الأرثوذكسية - الى جانب عدد من الكتب والكراريس عظيمة الفائدة، مجلة «كونتاكت» (Contacts)، وهي فصلية لعلها أكثر النشرات رصانة وأهمية وفيها يعبّر الأرثوذكسيون من جميع الادارات الروحية عن آرائهم.

وفي فرنسا والمانيا أديرة روسية عديدة أكبرها دير للراهبات في النورماندي (بروفمان قرب جيزور)، وهو تابع «للكنيسة الروسية في المنفى». وفي بوسي - آن - أوت في الايون يوجد دير آخر للراهبات أصغر حجماً وتابع لإدارة البطريركية المسكونية.

في انكلترا ديران صغيران: دير البشارة في لندن تابع «للكنيسة الروسية في المنفى» وراهباته عربيات لاجئات من فلسطين، ورئيسته روسية. ودير في تول شانت نايتز في الاسكس تابع للبطريركية المسكونية يرئسه الأرشمندريت سوفروني، تلميذ الأب سلوان راهب جبل أثوس[1] ويسكنه رهبان من جنسيات مختلفة (روس ويونان

١ - راجع «الراهب سلوان والحرب غير المنظورة»، منشورات النور (الناشر).

ورومان والمان وسويسري).

الارثوذكسية في أمريكا الشمالية

في أميركا الشمالية، ما بين مليونين وثلاثة ملايين أرثوذكسي، مقسمين الى خمس عشرة ادارة روحية مختلفة وعلى رأسها ما يزيد على الأربعين أسقفاً. قبل الحرب العالمية الأولى كان أرثوذكسيو أميركا، على اختلاف جنسياتهم، تابعين لرئيس الأساقفة الروسي، لأن الروس كانوا السبّاقين في إنشاء كنائس في أميركا. فقد قدم إلى الآلاسكا السنة ١٧٩٤ عشرة رهبان أغلبهم من دير فالامو ليبدأوا نشاطاً تبشيرياً في أوساط الاسكيمو والهنود الحمر. وقد أعلنت قداسة أحدهم ـ الأب هرمان ـ السنة ١٩٧٠. ودعم النشاط التبشيري في الآلاسكا إينوكنديوس فنيامينوف[1] الذي عمل في الآلاسكا وشرقي سيبيرا بين السنة الـ ١٨٢٤ والـ ١٨٦٨، كاهناً في البداية ومن ثم أسقفاً. ونَقَلَ إلى الأليوسية بمساعدة عدد من المبشّرين الروس انجيل متى والقداس الالهي وكتاباً للتعليم الديني. وفي السنة الـ ١٨٤١ أسّس مدرسة إكليريكية في سيتكا بالآلاسكا، وفي السنة الـ ١٨٥٨ أنشئت فيها أسقفية أصبحت فيما بعد أبرشية تبشيرية مستقلة حينما ابتاعت أميركا الآلاسكا السنة الـ ١٨٦٧. ويبلغ عدد الأرثوذكسيين في الآلاسكا اليوم نحو ٢٠,٠٠٠ من أصل ٢٠٠,٠٠٠ نسمة يقيمون فيها. وقد أعيد فتح المدرسة الاكليريكية في السنة الـ ١٩٧٣.

خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأ عدد كبير من الأرثوذكسيين يقيمون خارج حدود الآلاسكا في مناطق أخرى من أميركا الشمالية. وفي السنة الـ ١٨٧٢ نقل مقر أبرشية سيتكا الى سان فرنسيسكو ثم الى نيويورك السنة الـ ١٩٠٥، وظلّ أسقف مساعد مقيماً

(١) راجع حياته «اينوكنديوس كاروز الاسكا» في منشورات النور، ١٩٨٣ (الناشر).

بالالاسكا. في نهاية القرن ازداد عدد الأرثوذكسيين زيادة كبيرة بعودة مجموعة من «المنضمّين» إلى الأرثوذكسية. وقد كان تيخون الذي أصبح بطريركاً فيما بعد رئيس أساقفة أميركا الشمالية طيلة تسعة أعوام (١٨٩٨ - ١٩٠٧). بعد السنة الـ ١٩١٧ حين أصبحت العلاقات مع كنيسة روسيا أكثر فأكثر غموضاً، بدأت كل مجموعة قومية بتكوين تنظيم منفصل، وهكذا نشأت تلك الادارات الروحية المتعددة. وكثيرون هم الذين يعتبرون أن منح الاستقلال للكنيسة الأرثوذكسية في أميركا من قبل بطريركية موسكو يشكل خطوة أولى مشجعة نحو توحيد الادارات الأرثوذكسية في أميركا.

وفي أميركا الشمالية أكثر من مليون يوناني أرثوذكسي موزّعين على ما يزيد على ٤٠٠ رعية، بقيادة رئيس الأساقفة ياكوفوس يعاونه عشرة أساقفة مساعدون (أحدهم يعيش في كندا، وآخر في أميركا الجنوبية). ومعهد الصليب المقدس في بوسطن، مدرسة يونانية للاهوت تضم ما يزيد عن مئة طالب جميعهم مرشّحون للكهنوت. معظم الاساقفة في الأبرشية اليونانية في اميركا قدموا من اليونان ولكن أغلبية كهنة الرعايا أميركيو المولد أو ترعرعوا في الولايات المتحدة.

ويتبع هذه الأبرشية ديران صغيران. أما دير التجلي الكبير والموجود في بوسطن فقد أصبح تحت اشراف «الكنيسة الروسية في المنفى» بعد أن كان يتبع الكنيسة اليونانية هناك.

ويملك الروس أربع مدارس اكليريكية للاهوت في أميركا: معهد القديس فلاديمير في نيويورك ومعهد القديس تيخون في ساوث كانان ببنسلفانيا (وكلاهما تابع للكنيسة الأرثوذكسية في أميركا)، ومدرسة الثالوث القدوس في جوردان فيل، نيويورك (تابعة للكنيسة الروسية في المنفى)، ومدرسة المسيح المخلص في جونس تاون ببنسلفانيا (تابعة للأبرشية الكارباتية الروسية). كما يوجد العديد من الأديرة الروسية،

أكبرها دير الثالوث القدوس في جوردان فيل وفيه ٣٠ راهباً و١٠ مبتدئين. وبالاضافة الى المدرسة الاكليريكية يشرف هذا الدير على مطبعة مهمة تُطبع فيها الكتب الليتورجية باللغة السلافونية إلى جانب عدد من الكتب والمنشورات الدورية بالروسية والانكليزية. ويعمل الرهبان في الزراعة وقد بنوا كنيستهم بأنفسهم، وزيّنوها كذلك بأيقونات وجدرانيات تنتمي لأعرق تراث فني ديني في روسيا.

وتشير الحياة الأرثوذكسية اليوم في أميركا الى تحرك مشجع للغاية إذ تنشأ الرعايا الجديدة باستمرار كما تبنى الكنائس. وثمة نقص في عدد الكهنة في بعض الأماكن، إلا أنه في حين أن الجيل السابق من الاكليريكيين كان يفتقر للإعداد اللاهوتي، نرى اليوم أن غالبية الكهنة الجدد إن لم يكونوا كلهم، يحملون شهادة في اللاهوت. واللاهوتيون الأرثوذكسيون في أميركا قليلو العدد ينهكهم العمل معظم الأحيان، لكن عددهم يزداد تدريجياً. ويُصدر معهدا الصليب المقدس والقديس فلاديمير كلاهما منشورات دورية وكتباً هامة باللغة الانكليزية.

وتجابه الأرثوذكسية الأميركية اليوم مشكلة هامة هي مشكلة القومية ومكانتها في حياة الكنيسة. ويشعر الكثيرون من مختلف الادارات الروحية بعمق بأن هذه التقسيمات الجزئية الحالية الى مجموعات قومية، من شأنها تأخير عجلة النمو الداخلي للأرثوذكسية في أميركا وإعاقة شهادتها للعالم الخارجي.

وقد يبتعد الجيل الأرثوذكسي الجديد عن الكنيسة بسبب تعلقها المفرط بالمسائل القومية. فهؤلاء الشباب لم يعرفوا بلاداً غير أميركا، ومصالحهم أميركية، ولغتهم الأم الوحيدة ـ معظم الأحيان ـ هي الانكليزية: أفلن يبتعدوا عن الأرثوذكسية إذا أصرّت كنيستهم على

متابعة إقامة الخدمة بلغة غريبة عنهم وإذا أضحت «متحفاً» يختزن بقايا ثقافية من «البلد القديم».

هنا تكمن المشكلة، ويجيب الكثيرون بأنه ليس ثمة سوى حل واحد: إنشاء كنيسة أرثوذكسية مستقلة واحدة في أميركا. هذه النظرة لانشاء كنيسة اميركية مستقلة لها من يدافع عنها بحرارة في صفوف التابعين «للكنيسة الأرثوذكسية في أميركا» وفي بعض الادارات الأخرى. لكن الكثيرين، خاصة في الأبرشية اليونانية وبين العرب وفي الكنيسة الروسية في المنفى، ينظرون بتحفظ الى هذا التشديد على الأرثوذكسية الأميركية. فهم واعون بعمق لقيمة تلك الحضارة المسيحية التي نمت منذ قرون لدى الشعوب اليونانية والسلافية، ويشعرون بأن الجيل الجديد سيعيش في فقر مدقع إن أقدمت كنيسته على التضحية بتراثها المجيد، وأرادت أن «تتأمرك» بصورة كاملة. ولكن ألا تستطيع العناصر الجيدة في التقاليد الوطنية أن تستمر في الحياة، دون أن تلقي جوانب مظلمة على شمولية الأرثوذكسية؟

غالبية أولئك الذين يؤيدون توحيد الادارات الكنسية تدرك أهمية التقاليد القومية، وتتحسب للمخاطر التي قد تتعرض لها الأقلية الأرثوذكسية في أميركا اذا فصلت عن جذورها القومية وعامت في الثقافة الزمنية التي تعيشها أميركا اليوم. وتفكر هذه الغالبية بأن أفضل سياسة يمكن أن تتبعها الرعايا الأرثوذكسية حالياً هي اقامة الخدمة باللغتين. هذا الوضع المتميز بازدواجية اللغة موجود على كل حال في العديد من الأصقاع الأميركية. وكل ادارة تسمح باستخدام اللغة الانكليزية في الخدم بل هي تستخدمها أكثر فأكثر. والانكليزية مستحبة بنوع خاص في الأبرشية الاميركية الانطاكية. اما السلطات اليونانية، رغبة منها في الحفاظ على التراث الهليني في حقيقته الحية، فقد أصرت لزمن طويل على أن تكون اليونانية وحدها اللغة المستعملة في اقامة جميع

أنواع الخدم الطقسية . ولكن تغيّر الوضع في السبعينات . والانكليزية تستخدم اليوم في عدد كبير من الرعايا بنفس النسبة التي تستخدم فيها اليونانية .

ويمكن ملاحظة دلائل متزايدة تدل على التعاون بين مختلف الجماعات القومية خلال السنوات الأخيرة . فتشترك غالبية تنظيمات الشبيبة الأرثوذكسية اليوم بمجلس أنشيء العام ١٩٥٤ . وتجتمع دورياً في نيويورك منذ السنة الـ ١٩٦٠ لجنة من الأساقفة الأرثوذكسيين تمثل جميع الادارات القومية تقريباً، برئاسة رئيس الأساقفة اليوناني. (كانت اللجنة المذكورة موجودة قبل الحرب، لكن نشاطها علق منذ سنوات عديدة). اجتماعات هذه اللجنة لم تدرّ كل الفائدة المرجوة منها في توطيد الوحدة الأرثوذكسية في أميركا. ولكنها تبقى مؤشراً على التعاون بين الادارات المختلفة.

وقد خلق منح الاستقلال « للكنيسة الأرثوذكسية في أميركا » مشاكل كثيرة معظمها لا يزال عالقاً حتى الآن.

مسؤوليات «الشتات»

كأقلية صغيرة في وسط غريب، صادف الأرثوذكسيون في «الشتات» في بعض الأحيان صعوبات في الاستمرار. وقد وعى بعضهم أن هناك الى جانب ضرورة هذا الاستمرار، مسؤولية أعظم أهمية . فكونهم يؤمنون أن الايمان الأرثوذكسي هو بالذات الايمان الرسولي الجامع الحقيقي ، لا يستطيعون أن يغفلوا الغالبية من غير الأرثوذكس التي تحيط بهم، ويرون من واجبهم ان يشرحوا لها ماهية الأرثوذكسية . عليهم أن يشهدوا أمام العالم. للشتات اذن رسالة «تبشيرية» ينبغي اداؤها. وقال السينودس للكنيسة الروسية في المنفى في رسالة وجّهها في تشرين الأول ١٩٥٣ : لقد سمح الله بتشتت الأرثوذكسيين في العالم،

من أجل أن «يبشروا جميع الشعوب بالعقيدة الأرثوذكسية الحقة ويعدّوا العالم لمجيء المسيح الثاني»[1].

ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة للأرثوذكسيين؟ فالقضية، بالطبع، ليست قضية حث الناس الى اعتناق الأرثوذكسية بل هي دعوة للأرثوذكسيين حتى يتخلصوا من قومياتهم الضيقة مع الحفاظ على كل غنى تقاليدهم. عليهم أن يكونوا مستعدين لاعلان ايمانهم للآخرين فلا يتصرفون وكأن هذا الايمان مقتصر على اليونان والروس دون سواهم. عليهم أن يكتشفوا مجدداً شمولية أرثوذكسيتهم.

أمران لا بد منهما كي يتمكن الأرثوذكس من ايصال ايمانهم فعلا للآخرين: عليهم أولاً أن يفهموا هم أنفسهم الايمان بشكل أفضل، وقد حملهم التشتت معظم الأحيان على فحص ذواتهم والتعمق في أرثوذكسيتهم. وعليهم أيضاً أن يتفهموا اوضاع أولئك الذين يتوجهون اليهم بالكلام، وأن يدخلوا في خبرة المسيحيين الآخرين، ويحاولوا اكتشاف الرؤيا الخاصة بالمسيحية الغربية وتاريخها وصعوباتها الحالية، بدون أن يتخلوا عن أرثوذكسيتهم. كما ينبغي لهم أن يلعبوا دوراً حياً في الحركات الدينية والفكرية في الغرب المعاصر: في الدراسات الكتابية والآبائية، في الحركة الليتورجية، في الحركة المسكونية وفي كل اشكال العمل الاجتماعي المسيحي. يجب أن يساهم الأرثوذكسيون في كل تلك الحقول فيظهرون طابعهم المميّز ويدخلون بالوقت نفسه الى أعماق تقاليدهم الخاصة.

---

١ ـ إن هذا التأكيد على المجيء الثاني للمسيح قد يدهش الكثيرين من مسيحيي اليوم، لكنه لم يكن غريباً على مسيحيي القرن الأوّل. إن أحداث السنوات الخمسين الأخيرة أيقظت لدى العديد من الأوساط الأرثوذكسية الروسية شعوراً أعمق بالأمور الأخروية.

الارثوذكسية «الغربية»

من الصبيعي التحدث عن الأرثوذكسية الشرقية ، لكن الكثيرين من الأرثوذكس ، في أوروبا وأميركا هم الآن مواطنون في بلدان اتخذوا فيها محلا لاقامتهم : إذ أنهم هم وأولادهم الذين ترعرعوا في الغرب ، لا يعتبرون أنفسهم بعد الآن «شرقيين » بل «غربيين» . وهكذا فقد نشأت «أرثوذكسية غربية » . وهي تضم الى جانب الأرثوذكسيين بالولادة ، جماعة صغيرة يتزايد عددها من معتنقي الأرثوذكسية (نحو ثلث الكهنة العاملين في الأبرشية الانطاكية في امريكا الشمالية مؤلف من اميركيين اهتدوا إلى الارثوذكسية . وكثيرون من الأرثوذكس الغربيين يستخدمون الليتورجيا البيزنطية للقديس يوحنا الذهبي الفم (المعتمدة على العموم في جميع الكنائس الأرثوذكسية) وقد ترجمت الى الفرنسية والانكليزية والألمانية والنيرلندية والايطالية والاسبانية . لكن بعض الأرثوذكسيين يعتبرون أن الأرثوذكسية الغربية ، لكي تحافظ على أصالتها ، يجب أن تستخدم أشكالا من الصلوات الغربية البحتة ، وليس الليتورجيا البيزنطية وإنما الليتورجيات القديمة من رومانية أو غليكانية . وقد غدت تسمية « الليتورجيا الأرثوذكسية » مرادفة « الليتورجيا البيزنطية » ، كما لو أن هذه الليتورجيا وحدها هي أرثوذكسية ناسين ان الليتورجيات الغربية القديمة التي تعود للقرون العشرة الأولى ، لها أيضاً مكانتها في الملء الأرثوذكسي[1] .

هذا المفهوم الخاص بطقس أرثوذكسي غربي لم يبق في النطاق النظري فقط. فالكنيسة الأرثوذكسية اليوم ، سواء في أوروبا أم في

١ ـ يصحّ هذا أيضاً بالنسبة لليتورجيات الشرقية القديمة ، التي بطل استعمالها في الكنيسة الأرثوذكسية كقدّاس القديس مرقص التي استخدم في الاسكندرية حتى القرن الثاني عشر، حين استبدل بالقداس البيزنطي الخاص بالقسطنطينية ، وما يزال هذا القداس مستعملا لدى الكنيسة القبطية .

أميركا، عرفت حركة شبيهة بحركة «المنضمّين» في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ففي السنة ١٩٣٧ قُبلت في الكنيسة الأرثوذكسية مجموعة من الكاثوليك القدماء الفرنسيين برئاسة المطران لويس شارل فينارت (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧) وسمح لهذه المجموعة أن تحتفظ بطقوسها الغربية.

انتمت هذه المجموعة في الأساس الى بطريركية موسكو ورئسها لعدة سنوات المطران جان ده سان دني وهي اليوم تابعة للبطريركية الرومانية. ويوجد في الولايات المتحدة ايضاً جماعات عديدة تتبع الطقس الغربي. وقد وُضع العديد من الخدم حسب الطقس الغربي. مثال ذلك ما وضعه المطران ألكسي (فان در منسبروغ) وإفغراف كوفالفسكي.

التعاون بين الكنائس الارثوذكسية

إن الكنائس الأرثوذكسية المستقلة ظلت معظم الأحيان معزولة بعضها عن بعض، بدون أن يكون ذلك عائداً دائماً الى خطأ من جانبها. فقد مر وقت لم يكن لديها فيه من اتصال رسمي سوى رسائل متبادلة بانتظام بين رؤسائها. وهذه العزلة مستمرة الى حد، لكننا نلحظ عبر الشتات وفي الكنائس الأرثوذكسية القديمة، رغبة متزايدة في التعاون مردها بنوع خاص للمساهمة الأرثوذكسية في مجلس الكنائس العالمي. وفي اجتماعات «الحركة المسكونية» وجد المندوبون الأرثوذكس لمختلف الكنائس المستقلة أنفسهم غير مؤهلين بما فيه الكفاية للتحدث بصوت واحد. فتساءلوا لماذا كان من الواجب وجود مجلس عالمي للكنائس حتى يجتمع الارثوذكسيون؟ ولماذا لا يجتمع هؤلاء في ما بينهم لمناقشة قضاياهم الخاصة؟ كذلك تشعر حركات الشبيبة الأرثوذكسية بالحاجة الملحة نفسها إلى التعاون. وقد بُذل نشاط هام في هذا الاتجاه بواسطة «السندسموس»، وهي منظمة دولية تأسست السنة الـ ١٩٥٣، وتضم

حركات الشبيبة الأرثوذكسية في مختلف البلدان[1].

والبطريرك المسكوني، الأول في الكنيسة الأرثوذكسية، تحمّل قسطاً مهماً من الجهود المبذولة من أجل التعاون. وبعد الحرب العالمية الأولى نظرت بطريركية القسطنطينية في احتمال دعوة المجمع العام لكل الكنيسة الأرثوذكسية للالتئام، وتمّ الاقدام على تنفيذ الخطوة الأولى، إذ رسمت الخطط لاعداد مجمع تمهيدي يحضّر جدول عمل المجمع العام. وفي السنة ١٩٣٠ اجتمعت في جبل آثوس لجنة تمهيدية، ولكن المجمع التمهيدي بحد ذاته لم يتحقق قط، خاصة بسبب مضايقات الحكومة التركية. وفي حوالي السنة الـ ١٩٥٠، عاد البطريرك المسكوني أثيناغوراس الى فكرة «المجمع التمهيدي»، وبعد تأجيلات متكررة، عقد في رودوس مؤتمر أرثوذكسي عام في أيلول ١٩٦١ تلته مؤتمرات أخرى في رودس (١٩٦٣، ١٩٦٤)، وفي بلغراد (١٩٦٦)، وفي جنيف (١٩٦٨، ١٩٧٦).

هذه الاجتماعات كان تمهيدية لتحضير جدول اعمال «المجمع الكبير» الذي يُعتقد أنه سيبحث فيما يبحث المشاكل القائمة بين الادارات الأرثوذكسية في الشتات وكذلك علاقة الكنيسة الأرثوذكسية بالكنائس الأخرى.

التبشير

تحدثنا عن الشهادة ذات الطابع التبشيري التي يقوم بها أرثوذكسيو «الشتات»، ولكن ينبغي لنا أن نقول شيئاً عن النشاط التبشيري بالمعنى الدقيق، وهو تبشير الوثنيين. منذ عهد جوزف دي ميستر كان شائعاً في

١ ـ إن حركة الشبيبة الأرثوذكسية للكرسي الإنطاكي من أعضائها المؤسسين وقد تولى مراراً أعضاء إنطاكيون مسؤوليات هامة في السندسموس (الناشر).

الغرب أن الكنيسة الأرثوذكسية ليست كنيسة تبشيرية . والأرثوذكسيون فشلوا على العموم في ادراك مسؤ ولياتهم التبشيرية ، لكن تهمة جوزف دي ميستر ليس لها التبرير الكلي. فلو فكرنا ببعثات كيرلّس وميثوديوس والنشاط الذي قام به تلامذتهما في بلغاريا وبلاد الصرب، ولو راجعنا تاريخ اعتناق روسيا للأرثوذكسية، لأمكننا القول إن بيزنطية قامت بنشاط تبشيري لا يقل شأنا عن نشاطات السلتيين أو نشاط المسيحية الرومانية في نفس الفترة. ولكن عندما تم الاحتلال التركي أصبح متعذراً القيام علناً بأي نشاط من هذا النوع . أما في روسيا، حيث الكنيسة كانت حرة ، فان البعثات التبشيرية استمرت من دون انقطاع وإن تخللتها فترات خمد فيها النشاط، وذلك منذ عهد استيفانوس اسقف برم (وحتى قبله) وعهد اينوكنديوس اسقف كمتشاتكا واوائل القرن العشرين. وقد امتدت الحملات التبشيرية الروسية حتى بلغت الآلاسكا والصين واليابان وكوريا، اضافة الى النشاطات التبشيرية الكبيرة التي كانت تقام داخل الأراضي الروسية الشاسعة.

فما هو الوضع الراهن بالنسبة لهذا الموضوع ؟ في ظل الحكم السوفياتي كما في ظل الأتراك، من المستحيل القيام بأي عمل تبشيري . لكن البعثات التي أنشئت في الصين واليابان وكوريا لا تزال مستمرة) كما نمت بعثة أرثوذكسية في افريقيا الوسطى بصورة عفوية . من ناحية أخرى ، بدأ أرثوذكسيو أميركا وأرثوذكسيو الكنائس القديمة على شواطىء المتوسط الشرقي ، تلك التي لا تعاني الوضع الصعب التي تعانيه كنائس البلدان الشيوعية، بدأوا يُظهرون وعياً تبشيرياً جديداً.

الصين

تأسست البعثة الصينية السنة ١٧١٥ في بكين ، لكنها بالفعل تعود بتاريخها الى السنة ١٦٨٦ ، حين انخرطت جماعة من الكوزاك في

الحرس الامبراطوري الصيني ، وكان كاهنهم معهم. إلا أن العمل التبشيري المنظم لم يبدأ قبل نهاية القرن التاسع عشر. وفي السنة الـ ١٩١٤ لم يكن هناك أكثر من ٥,٠٠٠ مهتد جديد ، على الرغم من وجود عدد من الكهنة الصينيين ومدرسة اكليريكية . (كانت سياسة بعثات التبشير الأرثوذكسية تعتمد على الدوام جعل الاكليروس من أهل البلاد حالما تسنح الفرصة) . وبعد ثورة ١٩١٧ ، لم يتضاءل النشاط التبشيري بل انه ازداد بفضل عدد كبير من المهاجرين الروس ومن بينهم كهنة فرّوا شرقاً من سيبيريا . في السنة ١٩٣٩ كان في الصين ومنشوريا ٢٠٠,٠٠٠ أرثوذكسي (من الروس في معظمهم، ويضمون مهتدين صينيين جدداً)، يرعاهم خمسة أساقفة ولهم جامعة أرثوذكسية في خاربين.

وتغيّر الحال تماماً منذ السنة الـ ١٩٤٥ ، حين أمرت الحكومة الصينية الشيوعية جميع المبشرين غير الصينيين بمغادرة البلاد، ولم تستثن الروس من هذا التدبير. فأعيد كل الاكليروس الروسي مع معظم المؤمنين الى الاتحاد السوفياتي فيما عدا الذين فرّوا الى أميركا. في الخمسينات كان يوجد في الصين أسقف واحد على الأقل و٢٠,٠٠٠ مؤمن. وأما الآن فلا نعلم شيئاً عن الوضع. وكل ما نعرف هو أن الكنيسة الأرثوذكسية في الصين تدير شؤونها الذاتية بنفسها منذ العام ١٩٥٧ . واستقلالها هذا قد يساعدها على الاستمرار بالوجود في مواجهة مصيرية صعبة.

اليابان

تأسست الكنيسة الأرثوذكسية اليابانية على يد الأب (ثم الأسقف) نيقولا كساتكين (١٨٣٦ - ١٩١٢) الذي أُعلنت قداسته منذ فترة وجيزة . فحين وصل الى اليابان السنة الـ ١٨٦١ بصفته كاهناً للقنصلية الروسية ، عزم منذ البداية على العمل ليس في صفوف الروس

فحسب ، بل كذلك في صفوف اليابانيين ، ولم يمض وقت طويل حتى انصرف كلياً للعمل التبشيري . واعتمد اول مؤمن على يديه السنة الـ ١٨٦٨ ، بعدها بأربع سنوات سيم يابانيان ارثوذكسيان كاهنين . أول اسقف ياباني ، جان أونو، كان أرمل ، وصهراً لأول مهتدٍ ياباني . بعد فترة صعبة اجتازتها الكنيسة بين الحربين ، اتخذت الأرثوذكسية في اليابان دفعاً جديداً . ويوجد اليوم نحو أربعين رعية يابانية و٣٦,٠٠٠ مؤمن . مدرسة طوكيو الاكليريكية التي أغلقت العام الـ ١٩١٩ أعيد فتحها من جديد السنة ١٩٥٤ . معظم أعضاء الاكليروس من اليابانيين ولكن واحداً من الأسقفين المقيمين في اليابان هو أميركي . وعدد معتنقي الأرثوذكسية على قلته ، يتزايد بانتظام: ٣١٧ في السنة الـ ١٩٥٨ وهم في غالبيتهم فتيان تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والواحدة والعشرين ، الى جانب ثلاثة من أساتذة الجامعات . والكنيسة الأرثوذكسية اليابانية تدير شؤونها الذاتية وتتبع كنيستها الأم أي البطريركية الروسية . ومع أن عدد أعضائها ما يزال محدوداً فلا يمكن وصف الكنيسة اليابانية على انها فقط بعثة تبشيرية ، لأنها اصبحت حقاً كنيسة متأصلة في وسط الشعب الياباني .

كوريا

البعثة الروسية الى كوريا ، تأسست السنة الـ ١٨٩٨ وظلت مقتصرة على نطاق ضيق . وأول كاهن أرثوذكسي كوري جرت رسامته في السنة الـ ١٩١٢ . وفي السنة الـ ١٩٣٤ ، كان في كوريا ٨٢٠ أرثوذكسياً ، لكن عددهم تقلص اليوم . وتمكنت الأرثوذكسية الكورية من الاستمرار رغم الاضطرابات السياسية التي عانت منها البعثة منذ الحرب العالمية الأخيرة . وتتبع هذه البعثة اليوم الأبرشية اليونانية في نيوزيلنده .

إلى جانب هذه الكنائس الأرثوذكسية الآسيوية، يوجد في كل من أوغندا وكينيا كنيسة أرثوذكسية افريقية عظيمة الحيوية . والأرثوذكسية الأفريقية نشأت وطنية، اذ لم تتكوّن بفعل نشاط المبشرين بل أتت حركة عفوية قام بها الأفارقة أنفسهم. والمحركان نحو الأرثوذكسية في افريقيا هما من مواليد البلاد ويدعيان روبين سبنجا موكاسا سبارتاس (وقد رسم اسقفاً) وأوباديا كابندا باساجاكيتالو. لقد نشأ المؤسسان في الكنيسة الانجليكانية، واعتنقا الأرثوذكسية في العشرينات، ليس على أثر اتصالات أجرياها مع الأرثوذكسيين، بل نتيجة أبحاثهما الشخصية وقراءتهما ودراستهما. ومنذ أوائل الأربعينات يبشر روبين وأوباديا بحيوية سائر الأفريقيين بالعقيدة الجديدة التي عثرا عليها. وقد نظما جماعة يبلغ تعدادها وفق بعض التقارير ١٠٠,٠٠٠ مؤمن خاصة في كينيا ويوجد الآن ثلاثة اساقفة افريقيين.

وتتبع هذه الكنيسة بطريركية الاسكندرية التي تولت شؤونها منذ السنة ١٩٤٦.

وتعززت أواصر الصلات مع الاسكندرية في الخمسينات ومنذ ١٩٥٩ تولى متروبوليت يوناني تابع للبطريركية مسؤولية العمل التبشيري في افريقيا الوسطى. وأرسل طلاب من أهل البلاد الى اليونان لدراسة اللاهوت. منذ السنة الـ ١٩٦٠ جرت سيامة أكثر من ثمانين شماساً وكاهناً . حتى ذلك الحين كان المؤسسان الكاهنين الوحيدين. وقد امتد النشاط التبشيري من أوغندا الى كينيا. فالكثيرون من الأرثوذكس الأفارقة لديهم آمال كبيرة ويريدون «رمي شباكهم» على نطاق أوسع . وكما يقول المطران سبارتاس: «يبدو لي أنه في غضون فترة وجيزة من الزمن، ستشمل هذه الكنيسة جميع الأفارقة وستصبح من أهم

الكنائس في افريقيا». إن انطلاقة الأرثوذكسية في أوغندا ينبغي لها أن تُدرس مع أخذ القومية الأفريقية بعين الاعتبار: إذ أن من أهم عوامل الجاذبية في المسيحية الأرثوذكسية ولا شك، كونها مستقلة في مجملها عن كل نظام استعماري. ولكن الأرثوذكسية في افريقيا الوسطى، بالرغم من هذه الاعتبارات السياسية هي حركة دينية حقيقية.

والحماس الذي أبداه الأفارقة نحو اعتناق الأرثوذكسية هزّ خيال العالم الأرثوذكسي وأيقظ لدى الكثيرين اهتماماً جديداً بالتبشير. وكذلك الوضع «التبشيري» الذي تعيش فيه الأرثوذكسية في بلاد الشتات جعل الأرثوذكسيين أكثر وعياً لمدلول تقليدهم الخاص: أفلا يؤدي المزيد من الالتزام في مجال تنصير البلدان غير المسيحية، الى اعطاء النتيجة نفسها؟

الارثوذكسية في عالم اليوم

كل مجتمع مسيحي يقف اليوم بمواجهة معضلات خطيرة، ولعل الأرثوذكسيين هم الذين يصعب عليهم اكثر من غيرهم مواجهتها، اذ ليس دائماً من اليسير في الأرثوذكسية المعاصرة «تبيان النصر خلف مظاهر الفشل، وتمييز كيف أن قدرة الله تكمّل في الضعف، والتعرّف الى الكنيسة الحقيقية في واقعها التاريخي»[1]. ولكن اذا كان ثمة نقاط ضعف بادية للعيان، فثمة الكثير من دلائل الحيوية. ومهما تكن الشكوك والملابسات المحيطة بموضوع العلاقات بين الكنيسة والدولة في البلدان الشيوعية، فإن الأرثوذكسية، اليوم كما في الأمس، لم تبخل بالشهداء والمعترفين. وتقهقر الحياة الرهبانية في الكثير من الأماكن ليس مشكوكاً في

(١) ف. لوسكي، اللاهوت الصوفي للكنيسة الشرقية، ص ٢٤٦.

أمره ، إلا أن طابعه ليس بأي حال شاملا ، لا بل برزت بعض المراكز ستصبح في المستقبل ينابيع لنهضة رهبانية . وإن الكنوز الروحية للأرثوذكسية ، كالفيلوكاليا وصلاة يسوع ، بعيدة كل البعد عن النسيان ، وها هي تستخدم وتُقدّر أكثر فأكثر . واللاهوتيون الأرثوذكسيون المعاصرون قليلو العدد لكن بعضاً منهم يكتشف العناصر الأساسية لتقليدهم اللاهوتي . ومع أن النزعات القومية القصيرة النظر تؤخر عمل الكنيسة ، لكن الجهود الداعية الى التعاون تترسخ باطراد . أما البعثات التبشيرية فلا تزال على مستوى ضيق ، إلا أن الأرثوذكسية تظهر وعياً أكبر لأهميتها . كل أرثوذكسي واقعي النزعة لا يمكنه أن يرضى بالوضع الراهن للكنيسة . ولكن على الرغم من الكثير من المشاكل والعيوب الانسانية الظاهرة ، فإن بوسع الأرثوذكسية ، رغم ذلك ، أن تتطلع نحو المستقبل بثقة وأمل[1] .

(١) من أجل الاطلاع على القسم الثاني من الطبعة الاصلية للكتاب ، راجع «الكنيسة الأرثوذكسية : ايمان وعقيدة» ، في سلسلة «تعرّف الى كنيستك» ، رقم ١١ ، منشورات النور ، ١٩٨٢ (الناشر) .

تم طبع هذا الكتاب في شهر تشرين الثاني ١٩٨٢
في مطبعة النور – تلفون ٢٨٦٩٨٩
ولحساب منشورات النور
بيروت – لبنان